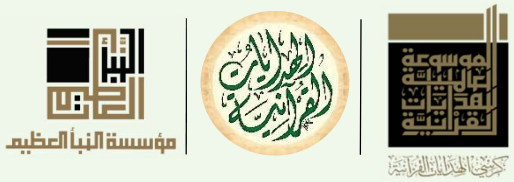

الجامع في الهدايات القرآنية

سُورَة يونس

جمع واستنباط

نخبة من الأساتذة وطلاب العلم في التفسير والقراءات والحديث والعقيدة والفقه وأصوله واللغة العربية والتربية والعلوم الطبية وغيرها، من مختلف دول العالم عبر مجموعة واتساب متخصصة في الهدايات القرآنية

إشراف

أ.د. طه عابدين طه

أستاذ التفسير وعلوم القرآن بجامعة أم القرى بمكة المكرمة

رعاية

كرسي الهدايات القرآنية بجامعة أم القرى

ومؤسسة النبأ العظيم الوقفية بمكة المكرمة

قال تعالى: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ﴾ [يونس:١]

١. تفيد عظمة القرآن الكريم وعلوّه ورفعته؛ دلَّ على ذلك الإشارة إليه بإشارة البعيد ﴿تِلۡكَ﴾

٢. تشير هذه الحروف المقطَّعة إلى إعجاز القرآن، وأنَّ الخلق عاجزون عن معارضته بمثله، هذا مع أنَّه مركَّب من هذه الحروف المقطَّعة التي يتخاطبون بها.

٣. يفيد وصف هذا الكتاب العظيم بالإحكام قال تعالي ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ أنه من عند الله، وأنه ممتنع عن الفساد والتبديل والتغيير والخلل والتناقض والاختلاف، وأنه محفوظ بحفظ الله علي اختلاف الدهور والأزمان.

٤. فيها: دقَّة التعبير؛ لأنَّه لما قدَّم الأحرف التي سيقت للتحدِّي، ذكر أنَّه كتاب حكيم (محكم وذو الحكمة)؛ دفعاً لما يحصل من جرَّاء التحدِّي من الشَّطط والمكابرة والكذب واللجاج الذي يقع من النَّاس في موطن التحدِّي.

٥. فيها الحثُّ على العناية بالقرآن الكريم واستخراج حكمه وأحكامه وهداياته.

٦. فيها أهميَّة إحكام المنهج والبرامج التعليميَّة والدعويَّة ممَّا يقتضي العناية بالتخطيط العلمي السليم.

٧. تفيد أن القرآن الكريم كتاب الحكمة التي بها صلاح وسعادة الإنسانية.

قال تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ أَنۡ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّهِمۡۗ قَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٞ مُّبِينٌ﴾ [يونس:٢].

٨. تفيد مناسبة ظاهرة، وتناسقاً رائعاً، وترابطاً عجيباً بين خاتمة السورة السابقة – سورة التَّوبة– وفاتحة هذه السُّورة – سورة يونس– في عدد من الوجوه، بالرَّغم من مكِّيَّة هذه السُّورة ومدنيَّة تلك السُّورة، ممَّا يعطي دلالة على أنَّ هذا الكتاب منزَّل من عند الله تعالى، وأنَّ ترتيب آياته وسوره بل وجمله وكلماته في غاية الإحكام والإتقان؛ ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ﴾ . ومن هذه الوجوه:–

جاء في خاتمة سورة التَّوبة: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ﴾ [التوبة:١٢٨] وجاء في صدر سورة يونس ﴿أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ﴾ ، وجاء في خاتمة التَّوبة ﴿حَرِيصٌ عَلَيۡكُم

﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:١٢٨]، ولما كان من مقتضيات حرصه عليه الصَّلاة والسَّلام، الإنذار والتَّبشير، قال: ﴿أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ . جاء في خاتمة التَّوبة ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ﴾ [التوبة:١٢٩] وجاء في فاتحة هذه السُّورة بيان صورة من صور هذا التَّولّي والإعراض ﴿قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ﴾ .

٩. في التَّعبير عن الإيحاء بنون العظمة: ﴿أَوْحَيْنَآ﴾، إشارة إلى تعظيم القرآن وجلالة قدره، وهو كذلك فلا أجلّ ولا أعظم ولا أصدق منه، وقُل من عبارات الثَّناء والتَّمجيد ما شئت عن كلام الله تعالى، فهو حجَّة لا يهتدي تاركها، ومحجَّة لا يضلُّ سالكها.

١٠. فيها استخدام أسلوب الاستفهام، وهو من الأساليب الدعويَّة القويمة.

١١. فيها من غرائب المشركين التي تستثقله العقول: أنَّهم استغربوا من إرسال رسول من البشر واستساغوا اتِّخاذ آلهة من الحجر!! "وحين تتعجَّب من العجب؛ فأنت تبطل التَّعجُّب" (١). وكذلك رمي الكفَّار القرآن بالسِّحر هنا؛ فتأمل إلى ما في أوائل سورة هود من قوله تعالى: ﴿وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [هود:٧].

١٢. تفيد مشروعيَّة التَّبشير بما يسرّ، وقد كان من هديه ﷺ أن يبشِّر أصحابه، ويكثر من قوله " أبشر" وهو بأبي وأمي القائل: " بشِّروا ولا تنفِّروا ويسِّروا ولا تعسِّروا" (٢) .

١٣. تفيد هذه الآية الفرحة الكبرى لمن انضوى تحت الإيمان والعمل الصَّالح، وروعة التَّسلية الإلهية البديعة في الآية حين أمرت بالبشرى، فمَن الآمر بالتَّبشير، ومن ناقل البشارة؟ فالمبشَّر المؤمن الذي عمل الصَّالحات وليؤمِّل ما يسرُّه.

١٤. في تعبيره بصيغة الإبهام: ﴿رَجُلٍ﴾ إضراباً عن التَّصريح بالموحى إليه، وهو الرسول ﷺ، دلالة على وضوح أمره وظهوره للنَّاس؛ فإنَّه غني عن التَّعريف به.

١٥. يؤخذ من اختيار الرَّسول منهم؛ مشروعيَّة اعتبار العلاقات والارتباطات في توكيل الأمور الشَّرعيَّة إلى النَّاس.

---

(١) تفسير الشعراوي ٩/ ٥٦٥٣.

(٢) أخرجه البخاري ١/ ٢٥، ومسلم ٣/ ١٣٥٨.

١٦. فيها أنَّ أولى النَّاس بدعوة الدَّاعي الأقربين منه فالأقربين، ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء:٢١٤] .

١٧. فيها فضل الإيمان وأهله؛ فهم من حازوا قصب السَّبق ونالوا الفضل والكرم، وعكسه بعكسه، وكما قيل: وبضدها تتبيَّن الأشياء.

١٨. فيها شؤم الكفر وذمُّ أهله.

١٩. فيها دلالة على عناد الكفار وتجبُّرهم، وشدَّة بغضهم للدين ورموزه؛ لتأكيدهم رمي الرَّسول ﷺ – أو القرآن على قراءة: (لسِحر)– بالسحر بحرف التَّوكيد ﴿إِنَّ﴾، واللام الموطئة للقسم.

٢٠. فيها إشارة إلى انحصار الرِّسالة في الرِّجال دون النِّساء، تأكيداً لقوله تعالى في سورة يوسف: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِى إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ [يوسف:١٠٩].

٢١. تفيد غفلة الإنسان وفرط جهله إذ هو غير مدرك لبعض الحكم الإلهيَّة في هذا الكون؛ لقوله تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾

٢٢. تفيد أنَّه إذا عرف السَّبب بطل العجب؛ وسبب إرسال الله تعالى رجلاً من البشر ذكرت في عدد من السُّور القرآنيَّة؛ قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء:٩٥]، وقال تعالى أيضا: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام:٩]..

٢٣. تفيد تقديم الإنذار على التَّبشير في قوله تعالى: ﴿أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ﴾؛ وذلك لأنَّ التَّخلية مقدَّمة على التَّحلية؛ وإزالة ما لا ينبغي مقدَّمة في الرُّتبة على فعل ما ينبغي، وهو معنى النَّفي مقدَّم على الاثبات، كما في الكلمة الطَّيبة" لا إله إلا الله".

٢٤. تفيد أنَّ مذهب النُّحاة في أنَّ كون الثَّاني هو عين الأول عند إعادة المعرفة ليس على إطلاقه، بل السِّياق هو الحكم والفيصل في ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ﴾ أي الكفَّار؛ ثمَّ قال: ﴿أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ أي: عموم النَّاس؛ ولهذا لم يقل: (أن أنذرهم).

٢٥. تفيد قمَّة البلاغة القرآنيَّة وروعة الفصاحة البيانيَّة؛ لقوله تعالى: ﴿أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ﴾ حيث جمعت هاتان الكلمتان ما لا يحصى من المعاني الرَّائعة والدَّلالات العظيمة التي تدلُّ على السَّبق والفضل والشَّرف والمنزلة الرَّفيعة؛ الحسيَّة منها والمعنويَّة.

٢٦. تفيد بيان تمادي الكفَّار في العناد والمكابرة واللجاج؛ حيث تارة يصفون النبي ﷺ بالسَّاحر، وتارة يصفون ما جاء به من الآيات البيِّنات بالسِّحر، ففي هذه الآية قال تعالى: ﴿قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ﴾ وقد جاءت في نفس السُّورة ﴿لَسِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [يونس:٧٦]..

٢٧. تفيد الآية الكريمة في هذه الجملة: ﴿إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ﴾ أنَّ الحرب على الدُّعاة من أعظم أساليب الكفَّار في حربهم علي الإسلام، فهم يحاربون حملة الشريعة، لإبطال ما عندهم، وتزهيد النَّاس فيهم، وفيما يحملونه من منهج إلهي.

٢٨. تفيد عموم الرِّسالة المحمَّديَّة، وأنَّها للنَّاس كافَّة وليست للعرب خاصَّة ﴿أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ﴾، وقد جاء ذلك في حديث جابر قال النَّبي ﷺ : " أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي، كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصَّة، وبعثت إلى كلِّ أحمر وأسود" (١) .

٢٩. تفيد براعة الاستهلال، وروعة الابتداء، وحسن الفاتحة لموضوعات ومحاور هذه السُّورة الكريمة؛ فهي في مجمل وحدتها الموضوعيَّة ومحاورها ومقاطعها تدور حول مقالة الكفَّار عن الرُّسل وما جاءوا به من الحقِّ والبيِّنات ﴿إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ﴾ وقوله: ﴿لَسِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [يونس:٧٦]

٣٠. تفيد استخفاف واستهزاء الكفَّار بالمعجزات الإلهيَّة لقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا﴾.

٣١. تفيد الآية عظم كلمة "الصِّدق"، وقد جاءت هذه الكلمة بصيغ عديدة ومتنوعة كما في قوله تعالى: ﴿قَدَمَ صِدْقٍ﴾ و﴿مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ [يونس:٩٣] و ﴿مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ [القمر:٥٥] و ﴿مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ [الإسراء:٨٠] و ﴿مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ [الإسراء:٨٠]وكل هذا يُحبِّبنا في الصِّدق؛ لأنَّ كل أمور الحياة؛ وفضائلها؛ وخيراتها، وما ينتظر النَّاس من سعادة؛ كل ذلك قائم على كلمة الصِّدق" (٢) .

٣٢. تفيد ضرورة وأهميَّة استخدام الإنسان العقل الذي وهبه له خالقه جلَّ جلاله للتمييز بين الحقّ والباطل، وبين المحقّ والمبطل؛ وذلك لأنَّ معركة أهل الباطل وحربهم وصراعهم ضدّ الحقّ

---

(١) أخرجه البخاري ١/٧٤، ومسلم ١/٣٧٠.

(٢) تفسير الشعراوي ٩/ ٥٦٧٣.

وأهله تقوم في بادئ الأمر على أســاس التَّأثير على الحقِّ وصــاحبه والمســتمعين له من خلال عبارات مصَّــدرة ومليئة بمؤكِّدات يوهمون بها عقول السُّــذَّج والأغبياء بصــحَّة مقالتهم وصــدق مذهبهم؛ وقوَّة حجَّتهم وأنَّها ممَّا لا تقبل الجدال أو الشَّــك؛ لهذا قالوا في هذه الآية: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ﴾. فأكَّدوا باطلهم بثلاث مؤكِّدات.

٣٣. تفيد: أنَّ قدرة الإنسان على تقبيح الحسن، وتحسين القبيح لا يحدَّها الخيال.

٣٤. وصــف الأمر بالسِّــحر والآمر بالسَّــاحر حيلة العاجز الذي لا حجَّة له في ردِّ ذلك الأمر لأنَّ السِّــحر معناه: ما خفي ولطف معناه مع شــدَّة تأثيره وجذبه، فهذا اعتراف منهم بعجزهم وقلَّة حيلتهم، ولهذا قرَّر فيلســوفهم الأكبر لما فكَّر وقدَّر ثمَّ نظر ثم عبس وبســر.. فكان المخرج ﴿فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ [المدَّثر:٢٤]، وكذلك قال فرعون لموســى عليه السلام. فكانت هذه التُّهمة هي الحاضرة السَّهلة عند العاجزين في ردِّ الآيات البيِّنات والحجج الدَّامغة.

قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [يونس:٣].

٣٥. تفيد بدلالة المناســبة لما قبلها إبطال العجب الذي وقع منهم بالإيحاء إلى رَجُلٍ مِنهم فَقالَ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أيْ مَن كانَ لَهُ هَذا الِاقْتِدارُ العَظِيمُ الَّذِي تَضِيقُ العُقُولُ عَنْ تَصَوُّرِهِ، كَيْفَ يَكُونُ إرْسالُهُ لِرَسُولٍ إلى النّاسِ مِن جِنْسِهِمْ مَحَلًّا لِلتَّعَجُّبِ مَعَ كَوْنِ الكُفّارِ يَعْتَرِفُونَ بِذَلِكَ، فَكَيْفَ لا يَعْتَرِفُونَ بِصِحَّةِ هَذِهِ الرِّسالَةِ بِهَذا الرَّسُولِ.

٣٦. فيها الاســتدلال بالرُّبوبيَّة وما يقرُّ به المشــركون من خلق الله السَّــماوات والأرض وتدبيره لأمور خلقه على اســتحقاقه وحده العبادة لا شــريك له ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ﴾، وهو ما يعبِّر عنه علماء العقائد من أنَّ توحيد الربوبية يســتلزم توحيد الإلهيَّة، فالتفكُّر في ملكوت الله ســبحانه في التَّذكير به وبقدرته هي تقود إلي إفراد الله بالعبادة والتجرُّد له ســبحانه، فإنَّ التفكُّر في الآيات الكونيَّة تستلزم أيضا التوحيد بآيات الله الشرعيَّة.

٣٧. تفيد أهميَّة إظهار حجج الرُّبوبيَّة لتنقاد العقول لألوهيَّته ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أيْ تَتَفَكَّرُونَ أدْنى تَفَكُّرٍ فَيُنَبِّهُكم عَلى أنَّهُ المُسْتَحِقُّ لِلرُّبُوبِيَّةِ والعِبادَةِ، لا ما تَعْبُدُونَهُ.

٣٨. فيها بيان لربوبيَّته والوهيَّته وعظمته وحكمته البالغة في خلق السماوات والأرض في ستَّة أيام ولو شاء ﷻ لخلقهما في لمح البصر.

٣٩. أهميَّة توحيد الرُّبوبيَّة وإظهار ذلك للنَّاس ودعوتهم إليها وإلى التَّفكُّر في خلق السَّموات والأرض وهي أهم القواعد في الرَّدِّ على الإلحاديين أو تشكيك في ذات الرَّبِّ سبحانه.

٤٠. فيها حضٌّ على التَّدبُّر والتَّفكُّر في الدَّلائل الدَّالة على ربوبيَّته سبحانه.

٤١. تفيد هذه الجملة من الآية: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ الاستدلال على وجود الله وربوبيَّته بعظيم مخلوقاته وملكه وتدبيره.

٤٢. تكرار ﴿رَبُّكُمْ﴾ فيها تقرير لهم بربوبيَّة الله لهم وعلمهم بذلك علماً يشهد له العقل والفطرة وآيات الله العظيمة في كونه وشرعه وهذه الرُّبوبيَّة لم ينكرها أحد إلا جحوداً ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل:١٤].

٤٣. فيها بيان لعزَّته جلَّ جلاله وكبريائه تقدَّست أسمائه في قوله سبحانه ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾.

٤٤. فيها أنَّ الملك كله لله وحده.

٤٥. فيها أنَّ العبادة لا يجوز أن تصرف إلا له سبحانه دون ما سواه.

٤٦. فيها أنَّ الله مرتفع على عرشه، علواً يليق بجلاله وعظمته.

٤٧. فيها أنَّ الشَّفاعة لها شرطان: الرِّضا عن المشفوع له، والإذن للشَّافع.

٤٨. فيها بيان عظمة الله وخلقه وتدبيره في ملكه.

٤٩. فيها الدَّعوة إلى العلم بالله وصفاته.

٥٠. فيها بيان ضعف المخلوق وأنَّه لا حول ولا قوَّة ولا شفاعة الا بإذن الله.

٥١. تفيد أهميَّة انطلاق أهل الحقِّ في ردودهم على أهل الباطل من المسائل التي يكون فيها الاتِّفاق معهم؛ وذلك اختصاراً للوقت والجهد، وبيان ذلك: أنَّه بعد ذكر تعجُّبهم ومقالتهم الباطلة ساق هذه الآية إبطالاً لتعجُّبهم ومقالتهم تلك، فهم لا شك يؤمنون بربوبيَّة الله تعالى، كما ذكر ذلك في كثير من الآيات القرآنيَّة، كما يؤمنون أنَّ خالق السماوات والأرض هو الله ﷻ.

٥٢. تفيد إلزامهم بأنَّ ربَّكم ومالك أمركم – الذي تعجبون من أن يرسل إليكم رجلاً منكم بالإنذار والتَّبشير وتعدّون ما أوحي إليه من الكتاب سحراً – هو ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾.

٥٣. تفيد التَّريُّث وعدم التَّعجل في الأمور.

٥٤. فيها أنَّ من أراد التَّذكُّر فعليه بالعلم وخاصة التَّوحيد ومعرفة الله وصفاته وآلاءه.

٥٥. تفيد: هذه الجملة من الآية الكريمة: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾ بيان عظمه الله وقدرته وعزته وسلطانه والتَّعريض بآلهة المشركين التي لا تنفع ولا تضرُّ فكيف بهم يرجون شفاعتها؟!

٥٦. فيها إثبات استواء الله ﷻ على عرشه استواء يليق بجلاله وعظمته، لا يشبه استواء المخلوقين، وقد ذكرت هذه الصفة في سبعة مواضع في القرآن﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾(١).

٥٧. تفيد الدَّعوة للإتقان وإحسان الأعمال ونشد الكمال وقد أشار الله لهذا المعنى في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود:٧].

٥٨. تفيد أنَّ الشَّفاعة ملك لله ﷻ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزُّمَر:٤٤] ولا تكون إلا بإذنه لعظمته وكمال سلطانه؛ بخلاف ملوك الدُّنيا فقد يشفع عندهم بغير إذنهم..

٥٩. فيها وجوب توحيد الله ﷻ وإخلاص الدين له؛ لأنَّه الرَّبُّ المدبِّر العظيم؛ لقوله: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ﴾..

٦٠. تفيد هذه الجملة من الآية الكريمة: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾ تَقْرِيرٌ لِعَظَمَتِهِ وعِزِّ جَلالِهِ، ورَدٌّ عَلى مَن زَعَمَ أنَّ آلِهَتَهم تَشْفَعُ لَهم عِنْدَ اللَّهِ.

٦١. تفيد سفه من تركوا عبوديَّة من يملك ما في السَّماوات والأرض ويدبِّرها لعبوديَّة من لا يملكون من قطمير ولا يخلقون ذباباً ولو اجتمعوا له..

٦٢. تفيد أنَّ ثمرة التَّوحيد معرفة عظمة الله تعالى وتعظيمه جلَّ وعلا.

---

(١) الواسطية لشيخ الإسلام ابن تيمية ١/٨.

٦٣. تفيد أهميَّة استخدام الأساليب البلاغيَّة المتنوِّعة في إظهار التَّوحيد فالاستفهام في قوله ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ للإنكار والتوبيخ والتقريع؛ لأنَّ من له أدنى تذكُّر وأقلّ اعتبار يعلم بهذا ولا يخفى عليه.

٦٤. تفيد أهميَّة تعريف الخلق بعظيم صفات الخالق حتى يعبدوه ويوحِّدوه وقد جاءت مئات الأدلَّة في ذلك؛ بل هو مقصود القرآن الأعظم.

قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ ۚ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [يونس:٤]

٦٥. تتناسب ما مع قبلها من الآيات حيث أنَّه اختص المؤمنين من بين النَّاس بتبشيرهم ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ بينما ينذر النَّاس بتبيان أنَّ للكافرين ﴿شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في هذا الكتاب الحكيم.

٦٦. تفيد مع ما قبلها ضرورة وأهميَّة تهيئة الخصم والانتقال به من الدَّلائل المسلَّمة لديه إلى الدَّلائل غير المسلَّمة، فبعد أن ذكر ﷻ ربوبيَّته وتدبيره لأمر المعاش، ذكر في هذه الآية أمر المعاد، وهو أمر ينكره الكفَّار أشدّ الإنكار، فربط ﷻ في هاتين الآيتين بين أمر المعاش وأمر المعاد، وأوضح أنَّ المتصرف فيهما هو واحد لا شريك له، ولهذا ناسب أن يقدم الجار والمجرور في قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾.

٦٧. فيها أنَّ العودة إلى الله حتميَّة وذكَّرهم تعالى أنَّه كما بدأ الخلق من عدم يستطيع إعادتهم مرة أخرى، وهناك إمَّا مؤمن فائز، وإما كافر خاسر.

٦٨. تفيد أنَّ وعد الله حق حيث الرجوع إليه والوقوف بين يديه ﷻ.

٦٩. تفيد ﴿لِيَجْزِيَ﴾ أنَّ الله هو الدَّيان وأنَّه مالك يوم الدين يوم الحساب، وهو الذي يحاسب النَّاس يوم القيامة، وأنَّه إذا ضاقت بالمؤمنين الدنيا، فالعبرة بكمال النهايات، عند رب عدل مقسط.

٧٠. تفيد هذه الجملة من الآية الكريمة: ﴿إِنَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ أنَّه في حجِّيَّة وقوَّة الدَّليل العقلي على أمر البعث والنُّشور باعتبار أنَّ الله بدأ الخلق من العدم فكيف يغلبه إعادة الخلق

وهو أيسر من الابتداء والكلُّ عند الله هيّن وهذا المعنى أشار إليه القرآن في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم:٢٧].

٧١. فيها أنَّهُ تَعالى لَمّا كانَ قادِرًا عَلى أنْ يَخْلُقَنا ابْتِداءً مِن غَيْرِ مِثالٍ سَبَقَ، فَلَأنْ يَكُونَ قادِرًا عَلى إيجادِنا مَرَّةً أُخْرى مَعَ سَبْقِ الإيجادِ الأوَّلِ كانَ أوْلى، وهَذا الكَلامُ قَرَّرَهُ تَعالى في آياتٍ كَثِيرَةٍ، مِنها في هَذِهِ الآيَةِ وهو قَوْلُهُ: ﴿إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾. وقَوْلُهُ تَعالى في سُورَةِ يس: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس:٧٩] (١).

٧٢. فيها من قياس الأولى ما يدل على البعث بداهة، فإنَّ من أوجد ابتداء على غير مثال سابق أقدر على الإعادة، فلا يعجزه الأدنى إذ لم يعجزه الأعلى من باب أولى.

٧٣. تفيد: إثبات يوم المعاد بالدَّليل العقلي ﴿إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ واثباته بالدليل النَّقلي ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ﴾ (٢).

٧٤. تفيد أنَّ الدُّنيا دار عمل وأنَّ الآخرة دار الجزاء على العمل.

٧٥. تفيد أنَّ على المسلم أن يستعد للقاء الله ﷻ ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾.

٧٦. تفيد أهميَّة الفصل في المقال بين أهل الخير وأهل الشر، وبين أهل الإيمان وأهل الكفر، حتى ولو كانوا يتَّفقون في بعض الأمور؛ لقوله تعالى: ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾، والقسط هو العدل، والله ﷻ عادل في جزاء المؤمنين والكفَّار، ولكن فصل بينهما للنكتة السابقة؛ وذكر ابن الجوزي في تفسيره نكتة أخرى فقال: (فإن قيل: كيف خصَّ جزاء المؤمنين بالعدل، وهو في جزاء الكافرين عادل أيضا؟ فالجواب: أنَّه لو جمع الفريقين في القسط، لم يتبيَّن في حال اجتماعهما ما يقع بالكافرين من العذاب الأليم والشرب من الحميم، ففصلهم من المؤمنين ليبيّن ما يجزيهم به ممَّا هو عدل أيضا، ذكره ابن الأنباري).

٧٧. تقديم المؤمنين وجزائهم يدلُّ على تكريمهم وتقديمهم وفضلهم.

٧٨. فيها تلازم الإيمان والعمل الصَّالح فهو من عطف الخاصّ على العامّ للاهتمام.

٧٩. تفيد أهميَّة التَّعليل وذكر الأسباب، وربط النَّتائج بها.

---

(١) تفسير الرازي ١٩٤/١٧.

(٢) تفسير السعدي ١/ ٣٥٧.

٨٠. تفيد عناد الكفَّار واستمرارهم على الكفر دلَّ عليه استعمال الفعل المضارع ﴿يَكۡفُرُونَ﴾ الذي يدلُّ على الاستمرار، وكذلك قوله: ﴿كَانُواْ﴾.

٨١. تفيد ﴿بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾ تأنيس المؤمنين وإكرامهم بأنَّ جزاءهم قد استحقُّوه بما عملوا، كقوله: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [النحل:٣٢]. ومن أعظم الكرم أن يوهم الكريم أنَّ ما تفضَّل به على المكرم هو حقّه وأن لا فضل له فيه"[١].

٨٢. يفيد تخصيص الشَّراب من الحميم بالذِّكر من بين أنواع العذاب الأليم؛ لأنَّه أكره أنواع العذاب في مألوف النُّفوس.

٨٣. تفيد التَّرغيب بأقصى حدٍّ والترهيب بأفظع ما يكون، طالما الوقت متاح ليجدَّ المجدُّ ويحافظ بل يزيد على ما هو عليه، ويرتدع غيرهم..

٨٤. فيها الإشارة إلى الاهتمام بجزاء المؤمنين الصَّالحين وأنَّه الذي يبادر بالإعلام به وأنَّ جزاء الكافرين جدير بالإعراض عن ذكره لولا سؤال السَّامعين، ووجهه تغيير الأسلوب حيث لم يعطف جزاء الكافرين على جزاء المؤمنين فيقال: ويجزي الذين كفروا بعذاب إلخ ... "[٢].

٨٥. يفيد تقديم الإيمان أنَّ أعمال القلوب هي الأصل وأعمال الجوارح تابع، عطف أعمال الجوارح على أعمال القلوب لأنَّها تصدقها، أمَّا المنافقون فقد عكسوا القضيَّة فهم يعملون بجوارحهم دون قلوبهم وتلك هي الأعمال التي لا يقبلها الله.

٨٦. تفيد مع بقيَّة النُّصوص أنَّ من سبر غور الشريعة في مصادرها ومواردها علم ارتباط أعمال الجوارح بأعمال القلوب، وأنَّها لا تنفع بدونها، وأنَّ أعمال القلوب أفرض على العبد من أعمال الجوارح، فعبوديَّة القلب أعظم من عبودية الجوارح، وأكثر وأدوم، فهي واجبة في كلِّ وقت"[٣].

٨٧. تفيد تنوُّع جنس العبادات، فمنها ما هو لازم ومنها ما هو متعدي، ومنها ما هو بدني وما هو مالي، وما هو مركَّب منهما، وفي هذا تحفيز وشحذ للهمم.

---

(١) التحرير والتنوير ٩٢/١١.

(٢) نفس المرجع ٩٣/١١.

(٣) انظر: بدائع الفوائد ١٩٣/٣.

٨٨. تفيد أيضا التَّنوُّع الذي يطرد الملل، التَّنوُّع في العبادات والأعمال الصَّالحة يتأتَّى لكلٍّ بحسبه ووفق ما آتاه الله جلَّ وعلا.

٨٩. يفيد التَّعبير بجمع القلَّة (جمع المؤنَّث السَّالم) دون جموع الكثرة المتعددة إشارة إلى كرم الله تعالى وفضله في مجازاته أهل الإيمان على الأعمال الصَّالحة الخالصة الدَّائمة ولو كانت قليلة.

٩٠. تفيد أنَّ كل ما وعد الله تعالى به حقّ يجب الإيمان بصدقه واليقين بتحقُّقه ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا﴾ [النساء:١٢٢]، ومن أعظم ما وعد به الجزاء على الأعمال في الآخرة.

٩١. تفيد أهميَّة الاستعداد للقاء الله تعالى الذي لا ينبغي الشَّكُّ في مرجع جميع الخلق إليه.

٩٢. تفيد أنَّ التَّوحيد الذي هو القسط هو أعظم ما يكون عليه الجزاء لقوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ﴾ أيْ بِعَدْلِهِ أوْ بِعَدالَتِهِمْ وقِيامِهِمْ عَلى العَدْلِ في أُمُورِهِمْ، أوْ بِإيمانِهِمْ؛ لِأنَّهُ العَدْلُ القَوِيمُ، كَما أنَّ الشِّرْكَ ظُلْمٌ عَظِيمٌ، وهو الأوْجَهُ لِمُقابَلَةِ قَوْلِهِ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾.

٩٣. فيها دليل على إمكان الحشر والنَّشر والمعاد وصحَّة وقوعه، وردٌّ على منكري البعث.

٩٤. تفيد بدلالة السِّياق مع ما قبلها ما يدعو لعبادته وتوحيده؛ لأنَّ مرجع الخلق إليه وهو المحاسب والمجازي لهم.

٩٥. تفيد عظمة الله تعالى وكمال قدرته وعلمه وحكمته جل وعلا حيث مردّ الخلق كلهم إليه وهو المحاسب والمجازي لكلِّ عامل منهم.

٩٦. تفيد التَّنفير عن الكفر بالله وآياته ورسوله والبعث لما يترتَّب عليه من عذاب أليم.

٩٧. تفيد التَّرغيب في تحقيق الإيمان والعمل الصَّالح الذي به تتحقَّق السَّعادة والنَّجاة.

٩٨. تفيد أنَّ الكفر والمعاصي ظلم عظيم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣].

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس:٥]

٩٩. تفيد الآية كمال قدرة الله تعالى حيث جعل لكلٍّ من هذه الأفلاك العظيمة خصائص تختلف عن الأخرى والنَّظر في إبداع صنعه جل في علاه وإتقان خلقه وعظيم سلطانه فجعل الشَّمس ضياء والقمر نوراً..

١٠٠. تفيد الآية أهميَّة دراسة الآيات الكونيَّة وتعلُّمها والتَّعرُّف على دقائق تفاصيلها المعرفيَّة.

١٠١. تفيد أنَّ الأصل والمعتمد في التَّقويم وحساب الشُّهور والسِّنين هو التَّقويم الهجري القمري.

١٠٢. تفيد: رحمة الله ﷻ بعباده حيث جعل القمر منازل ليعرف بها عدد السَّنوات والشُّهور والأيَّام والسَّاعات.

١٠٣. وفي هذه الآية إشارة إلى أنَّ معرفة ضبط التَّاريخ نعمة أنعم الله بها على البشر [١].

١٠٤. تنقل بين آيات القرآن وآيات الكون لإثبات أساسيَّات الدِّين وأركان الإيمان، وكما قيل: القرآن كون ناطق والكون قرآن صامت، فاختلاف النَّاس في مستويات تلقِّيهم وتأثُّرهم استلزم اختلاف أدوات التأثير والإقناع.

١٠٥. الضمير ﴿هُوَ﴾ عائد إلى اسم الجلالة في قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ﴾ [يونس:٣]. وهذا استدلال آخر على انفراده – تعالى – بالتَّصرُّف في المخلوقات، وهذا لون آخر من الاستدلال على الإلهيَّة ممزوج بالامتنان على المحجوجين به [٢].

١٠٦. تفيد: أنَّه ينبغي أن يكثر من الأدلَّة لمن طمس الكفر بصيرته، فقد مثّل المولى للكفار بأكثر صور قدرته ورحمته وإنعامه وحكمته، ليعملوا عقولهم ويفيقوا من غفلتهم.

١٠٧. يفصل وفي قراءة نفصل، بالمضارع وإفادتها للتِّكرار تستوجب ألَّا ييأس الدَّاعية أو يحبط ويستمر بالتَّفصيل والشَّرح والدَّعوة بغضِّ النَّظر عن النَّتيجة.

١٠٨. يفيد قوله تعالى: ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أنَّ فيه استثارة لحفيظة من لم يعلم فلم يؤمن، وفيه تجربة كل الوسائل لمخاطبة الآخر بُغية الوصول الى الهدف.

---

(١) التحرير والتنوير ٩٦/١١.

(٢) نفس المرجع ٩٣/١١.

١٠٩. فيها بيان عظمة الله ﷻ وسعة قدرته وجليل حكمته في خلق الشَّمس التي تضيء هذا الكون وتمدَّه بالحرارة وما فيها من المنافع العظيمة لجميع المخلوقات، وفي خلق القمر وما فيه من منافع وفوائد لا تحصى؛ ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ دَآئِبَيۡنِۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾ [إبراهيم:٣٣].

١١٠. فيها دقَّة التَّعبير القرآني وسعة ما فيه من معاني؛ في وصف الشَّمس بالضِّياء لما فيها من حرارة بخلاف القمر فهو نور لا حرارة فيه ولذلك سمَّى الله تعالى التَّوراة ضياء لما فيها من التَّشديدات والآصار: ﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلۡفُرۡقَانَ وَضِيَآءٗ وَذِكۡرٗا لِّلۡمُتَّقِينَ ﴾ [الأنبياء:٤٨] بخلاف القرآن فقد سمَّاه نوراً لما فيه من التَّخفيف والتَّيسير، وقال النَّبي ﷺ: "والصَّلاة نور والصَّدقة برهان والصَّبر ضياء" (١) ، فلمَّا كانت الصَّلاة قرَّة عين وراحة سمَّاها نوراً وسمَّى الصَّبر ضياء لما يحتاجه من مجاهدة ومكابدة.

١١١. فيها فضل العلم بآيات الله إجمالاً وتفصيلاً؛ لقوله: ﴿ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴾.

١١٢. تفيد أهميَّة الحديث عن توحيد الرُّبوبيَّة، الذي له أثره في تعظيم الله تعالى ومعرفة فضله ومحبَّته والمسارعة إلى عبوديَّته.

١١٣. تفيد فائدة عظيمة للقمر ﴿وَقَدَّرَهُۥ﴾ أَيْ: الْقَمَرَ ﴿مَنَازِلَ لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ﴾ فَبِالشَّمْسِ تُعْرَفُ الْأَيَّامُ، وَبِسَيْرِ الْقَمَرِ تُعْرَفُ الشُّهُورُ وَالْأَعْوَامُ..

١١٤. تفيد وجود الحكمة الرَّبانيَّة من وراء كلِّ خلق ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ﴾ أَيْ: لَمْ يَخْلُقْهُ عَبَثًا بَلْ لَهُ حِكْمَةٌ عَظِيمَةٌ فِي ذَلِكَ، وَحُجَّةٌ بَالِغَةٌ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا بَٰطِلٗاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ [ص:٢٧] .

١١٥. تفيد أهميَّة علم الحساب الذي به يعلم حِساب الأعمار والآجال المؤجَّلة للدّيون والإيجارات والمعاملات والعدَد وغير ذَلِك.. فلولا حلوك الشَّمْس والقَمَر في تِلْكَ المنازل وتنقلهما فِيها منزلَة بعد منزلة لم يعلم شَيْء من ذَلِك. وَقد نبَّه تَعالى على هَذا في غير مَوضِع من كِتابه.

---

(١) أخرجه مسلم ١/٢٠٣.

١١٦. تفيد: أنَّ من دقَّة التَّعبير ما ذكره العلماء من أنَّ الضِّياء منه نور يُرى ومنه ما لا يُرى، أما النُّور فهو القسم المرئي والمنعكس على القمر، قال السّيوطي: هَذِهِ الآيَةُ أَصْلٌ فِي عِلْمِ المواقِيتِ والحِسابِ ومَنازِلِ القَمَرِ والتَّارِيخِ.

١١٧. تفيد أنَّ هذا التَّقدير للشَّمس والقمر من النِّعم التي تذكر وتشكر لما فيها من لطف عظيم ربَّاني بالعباد لمصالحهم قبل أن يهتدوا إليها.

١١٨. تفيد أنَّ علم الفلك والحساب من علوم القرآن التي هدى إليها.

١١٩. تفيد أهميَّة العلم ومنزلته ومكانته فهو من أسباب الانتفاع بآيات الله الكونيَّة والقرآنيَّة..

١٢٠. تفيد: أنَّ في ذكر بعض نعمه تعالى على المكلفين من الأهميَّة بمكان؛ لأنَّها ممَّا يُسْتَدَلُّ بِهِ عَلى وُجُودِهِ، ووَحْدَتِهِ، وقُدْرَتِهِ، وعِلْمِهِ، وحِكْمَتِهِ بِإتْقانِ صُنْعِهِ في هَذَيْنِ النَّيِّرَيْنِ المتَعاقِبَيْنِ عَلى الدَّوامِ بَعْدَما ذَكَرَ قَبْلَ هَذا إبْداعَهُ لِلسَّماواتِ والأرْضِ، واسْتِواءَهُ عَلى العَرْشِ وغَيْرَ ذَلِكَ.

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ [يونس:٦]

١٢١. تفيد مناسبة الآية لما قبلها ببيان أنَّ اختلاف الليل والنهار مرتبط بالشَّمس والقمر حيث يختلفان في تعاقبهما ويختلفان طولاً وقصراً بحسب أيَّام العام.

١٢٢. فيها مناسبة ظاهرة لما قبلها؛ قال السَّعدي: لما قرَّر ربوبيَّته وإلهيَّته، ذكر الأدلَّة العقليَّة الأفقيَّة الدَّالة على ذلك وعلى كماله، في أسمائه وصفاته، من الشَّمس والقمر، والسَّماوات والأرض وجميع ما خلق فيهما من سائر أصناف المخلوقات، وأخبر أنَّها آيات ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ و ﴿لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ (١).

١٢٣. التَّقويم الهجري والتَّقدير القمري يفيد تنوُّع المواسم بحيث يكون رمضان تارة في الصَّيف وتارة في الشِّتاء وكذلك الحج.

١٢٤. فيها: أهميَّة التَّفكُّر؛ بل التعمُّق في التَّفكير في خلق السَّماوات والأرض وسبر أغوارها وهي من دلائل توحيد الرُّبوبيَّة، فإنَّ التَّفكُّر في عظمة خلق الله للسَّماوات والأرض من تقوى الله ﷻ وقد أثنى الله ﷻ على هؤلاء، ووصفهم بأنَّهم من أولي الألباب، قال تعالى: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [آل عمران:١٩١].

---

(١) تفسير السعدي ١/٣٥٨.

١٢٥. تفيد الاستهداء إلى الله تعالى عن طريق الاستقراء والتَّفكُّر في آياته الكونيَّة والمرئيَّةز

١٢٦. تفيد أنَّ التَّقوى تنير البصيرة وتفتِّح العقل وتوسِّع الإدراك.

١٢٧. تفيد أنَّ الله جلَّ وعلا جعل مواقيت العبادات مستندة على أشياء محسوسة، ومن ذلك القمر الذي جعله الله منازل، فإنَّه يعرف لجميع النَّاس فيراه من في البر والبحر ويعرف دخول الشهر وخروجه، فإذا رأى الهلال صام ولو لم يكن يعرف القراءة وغير ذلك من مميزات، ولذلك هو تقويم لجميع النَّاس.

١٢٨. تفيد: كمال قدرة الله تعالى وعلمه، وحياته، وقيوميَّته، وما فيها من الأحكام والإتقان والإبداع والحسن، دالّ على كمال حكمة الله، وحسن خلقه وسعة علمه، وما فيها من أنواع المنافع والمصالح، كجعل الشَّمس ضياء، والقمر نوراً، يحصل بهما من النَّفع الضَّروري ما هو مشاهد.

١٢٩. في هذه الآيات الحثُّ والتَّرغيب على التَّفكُّر في مخلوقات الله، والنَّظر فيها بعين الاعتبار، فإنَّ بذلك تنفتح البصيرة، ويزداد الإيمان والعقل، وتقوى القريحة، وفي إهمال ذلك تهاون بما أمر الله به، وإغلاق لزيادة الإيمان، وجمود للذهن والقريحة" [١] .

١٣٠. فيها أنَّ التَّفكُّر في اختلاف الليل بظلامه وسكونه والنَّهار بضيائه وحركته يقود إلى الإيمان بالله ﷻ وتعظيمه وعبادته وحده فليس هناك مخلوق يقدر على ذلك، وقد كثر الأمر بالتَّأمُّل في الليل والنَّهار في القرآن الكريم.

١٣١. إيثار الفعل المضارع في قوله: ﴿يَتَّقُونَ﴾ يدلُّ على الاستمساك بالتَّقوى والاستمرار عليها حتى الموت، وقد قال الله تعالى لنبيِّه ﷺ: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾ [الحجر:٩٩] .

١٣٢. تفيد بضميمة ما قبلها كمال قدرة الله تعالى الذي يخلق ما يشاء، فيخلق الشيء ويخلق ما يخالفه في الصِّفات مثل الشَّمس والقمر والليل والنَّهار والسَّماء والأرض والإشارة لمثله كثيرة في القرآن للدّلالة على عظمه خلقه وكماله. كما في قوله تَعَالَى : ﴿وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات:٤٩] : أَيْ صِنْفَيْنِ وَنَوْعَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ.

١٣٣. تفيد أنَّ الليل والنَّهار أوعية لأعمال العباد التي تورث التَّقوي.

---

(١) تفسير السعدي١/٣٥٨.

١٣٤. تفيد تنوُّع العبادات بتنوُّع الزَّمان والتَّوقيت اليومي ممَّا يدفع الملل.

١٣٥. تفيد سعة مفهوم العبادة وتقوى الله لتسع وتستوعب الحياة كلَّها كمحراب للعبادة وهل العمر إلا تعاقب الليل والنَّهار.

١٣٦. تفيد كما هو عليه جمع من العلماء أنَّ الليل سابق والنَّهار عارض، ويعضده قوله تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا﴾ [النازعات : ٢٧-٢٩]، فبدأ بالليل قبل النَّهار.

١٣٧. يفيد: تقديم السَّموات على الأرض في سياق التَّعريف بعظمة خلق الله وكمال قدرته فإنَّ تقديم السَّماء على الأرض فيه معنى: وهو أنَّ السَّماوات والأرض تذكر غالباً في سياق آيات الرَّب الدَّالة على وحدانيَّته، وربوبيَّته. ومعلوم أنَّ الآيات في السَّماوات أعظم منها في الأرض؛ لسعتها، وعظمتها، وما فيها من كواكبها، وشمسها، وقمرها، وبروجها، وعلوها، واستغنائها عن عمد تقلُّها، أو علَّاقة ترفعها، إلى غير ذلك من عجائبها، وما فيها كقطرة في سعتها؛ ولهذا أمر سبحانه بأن يرجع النَّاظر فيها البصر كرَّة بعد كرَّة، ويتأمَّل استواءها، واتساقها، وبراءتها من الخلل والفطور، فالآية فيها أعظم من الأرض، وفي كل شيء له آية سبحانه وبحمده [١].

١٣٨. يفيد: تقديم الليل والسَّموات على النَّهار والأرض في سياق التَّعليل بالتَّقوى، على مكانة الليل في اكتساب وتحقيق تقوى الله وذلك من خلال الشَّواهد التَّالية – مكانة العبادة التي تنشأ في الليل ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ [المزمل:٦]، ولخفاء عبادة الليل من أعين الناس وأدعى للإخلاص ممَّا ناسب: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة:١٧]، ولنزول الرَّب جل وعلا في ثلث الليل الأخير –كذلك اجتماع القربان في الثُّلث الآخر حال السُّجود "قرب الرَّب من العبد وقرب العبد من الرَّب" فأقرب ما يكون العبد من الرَّب وهو ساجد.

١٣٩. تفيد أنَّ الَّذِي أوْجَدَ هَذِهِ الآياتِ الباهِرَةَ، وأوْدَعَ فِيها المَنافِعَ الظّاهِرَةَ، وأبْدَعَ في كُلِّ كائِنٍ صُنْعَهُ، وأحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ، ومَيَّزَ الإنْسانَ وعَلَّمَهُ البَيانَ –يَكُونُ مِن رَحْمَتِهِ وحِكْمَتِهِ

(١) بدائع الفوائد ١/ ٧٤.

اصْطِفاءُ مَن يَشاءُ لِرِسالَتِهِ، لِيُبَلِّغَ عَنْهُ شَرائِعَ عامَّةً، تُحَدِّدُ لِلنّاسِ سَيْرَهم في تَقْوِيمِ نُفُوسِهِمْ، وكَبْحِ شَهَواتِهِمْ، وتَعَلُّمِهِمْ مِنَ الأعْمالِ ما هو مَناطُ سَعادَتِهِمْ وشَقائِهِمْ في الآخِرَةِ.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ﴾ [يونس:٧].

١٤٠. فيها من المناسبة: لما ذكر سبحانه الدَّلائل القاهرة على إثبات ألوهيَّته وصحَّة وقوع اليوم الآخر، شرح هنا أحوال من يكذِّب بذلك ومن يصدِّق.

١٤١. عظيم مكانة الإيمان باليوم الآخر، فهو الذي يحفِّز المؤمنين عن الرُّكون الى الدنيا والإخلاد إليها.

١٤٢. فيها شؤم الدُّنيا وخطورة الانكباب على لذَّاتها حتى يشغل العبد بها عن ذكر الله والدَّار الآخرة.

١٤٣. تفيد أنَّ من شؤم الرِّضا بالدُّنيا الغفلة عن آيات الله والانصراف عن التَّفكُّر فيها والاعتبار بها.

١٤٤. تفيد: أنَّ الكافرين الذين لا يتوقَّعون لقاء الله ﷻ لا يخافوه ولا يطمعوا فيه حيث ركنوا عند الحياة الدُّنيا ورضوا بها فلا ينتفعوا بالآيات الكونيَّة ولا بالآيات الشَّرعيَّة.

١٤٥. تفيد أنَّ أعظم ما يطمع فيه الطَّامعون، وأعلى ما يأمله المأمِّلون، وأرجى ما يرجوه الرَّاجون، ويسعى إليه الساعون، هو لقاء الله تعالى، مدبِّر الأمر، وخالق الكون، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ﴾.

١٤٦. تفيد أنَّ هذه الحياة الدُّنيا إنَّما هي دار ممر لا دار مقر، وأنَّ جميع الخلق منتقلون من هذه الدَّار الفانية إلى الدَّار الباقية للقاء الله تعالى، فالرُّكون والسكون إلى هذه الدار الفانية، والرِّضا والاطمئنان بها، والانهماك بشهواتها وملذَّاتها، وعدم التَّزود فيها للقاء الله تعالى في الدَّار الباقية، من صنيع الغافلين الهالكين، نعوذ بالله من أن نكون منهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ۝٧﴾.

١٤٧. تفيد مع ما قبلها وما بعدها أنَّ أعظم ما يصدُّ الناس عن الاستدلال والنَّظر والاعتبار بآيات الله تعالى الكونيَّة والشَّرعيَّة، هو الرِّضا والاطمئنان بالحياة الدنيا، ونسيان لقاء الله تعالى.

١٤٨. تفيد أنَّ أعظم خطيئة وبليَّة في هذه الحياة الدنيا والتي هي أساس كل خطيئة وبليَّة هو ما يصاب بها العبد في قلبه من ذهاب الخوف والرجاء من لقاء الله تعالى في الآخرة.

١٤٩. تفيد: حقارة هذه الدُّنيا، فحبُّها رأس كلِّ خطيئة وعامَّة الذُّنوب بسبب حبِّها، وإيثارها، فمن أجلها سفكت الدِّماء، ونهبت الأموال، وانتهكت الأعراض، فالواجب على المؤمن أن يحذرها، فهي أسحر من هاروت وماروت، لأنَّهما يفرِّقان بين المرء وزوجه، والدُّنيا تفرِّق بين المرء وربّه.

١٥٠. تفيد الآية أنَّ النَّاس منقسمين إلى قسمين؛ قسم ينكر لقاء الله بعد الموت وهؤلاء من لا يؤمن أساساً بالبعث، وقسم يعرفون أنَّهم مبعوثون؛ ولكن رضو بالحياة الدُّنيا واستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير وانغمسوا فيها.

١٥١. تفيد أنَّ القرآن يجلِّي أصناف النَّاس ليحذر المؤمن وينتبه.

١٥٢. تفيد خطورة الحياة الدُّنيا وأثرها السَّيِّئ على الأفراد والجماعات، فهي مع ما فيها من المنغصات والمزعجات وما فيها من الشَّقاء والنَّكد والأمراض والأوبئة الفتَّاكة إلا أنَّ كثيراً من البشر يركنون إليها ويطمئنون ويرضون بها بديلاً عن الدَّار الآخرة، فما أشدّ خطورتها وما أعظم غفلة محبِّيها.

١٥٣. تفيد خطورة الرِّضا بالدُّنيا بديلاً عن الآخرة ﴿وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا﴾ أَيْ: رَضُوا بِهَا عِوَضًا مِنَ الْآخِرَةِ فَعَمِلُوا لَهَا.

١٥٤. فيها التَّحذير من الرُّكون إلى الدُّنيا وأنَّه ينسي لقاء الله والاستعداد للدَّار الآخرة.

١٥٥. فيها التَّزهيد في الدُّنيا وتحقير ما فيها؛ ووجه ذلك تسميتها بـ(الدُّنيا).

١٥٦. وفيها: من الإعراض نسيان لقاء الله والدَّار الآخرة، وأنَّ الإعراض عن الله وآياته سبب للوقوع في الذُّنوب والمعاصي، وأنَّ الرُّكون للدُّنيا دليل على نسيان الآخرة أو تناسيها.

١٥٧. تفيد أنَّ أعظم ما يعمل له المؤمن ويستعدّ إليه هو لقاء الله فرداً يوم القيامة للحساب والجزاء.

١٥٨. تفيد: الجملة الاسمية على استحكام الغفلة فيهم وثباتهم عليها.

١٥٩. تفيد مع ما قبلها وما بعدها ومع قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ﴾ أنَّ العلم بآيات الله تعالى الكونيَّة والشَّرعيَّة طريق إلى الزُّهد وعدم الرُّكون والرِّضا بالدُّنيا، والحرص على إيثار الآخرة عليها، ولهذا كان العلماء أكثر العباد خشية لله تعالى لمعرفتهم بحقيقة هذه الحياة الفانية، ووجود حياة أخرى بعدها؛ قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر:٢٨] وإلى هذا أشارت الآيات بعد ذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ﴾ [يونس:٩]، أي: يهديهم ربُّهم إلى حقيقة هذه الحياة الدُّنيا وضرورة الاستعداد للقاء الله تعالى بسبب إيمانهم بالله المبني على العلم والاستدلال بالآيات الكونيَّة والشَّرعيَّة.

قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٨ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [يونس:٨، ٩].

١٦٠. فيها أنَّ عدل الله يتحقَّق في اليوم الآخر في مآلات المؤمنين والكافرين.

١٦١. تفيد بُعدهم في الضَّلال والشَّقاء؛ دلَّ على ذلك الإشارة إليهم بإشارة البعيد أولئك

١٦٢. فيها إثبات النَّار والتَّخويف من دار البوار.

١٦٣. فيها استمرارهم في الغفلة والضَّلال والشَّر حتى كان مأواهم النَّار دلَّ على ذلك قوله: ﴿كَانُواْ﴾ والفعل المضارع ﴿يَكۡسِبُونَ﴾ وعليه فيها خطورة الإقامة على المعاصي وعدم التَّوبة منها.

١٦٤. فيها ردٌّ على الجبريَّة لأنَّه نسب الكسب إليهم.

١٦٥. في الآية الكريمة أنَّ أغلى وأنفس ما أعطيه المؤمن إيمانه فهو وسيلته إلى الجنَّة بعد توفيق الله وإذنه.. فليتشبَّث به ويحافظ عليه من مزعزعات الإيمان في هذا العصر وكل عصر.

١٦٦. تفيد أنَّ من أسباب التَّوفيق الصِّدق والإخلاص ومتابعه الرَّسول ﷺ.

١٦٧. تفيد أنَّ للإيمان نوراً يهتدي به العبد المؤمن في طريقه في ظلمات وفتن الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم﴾.

١٦٨. تفيد كذلك أنَّ من أجلّ وسائل الثَّبات على دين الله التوحيد (الإيمان) وطاعة الرَّسول (الصَّالحات) بفعل المأمور وترك المحظور.

١٦٩. تفيد أنَّ مجرَّد الإيمان والعمل الصَّالح لا يكفي في الوصول إلى الجنَّة؛ بل لا بد بعد ذلك من الهداية الرَّبانيَّة؛ والرَّحمة الإلهيَّة؛ لقوله تعالى: ﴿يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم﴾، وفي الحديث: "لن يُدخل أحدًا عملُه الجنَّة. قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا، إلا أن يتغمَّدني الله بفضل ورحمة" (١) ، فلولا هداية الله، وعونه وتوفيقه لما فاز أحد بجنَّة ولا نجا أحد من نار.

قال أبو الطيِّب المتنبئ:

إن كان عون الله للمرء شاملًا تفتح له من كل أمر مراده

وإن لم يكن عون من الله للفتى فأول ما يجني عليه اجتهاده

١٧٠. تفيد أنَّ العبد المؤمن مهما ترقَّى في المقامات العالية وعرج إلى الدَّرجات الرَّفيعة وصعد إلى مراتب الكمال عند ربه ﷻ؛ إلا أنَّه ما يزال بحاجة إلى هدايات متكرِّرة وتسهيلات وإرشادات ودلالات مستمرَّة منه ﷻ؛ لقوله تعالى بصيغة المضارع: ﴿يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم﴾.

١٧١. يفيد العدول عن اسم الجلالة العلم (الله) إلى وصف الربوبية مضافاً إلى ضمير (الذين آمنوا). تشريفاً للمؤمنين وتنويهاً بشأن ومنزلة هدايتهم كونها صادرة من ربِّهم صاحب العطايا العظيمة الكاملة والرَّحمة الواسعة التَّامة، فشأنها أن تكون عطيَّة كاملة مشوبة برحمة تامة؛ قال تعالى: ﴿يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم﴾.

١٧٢. تفيد جمال وروعة الدَّار والمأوى التي أعدَّها الله لعباده المؤمنين؛ حيث ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ وفي ذلك إغاظة شديدة لمن تقدَّم ذكرهم في الآية السابقة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾، فشتَّان ما بين هاتين الصُّورتين: (مأوى النَّار، وجريان الأنهار) وفوق ذلك ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾.

١٧٣. تفيد تعدُّد أشكال وكثرة أنواع ما أعدَّه الله تعالى لعباده المؤمنين من ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾.

قال تعالى: ﴿دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٞۚ وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [يونس:١٠]

تفيد دقَّة التَّناسب وروعة التَّناسق مع ما قبلها فبعد أن ذكر ﷻ الذين لا يرجون لقاءه، ذكر الذين يرجون لقاءه مبيِّناً جزاءهم في ذلك اللقاء وهو السَّلام منه ﷻ عليهم: ﴿تَحِيَّتُهُمۡ يَوۡمَ يَلۡقَوۡنَهُۥ

(١) أخرجه البخاري ١٢١/٧، ومسلم ٢١٦٩/٤.

سَلَٰمٌ﴾ [الأحزاب:٤٤] والسَّلام من ملائكته المسبِّحة بحمده: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡ﴾ [الرعد:٢٤].

١٧٤. تشير إلى ما فيه أهل الجنة من نعيم واطمئنان بـــ ﴿دَعۡوَىٰهُمۡ﴾ أي: دعاؤهم في الجنَّة، سبحانك تنزيهاً لك عن كل عيب ونقص.

١٧٥. يفيد: قوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌۚ﴾ أي: يدعوا بعضهم لبعض بالسَّلامة.

١٧٦. فيها: أنَّ التَّسبيح والحمد يسمَّى دعاء.

١٧٧. فيها: أنَّ ختام دعائهم أن المحامد كلَّها لك سبحانك، فأنت الموصوف بالكمال مع المحبَّة والتَّعظيم.

١٧٨. فيها: يستحب أن يقول العبد في آخر دعائه ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، فهي فاتحة كتاب الله تعالى، وهي خاتمة دعاء أهل الجنَّة.

١٧٩. فيها الوصول لقمَّة الرَّاحة والسَّعادة والصِّحة النَّفسيَّة باللجوء لله بالتَّحميد والتَّسبيح ومبادرة الآخرين وتحيَّتهم بالسَّلام.

١٨٠. تفيد أنَّ أعظم ما تستجلب به السَّلامة والعافية من الله تعالى؛ التَّسبيح له ﷻ؛ لقوله: ﴿دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٌۚ﴾ وقد كان نبي الله ذو النون عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم مكثراً من التَّسبيح لله تعالى في محنته ومصيبته، ولهذا قال تعالى عنه: ﴿فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ ١٤٣ لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ١٤٤﴾ [الصافات:١٤٣-١٤٤] ولهذا كانت تحيَّة الله لأهل الجنَّة بعد تسبيحهم له: ﴿سَلَٰمٌۚ﴾ وقد قال تعالى عنهم: ﴿تَحِيَّتُهُمۡ يَوۡمَ يَلۡقَوۡنَهُۥ سَلَٰمٌۚ﴾ [الأحزاب:٤٤] وقال أيضا: ﴿سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ﴾ [يس:٥٨].

١٨١. تفيد مع ما بعدها أنَّ على العبد أن لا ينقطع عن دعاء الله تعالى في السراء والضراء وفي الرخاء والشدة، ولهذا قال تعالى في الآية التي بعدها: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوۡ قَاعِدًا أَوۡ قَآئِمٗا فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمۡ يَدۡعُنَآ إِلَىٰ ضُرّٖ مَّسَّهُۥ﴾ [يونس:١٢] فتأمَّلوا الفرق بين حال أهل الجنَّة ودعاءهم وبين حال هذا المكروب ودعائه.

١٨٢. تفيد أنَّ على العبد أن يقدِّم في مستهلِّ دعائه تمجيد الله تعالى وتنزيهه والثناء عليه؛ لقوله تعالى: ﴿دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ ثمَّ قال ﴿وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٌۚ﴾، أي: دعاء بعضهم لبعض (سلام)..

١٨٣. تفيد أنَّ من اشتغل بذكر الله تعالى عن دعائه استجاب الله دعاءه، وأعطاه ما عجز لسانه عن التعبير به، وزاده من فضله؛ لقوله تعالى: ﴿ دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ ﴾ قال ابن الأثير: (إنَّما سُمِّيَ التَّهْلِيلُ والتَّحْمِيدُ والتَّمْجِيدُ دُعاءً لِأَنَّهُ بِمَنزِلَتِهِ في اسْتِجابِ ثَوابِ اللَّهِ تَعالى وجَزائِهِ وفي الحَدِيثِ: إذا شَغَلَ عَبْدِي ثَناؤُهُ عَلَيَّ عَنْ مَسْألَتِي أعْطَيْتُهُ أفْضَلَ ما أُعْطِي السّائِلِينَ [١] ..

١٨٤. تدلُّ على فضل التَّسبيح والتَّحميد والدُّعاء والسَّلام وأنَّها من الأعمال التي تستمر بعد انتهاء التَّكليف بدخول الجنَّة.

١٨٥. فيها أنَّ السَّلام تحيَّة أهل الجنَّة في الجنَّة.

١٨٦. تفيد أنَّ حال العبد المؤمن أنَّه يتفقَّد أحوال إخوانه المؤمنين ويدعو لهم ويشملهم بدعائه؛ ووجه ذلك: توسُّط التَّحيَّة والدُّعاء لبعضهم بالسَّلام في دعائهم، ولعلَّ في هذا أيضا إشارة إلى أن دعوة المؤمنين بعضهم لبعضهم مستجابة؛ ولعل في ختم الآية الكريمة بالحمد لله والشكر له إشارة إلى ذلك: ﴿ وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾.

١٨٧. تفيد "ال" في قوله: ﴿ ٱلۡحَمۡدُ ﴾ استغراق الجنس؛ أي: أنَّ عامَّة ألفاظ الحمد وسائر كلمات الثَّناء والمحامد التي عرفها النَّاس وما لم يعرفوا منها هي لله تعالى، والله مستحقٌ لها جميعها.

١٨٨. تفيد ﴿ ٱلۡحَمۡدُ ﴾ وصفُ المحمود بالكمال مع المحبَّة والتَّعظيم؛ الكمال الذَّاتي والوصفي والفعلي؛ فهو كامل في ذاته وصفاته وأفعاله؛ ولا بد من قَيْد، وهو "المحبَّة والتعظيم"؛ قال أهل العلم: "لأنَّ مجرَّد وصفه بالكمال بدون محبَّة ولا تعظيم، لا يسمَّى حمدًا؛ وإنَّما يسمَّى مدحًا " [٢].

١٨٩. تفيد الاختصاص إذ أنَّ (الله) واسمه (الرَّحمن) لا يُسمَّى بهما غير الرَّبِّ تبارك وتعالى.

١٩٠. ومن خصائص اسم الجلالة ﴿ الله ﴾ أنّه يوصف ولا يوصف به؛ فيقال: اللهُ الرَّحمنُ الرَّحيمُ، أو العزيز الحكيم. ولا يقال: الرَّحمن الله، أو العزيز الله، ولذا رجَّح بعض أهل العلم أن

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) تفسير سورة البقرة للشيخ محمد بن صالح العثيمين ١/٩.

يكون الاســـمُ الأعظم لله تعالى هو ﴿اللَّهُ﴾، أو مع الحيّ القيوم؛ ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ [البقرة:٢٥٥]، وذلك للخبر.

١٩١. تفيد معنى الله أنَّه * المعبود بحقٍّ *، إذ الأصـــلُ في تركيبه: (إله) فحُذفتِ الهمزةُ منه، وعُرّف بـ (ال) فصار (الله)، وجُعل عَلَمًا على ذات الربِّ الواجبِ الوجودِ، ﷻ.

قـال تـعـالى: ﴿*وَلَوۡ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسۡتِعۡجَالَهُم بِٱلۡخَيۡرِ لَقُضِيَ إِلَيۡهِمۡ أَجَلُهُمۡۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾[يونس:١١].

١٩٢. تفيد: دقّة التَّناسُب، وروعة التَّناسُق مع ما قبلها، فبعد أن ذكرت في الآيات السَّابقة عقوبـة الله تعـالى للـذين لا يرجون لقـاءه في الآخرة لقولـه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾، ذكر في هذه الآية الكريمة أنه سبحانه وتعالى يعاملُهم في الدنيا على مبدأ الإمْهال، والاستدراج، حتى، ولو طلبوا تعجيل العقوبة غفلة، وسفاهة؛ لقوله تعالى: ﴿فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾.

١٩٣. تفيد: أن علم الله سـبحانه وتعالي يسـع ما لم يكن لو كان كيف يكون؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوۡ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسۡتِعۡجَالَهُم بِٱلۡخَيۡرِ لَقُضِيَ إِلَيۡهِمۡ أَجَلُهُمۡۖ﴾.

١٩٤. تفيد: كمال قدرة الله تعالى، وأنَّه لا يفوته شـيء، ولا يعجزه شـيء، وإذا أراد أمراً كان ولم يتخلَّف؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوۡ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسۡتِعۡجَالَهُم بِٱلۡخَيۡرِ لَقُضِيَ إِلَيۡهِمۡ أَجَلُهُمۡۖ﴾.

١٩٥. تفيد: تمام لطف الله تعالى، ورحمته بعباده، وأنَّ رحمته ســبحانه وتعالى وســعت كل شيء.

١٩٦. تفيد، محبة الله تعالى التَّأنِّي في الأمور، وعدم الاســتعجال، وفي الحديث: " التَّأنِّي من الله، والعجلة من الشـيطان"[١]، وقوله عليه الصـلاة، والسـلام لأشـج عبد القيس: "إن فيك خصلتين يحبهما الله: الحلم والأناة"[٢].

---

(١) رواه أبو يعلى برقم: ٤٢٥٦، ٢٤٧/٧، قال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب١٨/٣،برقم ٢٦٧٧، ورواته رواة الصحيح.

(٢) أخرجه مسلم: ١/ ٤٨.

١٩٧. تفيد: مع ما قبلها من قوله تعالى: ﴿دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٌۚ﴾ أنَّ على العبد التأنِّي في انتظار إجابة دعائه، وعدم الاستعجال، وجاء في الحديث : "يستجاب لأحدكم ما لم يعجل، يقول: دعوت فلم يستجب لي، فيستحسر عند ذلك فيدع الدعاء"(١).

١٩٨. تفيد: ضعف الإنسان، وحاجته، وأن من طبيعته العجلة، وتلك من سمات الاحتياج، والضَّعف؛ لقوله تعالى: ﴿ٱسۡتِعۡجَالَهُم بِٱلۡخَيۡرِ﴾، وقال في آية أخرى: ﴿خُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ مِنۡ عَجَلٍۚ﴾ [الأنبياء: ٣٧] وقال أيضا: ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ عَجُولٗا﴾ [الإسراء: ١١].

١٩٩. تفيد: عظيم حلم الله تعالى على عباده، حيث لا يعاجلهم بالعقوبة، وإنزال الشر، والعذاب عليهم بالرغم من استحقاقهم، واستدعائهم لها، وفي ذلك مقاصد، وحكم إلهية عظيمة لا تخفى على من نوَّر الله بصيرته، وأزاح الغشاوة عن قلبه.

٢٠٠. تفيد: النهي عن الدعاء على النفس، والأهل عند الغضب.

٢٠١. تفيد: أن أعظم ما يدعو الإنسان إلى الطغيان، والظلم، والاستبداد هو نسيانه الآخرة، وعدم رجائه، أو خوفه من لقاء الله تعالى؛ لقوله: ﴿فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾، وهنا قد يظهر للمتأمِّل، والمتدبِّر سر الإتيان بالموصول دون الضمير (فنذرهم).

٢٠٢. تفيد: أن أعظم عقوبة يعاقب الله به العبد في هذه الدنيا أن يسلب منه عنايته، ويُعرض عنه، ويتركه يتمادى في غيِّه، وطغيانه، لقوله تعالى: ﴿فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ﴾.

٢٠٣. تفيد: أنَّ أهل الطغيان، والظلم، والاستبداد دائماً ما يفتقدون الراحة النفسيَّة، والطمأنينة، والاستقرار، ويعانون العديد من الأمراض النفسيَّة، والعصبيَّة من الوساوس، والحيرة، والتَّردُّد، والتَّهوُّر، والتَّعجُّل في اتخاذ القرارات؛ وكل ذلك بسبب سلب الله تعالى عنهم العناية، واللطف، وحسن التدبير للأمور؛ لقوله تعالى: ﴿فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري: ٨/٧٤ ، ومسلم:٤/٢٠٩٤ .

٢٠٤. تفيد: رد على المعتزلة، ومن يقول بقولهم من أنَّه يجب على الله فعل الصلاح، والأصلح لعباده، نعوذ بالله تعالى من سوء الأدب مع الله، ومع كتابه؛ لقوله تعالى: ﴿فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾.

٢٠٥. تفيد: بمفهوم المخالفة أن من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، وشمله بعنايته، ولطفه، واستعمله، في طاعته قبل أن يلقاه.

٢٠٦. تفيد: أن الطُّغيان يُبلِّد أحاسيس صاحبه، ويُقسِّي قلبه، ويُعمي بصيرته؛ لقوله تعالى: ﴿فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾.

٢٠٧. فيها: إثبات اللقاء، ويستدل به كثير من أئمة السنة على إثبات الرؤية لله سبحانه وتعالى.

٢٠٨. فيها: رد على الفرق الضَّالة من القدرية، والجبرية؛ لقوله تعالى: ﴿فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾

٢٠٩. تفيد: التحذير من الطغيان، ومن عواقبه الوخيمة، ونتائجه الخطيرة على العبد في الدُّنيا، والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾.

٢١٠. تفيد: أنَّ الكفر باليوم الآخر يورث الطغيان وهو تجاوز الحدود، ومن ثَمَّ التخبط والتردد.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوۡ قَاعِدًا أَوۡ قَآئِمٗا فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمۡ يَدۡعُنَآ إِلَىٰ ضُرّٖ مَّسَّهُۥۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡمُسۡرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [يونس:١٢].

٢١١. فيها من المناسبة: أنَّه لما ذكر سبحانه استعجال الكفَّار للعذاب، ذكر هنا أنَّهم كاذبون في دعواهم.

٢١٢. تفيد دقَّة التَّناسب وروعة التَّناسق مع ما قبلها، وذلك من وجوه: الأول: أنَّ في كلٍّ منهما إملاء للكفرة على طريقة الاستدراج، وذلك من خلال الإنقاذ من الشَّرِّ المقرَّر في الآية السَّابقة، ومن الضُّرّ المقرَّر في هذه الآية، الثَّاني: أنَّه ﷻ لما بيَّن في الآية السَّابقة أنَّه لو أنزل العذاب على العبد في الدُّنيا لهلك وقضي أجله، أكَّد هذا المعنى في هذه الآية حيث دلَّت على

غاية ضعفه ونهاية عجزه، الثالث: أنَّه ﷻ لما أشار في الآية السَّابقة إلى أنَّ الكفرة يستعجلون نزول العذاب بيَّن ﷻ في هذه الآية أنَّهم كاذبون في ذلك الطَّلب، حيث أفادت أنَّه لو نزل بالإنسان أدنى شيء يكرهه فإنَّه يتضرَّع إلى الله تعالى في إزالته عنه.

٢١٣. تفيد بيان ضعف الإنسان؛ ووجه الدَّلالة في التَّعبير بلفظة: ﴿مَسَّ﴾ .

٢١٤. يفيد: التَّعبير بـــ﴿مَرَّ﴾ أن لا تحزن إن جحد النَّاس إحسانك، فقد جحدوا فضل الخالق فكيف بك أنت ؟!

٢١٥. فيها أنَّ الإنسان سريع النسيان لنعم الله عليه.

٢١٦. تفيد أنَّ الدُّعاء ينبغي أن يستمر سواء أكان في الضَّرَّاء أو السَّرَّاء.

٢١٧. فيها أنَّ الكافر لا يعرف الله إلَّا في الشِّدَّة أمَّا المؤمن فهو الممتثل قوله ﷺ "تعرَّف إلى الله في الرَّخاء يعرفك في الشِّدَّة " (١) .

٢١٨. تفيد أنَّ الإنسان لابد أن يمسّه ضرّ وأنَّ الدُّنيا دار ابتلاء ولذلك عبَّر الله تعالى بـ﴿ وَإِذَا ﴾ وتستعمل فيما يتوقَّع حدوثه.

٢١٩. تفيد ذمَّ من يترك الدُّعاء في الرَّخاء ويهرع إليه في الشِّدَّة، واللائق بحال العبد المؤمن التَّضرُّع إلى مولاه في السَّرَّاء والضَّرَّاء، فإنَّ ذلك أرجى للإجابة.

٢٢٠. تفيد أنَّ عبادة الضَّرورة لا تنفع العبد (غالباً)، لأنَّها ليست عبادة عن رغبة.

٢٢١. تفيد أنَّ الله ﷻ يجيب دعوة المضطر ولو كان كافراً، وذلك لأنَّ رحمته سبقت غضبه.

٢٢٢. تفيد أنَّ الكافر يقرُّ ويؤمن بوجود الله، ويؤمن به ويلتجئ إليه، ولكن هذا الإيمان والالتجاء لا يخرجه من الكفر؛ وقد كان الكفَّار في عهد النَّبي ﷺ يؤمنون بأنَّ الله هو خالقهم ورازقهم، ومع ذلك حكم بكفرهم وقاتلهم النَّبي ﷺ، لأنَّ المحكَّ يكمن في توحيد الإلهيَّة، أمَّا توحيد الرُّبوبيَّة فهم يؤمنون به، وقد حكى الله عنهم ذلك وقد عقد ذلك ابن القيم في النُّونيَّة حيث ذكر أنَّهم يقرُّون أنَّ الله هو خالقهم:

فاسأل أبا جهل وشيعته ومن ... والاهم من عابدي الأوثان
وسل اليهود وكل أقلف مشرك ... عبد المسيح مقبل الصلبان

---

(١) الجامع الصغير وزيادته ١/ ٥٢٨، وصححه الألباني.

واسأل ثمود وعاد بل سل قبلهم أعداء نوح أمة الطوفان
واسأل أبا الجنِّ اللَّعين أتعرف الـ خلَّاق أم أصبحت ذا نكران
واسأل شرار الخلق أغلى أمَّة لوطيَّة هم ناكحو الذكران
واسأل كذاك أمام كلّ معطِّل فرعون مع قارون مع هامان
هل كان فيهم منكر للخالق الـ ـرَّبّ العظيم مكوِّن الأكوان

٢٢٣. فيها بيان حال الإنسان أنَّه مُلحٌّ بالدُّعاء إذا مسَّه الضُّرّ ومستعجل لانكشافه عنه ولذلك يدعو في كلِّ أحواله على جنبه أو وهو قائم أو قاعد.

٢٢٤. تفيد أنَّه لا حيلة للإنسان أن يفوته ما قضي عليه من الضُّرِّ ولذلك جاءت لفظة الضُّرِّ في الآية هي الفاعلة والإنسان هو المفعول به.

٢٢٥. تفيد أنَّ كشف الضُّرّ عن العبد محض فضل من الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ﴾..

٢٢٦. تفيد أهميَّة وضرورة تنزيل هذه الآية على واقعنا الذي نعيشه هذه الأيَّام ومع هذا الضُّرّ الذي مسَّ البشريَّة جمعاء، فلربما أنَّ كثيراً من النَّاس يكون لهم دعاء وعبادة ورجوع إلى الله تعالى من أجل أن يرفع هذا البلاء وهذا الضُّرّ، ثم لا يلبثون بعد زوال هذه المحنة أنَّ يعودوا إلى سابق عهدهم مبتعدين عن الله تعالى، لذا ينبغي على العباد أن يصلحوا ويقوُّوا علاقتهم بالله تعالى بعد زوال هذا الضُّرُّ، وأن لا تمرُّ عليهم هذه الجائحة العظيمة دون أن يأخذوا منها الدروس والعبر والعظات، ودون أن يعملوا على إصلاح ما فسد من أمورهم في المستقبل، وأن يتذكروا دائما هذه الآية الكريمة.

٢٢٧. التعبير بالفاء في قوله تعالى ﴿فَلَمَّا﴾ يدلُّ على سرعة استجابة الله تعالى لدعاء المضطر إذا دعاه.

٢٢٨. تفيد أنَّ هذه الحالة التي ذكرها الله سبحانه للداعي لا تختص بأهل الكفر؛ بل تتفق لكثير من المسلمين، تلين ألسنهم بالدُّعاء، وقلوبهم بالخشوع والتَّذلُّل عند نزول ما يكرهون بهم، فإذا كشفه الله عنهم غفلوا عن الدُّعاء والتَّضرُّع، وذهلوا عمَّا يجب عليهم من شكر النِّعمة التي أنعم الله بها عليهم من إجابة دعائهم ورفع ما نزل بهم من الضُّرِّ، ودفع ما أصابهم من المكروه.

وهذا ممَّا يدلُّ على أنَّ الآية تعمُّ المسلم والكافر كما يُشعر به لفظ (للنَّاس) ولفظ (الإنسان)[1].

٢٢٩. وفيها: ذمّ الكفار والتحذير من حالهم وسوء مآلهم، وأخذ العبرة.

٢٣٠. تفيد: أن من حال الكفار معرفة الله في الشدة فقط، ثم ينكصون على أعقابهم، بمجرد عود الأمن والعافية لهم.

٢٣١. وفيها: أنَّ المسلم الحقّ لابد أن يعرف الله في الرَّخاء حتى يعرفه في الشِّدَّة.

٢٣٢. تفيد: أنَّ الله ﷻ هو الإله الحقّ وأنَّ ما دونه هو الباطل وهو سبحانه المعبود دون سواه حيث يلجأ إليه عند الشَّدائد ويفزع إليه عند الملمَّات فلا يكشف الضُّرُّ سواه ولا يدفع السّوء غيره تبارك ربنا وتعالى.

٢٣٣. التَّذكير بنعم الله وشكرها وعدم نسيانها.

٢٣٤. فيها: أنَّ بالشكر تدوم النعم وتزداد ويرفع البلاء.

٢٣٥. فيها: أنَّ في الآية دلالة أنَّ الإنسان قليل الصَّبر عند البلاء قليل الشُّكر عند النَّعماء. فكن معهم وفقا لقيمتك الرفيعة ومبادئك العالية، دون النزول إلى مستواهم الذي لا يليق بك.

٢٣٦. تفيد تعليماً لقيمة الصَّبر مع من لا يشكرون الجميل، وكيفيَّة التَّعامل بمقامك؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ﴾، ووجه ذلك: أنَّه ﷻ مع علمه بجحود هذا الإنسان وكفره ونسيان نعمه وفضله عليه بعد أن يستجيب دعاءه ويكشف عنه ضرّه؛ إلَّا أنَّه مع ذلك يكشف ضرّه وتفريج كربته، فما أعظم أن يتصف العبد ويتخلَّق بمقتضى أسماء الله تعالى وصفاته..

٢٣٧. تفيد الآية: أنَّ شأن الأعمال الذَّميمة القبيحة إذا تكرَّرت من أصحابها أن تصير لهم دربة تحسن عندهم قبائحها فلا يكادون يشعرون بقبحها لقوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

٢٣٨. تفيد رحمه الله بعامَّة الإنس حال نزول جنس البلاء فجاء التعبير بـ (المسّ).

---

(١) فتح القدير للشوكاني ٢/٤٢٩.

٢٣٩. تفيد الأدب مع الله ﷻ حيث لم يذكر فاعل ﴿مَسَّ﴾ بينما نسب الكشف إليه ﴿كَشَفْنَا﴾. فلم يسم فاعله وهذا من باب التَّأدب، وفي القرآن مثل ذلك كثير، يقول إبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء:٨٠]، فنسب المرض إلى نفسه، وفي قصَّة الخضر مع موسى عليه السلام: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ [الكهف:٧٩] فنسب العيب إلى نفسه، رغم أنَّ الذي أمره بخرق السَّفينة هو الله، فلم يقل: فأراد الله أن يعيبها؛ لأنَّه لا ينبغي أن ينسب الشَّرّ أو العيب إلى الله ﷻ، مع إيماننا الجازم أنَّ الخير والشرَّ من الله، وهذا من باب الأدب في زمن ضاع فيه الأدب، يقول محمد بن سيرين: علم بلا أدب كالنَّار بلا حطب.

٢٤٠. تفيد الآية الكريمة وتشترك مع ما قبلها بتأكيد أنَّ الله كريم حليم ورحيم، ورحمة الله واسعة، فهي واسعة بطرق مختلفة فمن رحمته عدم تعجيل الشَّرّ للنَّاس، ومنها استجابة دعاء النَّاس رغم إسرافهم، وعلمه بالغيب بأنَّهم سوف يعودون لما "كانوا يعملون"..

٢٤١. تفيد أنَّ تزيين الرَّب تعالى عدل، وعقوبته حكمة. ﴿زُيِّنَ﴾ مبني لما لم يسم فاعله تجعل الفاعل للتَّزيين غير واحد وغير جهة وغير وسيلة، فقد يكون الله تعالى، أو النَّفس الأمَّارة بالسُّوء أو الشَّياطين المردة، أو شياطين الإنس، أو مؤسسة أو هيئة أو غير ذلك.

٢٤٢. وتفيد أنَّ الله يجيب الدَّاعي من النَّاس إذا دعاه مخلصاً له الدين، وإن كان مشركاً كما قال سبحانه في سورة العنكبوت ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت:٦٥]، وقال تعالى في سورة لقمان ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ [لقمان:٣٢].

٢٤٣. تفيد أنَّ معنى الإسراف: مجاوزة القصد وحدّ الاعتدال، ولا يختصّ في باب النَّفقة كما هو شائع لدى كثيرٍ من النَّاس، قال إياس بن معاوية رحمه الله: «ما جاوزتَ به أمر الله فهو سَرَف»..

٢٤٤. تفيد أنَّ أخطر الإسراف وأشنعه الكفر بالله ربّ العالمين والإشراك به باتخاذ الأنداد وتكذيب الرُّسل والنَّبيين، وردّ الحق الذي جاءوا به

٢٤٥. تفيد هذه الجملة من الآية الكريمة: ﴿كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ أنَّ جنس المسرف هو الذي ينفق النِّعم الجسيمة ويعطِّل ويحصر وظائف الآلات الشَّريفة مثل الحواس والعقل والفهم.

٢٤٦. تفيد تعليماً وبياناً لأنجع وأفضل الأوقات والأحوال الاجتهادية في طلب الحصول على أمر من الأمور سواء كان منفعة ماديَّة أو معنويَّة، ومن أفضل تلك الأوقات وأنجع تلك الأحوال هو أن تعمل، مستصحباً بعد عون الله الصَّبر، وقد أشارت الآية الكريمة على ذلك من خلال تقديم الحالة على غيرها من الحالات في قوله تعالى: ﴿دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوۡ قَاعِدًا أَوۡ قَآئِمٗا﴾، أي: قبل نومه وبعد استيقاظه.

٢٤٧. تفيد أهميَّة الصَّبر والمثابرة في الحصول على طلبك ومبتغاك، وعدم اليأس والقنوط في جميع أحوالك وأوقاتك، لقوله تعالى: ﴿دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوۡ قَاعِدًا أَوۡ قَآئِمٗا﴾، فـ(أو) من معانيها واو العطف، أي: دعانا لجنبه وقاعداً وقائماً، وصدق الشاعر حين قال:

أخْلِقْ بذي الصبرِ أنْ يحظَى بحاجته ومُدْمِنِ القَرْعِ للأبواب أن يَلِجَا.

٢٤٨. تفيد أنَّ الله يحبُّ أن يُدعى ويسأل، فالله يحبُّ الإلحاح في الدُّعاء، فلم يعيب عليهم دعاءه وإنَّما عاب عليهم إعراضهم عنه بعد كشف الضُّرِّ.

ما أحسن قول الشاعر:

لا تسألن بني آدم حاجة وسلِ الذي أبوابُه لا تحجبُ

اللهُ يغضب إن تركت سؤاله وبني آدم حين يسأل يغضبُ

٢٤٩. تفيد أنَّ المؤمن الفطن من يدعو الله في حال النَّعماء قبل الضَّرَّاء، حتى إذا عثر وجد متكأ، ويتداركه الله في محنته كما في قصَّة ذي النون إذ قال الله تعالى عنه "﴿فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ ١٤٣ لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾ [الصافات:١٤٤]، وهذا له فضله وفائدته لقوله ﷺ: "من سرَّه أن يستجيب الله له في الشَّدائد والكرب فليكثر من الدُّعاء في الرَّخاء"(١).

٢٥٠. تشير الآية إلى أحد أهم أساليب المواجهة الإيجابيَّة النَّاجعة في حال الضُّرّ وهي المتمثِّلة في اللُّجوء لله، وذلك أنَّ الإيمان يجعل الفرد متماسكاً ويستطيع أن يواجه الموقف مواجهة حكيمة، ويتَّخذ القرارات الصَّائبة باعتدال. وممَّا يؤكِّد ذلك قوله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا

(١) أخرجه الترمذي وصححه الألباني ١/١١٢٤.

بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ ﴾ [التغابن:١١]. فالمؤمن يكون مهتد للتَّصـرُّف السَّـليم الصَّـحيح في مواقف الاضطرابات والفتن التي يكون فيها الضُّرّ.

٢٥١. تفيد أنَّ النَّاس بعد كشـف الضُّـرِّ ينبغي أن يكونوا أكثر قربة وشـكراً وهذا ما ينتظرنا بعد رفع هذا البلاء بإذن الله تعالى، فالموفَّق من سار بعده على درب الطَّاعة، والمخذول من عاد إلى غيِّه وضلاله.

قـال تعـالى: ﴿ وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴾ [يونس:١٣].

٢٥٢. تفيد دقَّة التَّناسب وروعة التَّناسق مع ما قبلها فبعد أن ذكرت الآيات السَّابقة أنَّ الله ﷻ يمهل الإنسان ويحلم عليه ولا يعجل له الشَّرَّ ولا العقوبة بل ويكشف عنه الضُّرَّ ويفرّج عنه الكرب، أشـارت هذه الآية الكريمة إلى أنَّ هذا الإمهال لا يعني الإهمال، وأنَّ هذا التَّأخير لا يعني التَّرك، وأن هذا الصَّبر والحلم لا يعني الضَّعف، وعدم القدرة، لهذا استهلَّت الآية الكريمة بذكر وبيان هلاك القرون الماضية تهديداً أكيداً ووعيداً شديداً لكفار قريش وإشارة إلى أنَّه تعالى قد ينزل بهم عذاب الاستئصال، ولا يزيله عنهم إذا استمرُّوا في الظُّلم والتكذيب، وفي ذلك ردع لهم عن طلبهم تعجيل العذاب.

٢٥٣. تفيد أنَّ إنزال البلاء أو العقوبات فيه عبرة للمعتبرين؛ فقد بين الله تعالى أنّ سـبب إهلاك الأمم ظلمهم، ثم ختم الآية بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴾ .

٢٥٤. تفيد: سنَّة الله ﷻ الماضية فيمن ظلم وكفر وتجاوز الحد بأنَّ مصيره الهلاك والدَّمار.

٢٥٥. تفيد: عظيم عدله ولطفه جل وعلا بأنَّه لا يعذِّب أحداً إلَّا بعد إقامة الحجَّة عليه ببعثة الرُّسل.

٢٥٦. تفيد: أنَّ الله الذي ﴿لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ ﴾ [الأنبياء:٢٣]، المولى جل وعلا، ويعلِّل أفعاله ﴿لَمَّا ظَلَمُواْ ﴾ ﴿وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم ﴾ ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴾ فلنتمثَّل ولا نترفَّع عن بيان أسـباب أفعالنا.

٢٥٧. تفيد تنبيه كفَّار قريش الي سنن الله في الأقوام السَّابقين.

٢٥٨. تفيد أنَّ هذه السُّنن تخضع لنواميس وآجال متى ما توفَّرت أسبابها حان وقتها المحدَّد عمرانًا ودماراً، وجوداً وهلاكاً.

٢٥٩. تفيد إعذار الله للأقوام بإرسال الرُّسل.

٢٦٠. تفيد أنَّ هذه السُّنن لا تحابي أحد ليعتبروا ويستفيدوا من الأمثلة المضروبة.

٢٦١. تفيد بيان سنَّه الله أنَّ الظُّلم مؤذن بهلاك الأمم والدول.

٢٦٢. تفيد أنَّ الرِّسالات التي كذبوها وتنكَّبوا طريقها وكفروا بها هي الأساس المتين لبقائهم وازدهار حضارتهم ورسوخ قيم بقائهم.

٢٦٣. تفيد هذه الجملة من الآية الكريمة: ﴿وَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ﴾ " لا يهلك على الله إلا هالك" كما بيَّن رسول الله؛ كما جاء في صحيح مسلم: إنَّ الله كتب الحسنات والسَّيِّئات، ثمَّ بين ذلك، ... ولا يهلك على الله إلا هالك" [(١)].

٢٦٤. فيها إرشاد من الله تعالى للدُّعاة أن يذهبوا إلى المدعوِّين متسلِّحين بالعلم المستند على الكتاب والسُّنَّة لأنَّهما الوحي الواضح والبيِّن.

٢٦٥. تفيد: أنَّ الواو لا تقتضي الترتيب ولا تنافيه إلا بدليل، فهي لمطلق الجمع، بين المتعاطفين، وذكر أكثر المفسِّرين أنَّ الواو في قوله تعالى: (وجاءتهم) حالية، أي: ظلموا بالتكذيب، وقد جاءتهم، أي: والحال أنَّ الرُّسل قد جاءتهم بالدَّلائل والشَّواهد على صدقهم. ويجوز أن تكون الواو ههنا عاطفة، وسرّ التقديم هو أنَّ مجيء الرُّسل قد تقدَّمه ظلم من هؤلاء الأقوام، وجاءت الرُّسل بعد هذا الظُّلم المنتشر بينهم وذلك من أجل إقامة العدل ورفع الظُّلم وقمع الفساد..

٢٦٦. تفيد أنَّ على الدُّعاة الصَّبر في دعوتهم وعدم استعجال النَّتيجة وأنَّه لا يلزم من دعوتهم للنَّاس إيمان الجميع وقبول الدَّعوة، وقد قال الله لنبيِّه ﷺ: ﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظًاۖ إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ﴾ [الشورى:٤٨].

٢٦٧. فيها أنَّ الظُّلم (وأعظمه الشِّرك) سبب للهلاك والعذاب في الدُّنيا والآخرة...

---

(١) أخرجه مسلم ١/١١٨.

٢٦٨. فيها أنَّ على الإنسان أن يقابل هدى الله وبيّناته بالإذعان والانقياد والقبول والاستعداد للعمل؛ لقوله: ﴿وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ ﴾ أي: فما استقام لهم أن يؤمنوا؛ لعدم استعدادهم للإيمان، فخذلهم الله، ولم يوفّقهم له.

٢٦٩. تفيد أنَّ الإصرار على الكفر وعدم الإيمان يؤدّي إلى الهلاك.

٢٧٠. تفيد أنَّ الجزاء من جنس العمل؛ قطعوا صلتهم بالله فقطعت عنهم موارد الهداية.

قال تعالى: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [يونس:١٤].

٢٧١. الاستخلاف يقتضي تحمُّل المسئوليَّة أو الأمانة، وأن يعمل المستخلَف وهو الإنسان وفق توجيه المستخلِف وهو الله ﷻ لا وفق هواه. ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ﴾ [ص:٢٦].

٢٧٢. تفيد أن سبب استخلافك في الأرض بعد ما خلقها لك أن ذلك للنظر في أعمالك.

٢٧٣. تفيد أنَّ الله تعالى ينظر إلى أفعال العباد فعلى العبد أن يحسن العمل إخلاصاً واتباعاً حتى ينال نظرة الله له بعين الرضى والقبول.

٢٧٤. تفيد التَّرغيب في العمل الصَّالح، فأعمالك هي موضع نظر خالقك.

٢٧٥. تفيد أنَّ العاقل من اتعظ بغيره.

٢٧٦. تفيد أنَّ الدُّنيا ليست دار قرار وإنَّما هي دار ابتلاء.

٢٧٧. فيها: أنَّ الدُّنيا ممرٌّ للأجيال البشريَّة يخلف بعضهم بعضاً، وأعظم الغرور الشُّغل بها عن العمل الصَّالح، فكلّ ما شغل عن الله فهو شؤم.

٢٧٨. تفيد أنَّ الأجيال لها آجال ثم يحصل التبديل والاستخلاف.

٢٧٩. تفيد كمال حلمه جلَّ وعلا مع كمال علمه وحكمته.

٢٨٠. فيها حثّ على الإحسان في الأعمال لأنَّ الله ﷻ يراها، والإحسان أن تعبد الله كأنَّك تراه فإن لم تكن تراه فإنَّه يراك.

٢٨١. تفيد أنَّ الأرض باقية بما عليها من أرزاق ومكوّنات وإنَّما الخلائق هم الذين يتبدَّلون ويستخلفون عليها.

٢٨٢. تفيد تهيئة الله جل وعلا للأرض وتسخير ما فيها موارد للأجيال المتعاقبة

٢٨٣. تفيد أنَّ الحياة والاستخلاف نعمة تستوجب الشُّكر، والشُّكر يكون بالقلب، واللِّسان والجوارح كما قال الشاعر

أفادتكم النَّعماء مني ثلاثة يدي ولساني والضَّمير المحجَّبا

٢٨٤. تفيد أنَّ الأرض لم تخلو من البشر منذ عهد آدم عليه السلام.

٢٨٥. تفيد ارتباط المستخلفين بالمستخلِف وهو الله ﷻ والانتماء له ايماناً وتوحيداً ونبذ ما دون ذلك من الانتماءات وهذا عين التوحيد الذي بشَّر به جميع الرُّسل.

٢٨٦. تفيد أهميَّة دراسة التَّاريخ وأخذ الدُّروس والعبر منه ﴿مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾

٢٨٧. تفيد أنَّ الخلائف أصل واحد وأنَّهم سواسية عند الله وأنَّ ميزان التَّفاضل عند المستخلف مداره على الأعمال ﴿لِنَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ﴾.

٢٨٨. فيها كمال العدل الإلهي فالله ﷻ لا يؤاخذ بعلمه الأزلي وإنَّما بعد وقوع العمل من العبد ﴿لِنَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ﴾

٢٨٩. تفيد: أنَّ من أعظم السُّنن الإلهيَّة هو الاستخلاف في الأرض والتي من مقتضياتها ولوازمها العمل بحسب مراد الله ﷻ وبما يحقق العبوديَّة الخالصة له سبحانه.

٢٩٠. ويفيد قوله ﴿كَيۡفَ﴾ إلى أهميَّة الكيفيَّة.. فإن كان العمل مخلصاً لله فيه موافقاً لسنَّة الرَّسول ﷺ .. فطوبى لصاحبه.. وإلَّا.. خاب وخسر

٢٩١. ويفيد قوله﴿كَيۡفَ﴾ في مجال التربية ومجال الانتاج إلى أن نهتم بالكيفية والنوعية والجودة ... لا إلى الكم والعدد.. والله أعلم.

٢٩٢. تفيد هذه الجملة من الآية: ﴿لِنَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ﴾ أنَّه يجب أن يستصحب المؤمن دائماً أنَّه تحت الاختبار، وديمومة الاستصحاب، ومراقبة الله له، وشهادة الشُّهود العدول عليه، فيحسن العمل.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُۚ قُلۡ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِ نَفۡسِيٓۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ [يونس:١٥]

٢٩٣. فيها: أنَّ تلاوة كتاب الله ﷻ هو منهج الدَّاعية إلى الله تعالى في التَّذكير والنُّصح والتَّوجيه.

٢٩٤. تفيد سبب كفر الكافرين؛ وهو عدم إيمانهم بالبعث بعد الموت الذي يكون فيه لقاء الله.

٢٩٥. تفيد أنَّ ضعف الايمان باليوم الآخر أو عدمه سبب لتحريف الدين وتبديله.

٢٩٦. تفيد: أنَّ أهل الباطل يريدون ديناً يوافق هواهم.

٢٩٧. فيها بيان ربانيَّة هذا الدين وأنَّه حتى النَّبي ﷺ ما هو إلَّا متَّبع لما يوحى إليه من ربِّه.

٢٩٨. تفيد أنَّ الكفر قد يقع عناداً وجحوداً، وهذا ظاهر في حال من يسمعون آيات الله البيِّنات الواضحات القاطعات.

٢٩٩. تفيد شرف هذا القرآن وعناية الله به، وهذا ظاهر من إضافته لنفسه في قوله تبارك وتعالى: ﴿ءَايَاتُنَا﴾.

٣٠٠. تفيد أنَّ طريق الدَّعوة القرآنيَّة مبني على الإيضاح القاطع للحجج، وهذا ظاهر في وصف الآيات بكونها ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾..

٣٠١. فيها بيان لأهميَّة الإيمان بالبعث وأنَّهم هم المنتفعون بآيات الله تعالى إذا تليت عليهم.

٣٠٢. فيها أنَّ لقاء الله ﷻ واقع لا محالة

٣٠٣. فيها: بيان ما كان عليه أولئك القوم من الكيد والمكر والمكابرة والجحود وماهم فيه من الجهل والضَّلال.

٣٠٤. أهميَّة الإتِّباع بما أمر به الرَّبّ ﷻ حتى من النَّبي الكريم محمد سيد ولد آدم عليه الصلاة والسلام.

٣٠٥. تفيد أنَّ الثَّبات على دين الله سببه الإيمان باليوم الآخر (إنِّي أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم.

٣٠٦. تفيد بالمفهوم: جواز وقوع التَّبديل والنَّسخ في القرآن وفي أحكام الله ﷻ، لكنَّه لا يكون من تلقاء النَّبي ﷺ، بل من ربِّه ﷻ، وقد دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل:١٠١].

٣٠٧. تفيد بيان أحوال النَّاس ومراتبهم بشأن الإيمان بالبعث والنُّشور، فمنهم من يرجو لقاءه ﷻ ومنهم من يكفر بذلك.

٣٠٨. تفيد أنَّ هذا القرآن وقعه شديد على أهل الكفر والنِّفاق، لأنَّه يكشف زيف عقائدهم، لذا طلبوا تبديله.

٣٠٩. تفيد أدب النَّبي ﷺ، فقد تبرَّأ من القول على الله تعالى، وأبان أنَّه ما ينبغي له ذلك.

٣١٠. تفيد أنَّ على العبد أن يعرف أنَّه مربوب خاضع لله تعالى، له وظيفة ومرتبة ومقام، لا ينبغي أن يتخطَّاه، ومن ذلك أهل التُّقى من الأنبياء، فهم لا يشرِّعون إلَّا بأمر الله وإذنه.

٣١١. تفيد خشية النَّبي ﷺ من ربِّه ﷻ، وهي أكمل خشية لكمال علمه بالله ﷻ ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ﴾.

٣١٢. تفيد أنَّ العلم بالله وما عنده من ثواب وعقاب يُعدُّ من دوافع التَّورُّع والكفِّ عن المخالفات الشرعيَّة..

٣١٣. تفيد تأييداً وتعضيداً لمعنى قوله ﷻ: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحاقة:٤٤- ٤٧] وهي تتضمَّن النَّهي عن القول على الله في دينه وشرعه.

٣١٤. تفيد النَّهي عن القول على الله بلا علم.

٣١٥. تفيد إثبات يوم البعث والجزاء.

٣١٦. تفيد أنَّ العذاب في الآخرة يقع بسبب مخالفة أمر الله ﷻ.

٣١٧. تفيد تخويفاً وترهيباً من يوم القيامة، وذلك في وصفه بكونه عظيم..

٣١٨. تفيد أنَّ ديدن أهل الباطل السَّعي لهدم الدين بهدم مصادر التلقِّي والقرآن أعظمها.

٣١٩. يفيد فعل الأمر: ﴿قُلْ﴾ مكانة القرآن وذلك أنَّ الله ﷻ تكفَّل بالرَّدِّ على هؤلاء المكابرين والمعاندين من كفَّار قريش وأمر رسوله بذلك الرَّدِّ، فإنَّ القرآن الكريم ليس من كلام النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام بل هو مأمور ببلاغه.

٣٢٠. فيها إثبات لقاعدة العبرة بالمعاني لا بالألفاظ وذلك في قولهم ﴿ائْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ﴾ " وأنَّه من كتب كتاباً وسمَّاه باسم القرآن فلا يكفي ذلك أن يكون هو القرآن الذي تحدَّى الله به الخلق.

٣٢١. فيها بيان أنَّ العناد والكفر يوصل صاحبه إلى الرِّضى بالأدنى بل المزيَّف الذي لا أصل له إذا كان الخير منه لا يتناسب مع هواه ولذلك أرادوا أن يبدل القرآن بكتاب غيره.

٣٢٢. تفيد حجِّيَّة القرآن مقابل ضعف حججهم فلمَّا قال الله تعالى ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ قالوا ﴿ائْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ﴾ بدل أن يناقشوا جوهر القرآن وماهيَّته ودلالاته وهداياته طلبوا إلغائه والإتيان بغيره أو تبديله لعدم موافقته لأهوائهم.

٣٢٣. تفيد من باب أدنى حقوق الملكيَّة وعدم التعدِّي على حقوق الغير فيما يختص بالكتب والنَّشر.

٣٢٤. فيها بيان أهميَّة الإتباع في الدين وعدم الابتداع والتبديل.

٣٢٥. تفيد كراهيَّة أهل الباطل في كلِّ زمان للقرآن والبحث عن بديل له.

٣٢٦. تفيد زهد أهل الباطل في كلام الله، فهم لا يتلونه وإذا تلي عليهم أعرضوا عنه وقالوا ما قالوا.

٣٢٧. تفيد أنَّ ظهور البيِّنات لا يستلزم معها الهدايات، فالهداية بيد الله يهبها من يشاء من عباده..

٣٢٨. تفيد أنَّ من أعظم أسباب الانتفاع بالقرآن الإيمان بأنَّه كلام الله وهو سبيل النَّجاة يوم أن نلقاه.

٣٢٩. تفيد أنَّه ليس لكافر حجَّة عند ربِّه، فهم ما طلبوا غيره لعيب أو نقص فيه، وإنَّما لمرض في قلوبهم.

٣٣٠. تفيد أنَّ مهمَّة النَّبي ﷺ هو تبليغ الوحي المنزَّل عليه.

٣٣١. تفيد أنَّ السَّعي لتبديل كلام الله من أعظم الذُّنوب.

٣٣٢. تفيد عظم يوم القيامة وشدَّته وشدَّة هوله.

٣٣٣. تفيد أنَّ معرفة عظمة الله تعالى، ودورها في استقامة العمل على الصِّراط المستقيم..

٣٣٤. فيها أنَّ التَّكذيب بلقاء الله والتَّكذيب بالدَّار الآخرة سبب في الجحود والعناد والكفر.

٣٣٥. فيها أنَّ الخوف من الله ﷻ يحمل على الإتباع وترك الابتداع.

٣٣٦. فيها أهميَّة الإتِّباع للوحي والحذر من معارضته برأي أو عقل أو قياس، والحذر من الابتداع في الدين.

قال تعالى: ﴿ قُل لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦۖ فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرٗا مِّن قَبۡلِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ [يونس:١٦]

٣٣٧. فيها من المناسبة أنَّه: بعد اتهامهم للنبي ﷺ، وبأنَّ الكتاب من عنده (على غير الحقيقة) احتجَّ عليهم عليه الصلاة والسلام بفساد وهمهم.

٣٣٨. تفيد أنَّ الله يلهم الدُّعاة والمصلحين حجَّتهم وينصرهم بالحجج القويَّة والبراهين السَّاطعة.

٣٣٩. تفيد الرَّدّ على المرجئة، لقوله تعالى: ﴿ قُل لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ ﴾.

٣٤٠. تفيد توجيه الدُّعاة إلى هذا السُّلوك الرَّاقي والخطاب الواعي في مخاطبة النَّاس.

٣٤١. تفيد أنَّ الرِّسالة والنُّبوَّة وأعمالها منوطة بأمر الله وإذنه ومشيئته ﴿ قُل لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ ﴾.

٣٤٢. فيها إثبات المشيئة لله ﷻ فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن..

ولله درّ الشَّافعي عندما سُئل عن القدر فقال:

ما شئتَ كان وإن لم أشأ ... وما شئتُ إن لم تشأ لم يكن

٣٤٣. فيها استصحاب الدُّعاة والمؤمنين مشيئة الله تعالى في كلِّ أحوالهم.

٣٤٤. وفيها: أنَّ القرآن منزَّل من عند الله وهو كلامه سبحانه.

٣٤٥. فيها بيان سبب أن تكون النُّبوَّة على الرسول ﷺ بعد الأربعين، لقوله تعالى: ﴿فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرٗا مِّن قَبۡلِهِۦٓۚ ﴾.

٣٤٦. فيها جواز الاحتجاج بواقع الحال ﴿فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرٗا مِّن قَبۡلِهِۦٓۚ ﴾.

٣٤٧. تفيد الآية: توجيه الدُّعاة إلى الاستدلال بتاريخ الأفراد والأمم فقد استدلَّ القرآن بماضي الأنبياء على صدقهم.

٣٤٨. في الآية إشارة إلى عصمة الأنبياء قبل النُّبوَّة من كلِّ ما يمنع البلاغ خاصَّة.

٣٤٩. وفيها: أنَّ النبي ﷺ لا يستطيع أن يأت بمثل القرآن.

٣٥٠. وفيها: أنَّ من ديدن الكفَّار الكذب.

٣٥١. فيها: أنَّ الرَّسول ﷺ عبد مأمور فالأمر كله لله ﷻ في نزول القرآن وفي تبليغه للنَّاس.

٣٥٢. فيها: دليل واضح وبيِّن أنَّ القرآن الكريم تنزيل من ربِّ العالمين.

٣٥٣. فيها: دليل على صدق وأمانة الرَّسول ﷺ فيما يخبر عن الله ﷻ.

٣٥٤. تفيد أنَّ سلوك الدَّاعية وسيرته الحسنة وتاريخه يعد من معزِّزات حجَّته.

٣٥٥. فيها: بيان أنَّ أولئك القوم المعاندين ضعاف العقول وفهمهم سقيم.

٣٥٦. تفيد أنَّ النَّبي ﷺ لا يملك لنفسه نفعاً ولا يستطيع تصرُّفاً، إلا بأمر الله تعالى ﴿ قُل لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ ﴾

٣٥٧. فيها بيان المنهج القرآني في الدَّعوة لإجراء المقارنات والأقيسة العقليَّة واستنباط العبر والأحكام وفقاً للنَّظر في المقدّمات، والمقدّمة هنا هي مكوث النبي ﷺ مع قومه وهم يعرفون أنَّه أمِّيٌّ، والنَّتيجة: استحالة أن يكون القرآن من كلامه ﷺ، ولقد وقف صاحب التحرير والتنوير عند هذه الآية وقفة يُنصح بالرُّجوع إليها لأنَّه استشفَّ منها مسألة الإعجاز في هذه الآية.

٣٥٨. تفيد كما بيَّن كثير من أهل التفاسير أربعون سنة قبل الرِّسالة فبلغ عمر النُّبوَّة وسنّ رجاحة العقل واكتمال المقدرات العقليَّة والذِّهنيَّة ولم يعيبوا عليه شيئًا لحفظ الله له وصيانته من كلِّ ما يشين وتخلُّقه بكلِّ ما يزين فلما نُبِّئ وأرسل بالرِّسالة بعد ذلك يُتَّهم؟!! فهذا يدل على سخافة عقولهم لذا ناسب عجز الآية ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾.

٣٥٩. تفيد إثبات براءة النبي ﷺ وتنزيهه عمَّا ألصقه به أهل الضَّلال، من زعمهم أنَّ القرآن كان يملى عليه من بشر، لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّهُمۡ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞۗ﴾ [النحل:١٠٣]

٣٦٠. فيها إشارة إلى أنَّ الأصل في القرآن التِّلاوة التي هي تتابع القراءة لا مجرَّد القراءة، ثمَّ العمل به.

٣٦١. فيها ضعف حججِ الكافرين.

٣٦٢. وفيها أنَّ التشكيك في القرآن سُنَّة كفريَّة قديمة.

٣٦٣. تفيد أنَّ النَّبي ﷺ قد بلَّغ ما أنزل إليه من ربِّه ﷻ، وقد تلاه عليهم، وهذا ظاهر من الفعل ﴿تَلَوْتُهُۥ﴾ وظاهر من الآية السَّابقة التي تفيد طلب الكفَّار تبديل الآيات بعد سماعهم لها.

٣٦٤. وفيها أنَّ من أساليب الدَّعوة: الحوار، بغرض الإقناع والرَّدِّ على الشُّبهات.

٣٦٥. تفيد أنَّ من أهم الرَّكائز التي ينبغي على الدَّاعية إلى الله أن يرتكز عليها في دعوته هي تلاوة آيات القرآن على المدعوِّين، وأن يروا أثر هذه التِّلاوة في إتِّباعه، لأنَّ معنى تلا، يشمل التِّلاوة التي هي القراءة وكذلك الإتباع.

٣٦٦. فيها أنَّ النَّبي ﷺ كان يتلو عليهم القرآن ويدعوهم به؛ ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ﴾ [الأنبياء:٤٥].

٣٦٧. تفيد أنَّ هذا هو ديدن الذين لا يؤمنون بلقاء الله في كلِّ عصر فهم يتضايقون وتضيق صدورهم بمجرَّد أنَّ أحداً يقوم بتلاوة آيات القرآن.

٣٦٨. وتفيد أنَّ من يستبدل سماع القران بسماع ما يلهي عن الله، يخشى أن يكون قد اتصف بصفة ممَّن وصفهم الله بقوله: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ﴾ [يونس:١٥].

٣٦٩. تفيد أنَّ الذي يحرِّك أهل الباطل إنَّما هو: شهوته وهواه الضَّال لا أنَّ اعتراضاته مبنيَّة على العلم والعقلانيَّة المتَّزنة.

٣٧٠. تفيد أنَّ الذي لا يتدبَّر آيات الله فقد عطَّل العمل الحقيقي لعقله.

٣٧١. وتفيد اختلاف النَّاس فيما يعقلون حيال الأمر الواحد.

٣٧٢. يفيد: الاستفهام الانكاري ذمّ عدم تدبُّر القرآن، لقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

٣٧٣. وتفيد في مجال التفكير الإبداعي، دعوة إلى ما يسمَّى بـــ(العصف الذهني) فمطلوب من كلِّ من يتعلَّق به الأمر أن يعمل عقله حيال هذا الأمر.

٣٧٤. تفيد حجيَّة القياس كمصدر من مصادر التَّشريع، لقوله تعالى: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ﴾.

٣٧٥. تفيد أنَّ الإسلام دين الحجَّة والعقل والإقناع ومخاطبة الأفهام، لا دين القهر والتسلُّط والسَّيف كما يزعم أعداءه.

٣٧٦. تفيد تعلُّم مقابلة الإساءة بالإحسان وعدم الانفعال مع المخالفين.

٣٧٧. فيها إرشاد إلى استعمال العقل في معرفة دلائل النُّبوَّة فهي بيِّنة واضحة لمن يعقل.

٣٧٨. تفيد كمال رعاية الله تعالى لرسوله وهو يلقِّنه الحجَّة التي يواجه بها أهل الباطل، ويثبِّته في دعوته.

٣٧٩. تفيد أنَّ تعلُّم القرآن وإدراك ما فيه نعمة تستوجب الشُّكر باتباع العلم بالعمل.

٣٨٠. تفيد أثر الأسلوب البليغ في بيان الحجَّة في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾.

٣٨١. تفيد أنَّ الأمور كلَّها لا تكون إلَّا بمشيئة الله تعالى، ممَّا يدلُّ على كمال علمه وعظمته وحكمته.

قال تعالى: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ [يونس:١٧]

٣٨٢. تفيد دقَّة التَّناسب وروعة التَّناسق مع ما قبلها فبعد أن أوضحت الآيتان السَّابقتان تكذيب الكفَّار للقرآن الذي جاء به النَّبي ﷺ وطلبهم منه عليه الصلاة والسلام الإتيان بغيره أو تبديله، وبيَّن أنَّه ليس بمقدور النَّبي محمد ﷺ ذلك، وإنَّما هو متَّبع لما يوحى إليه من ربِّه، حذَّرت هذه الآية الكريمة من خطورة وعظم إثم تلك الأعمال مجملاً، وقد جاءت آية الأنعام مفصِّلة لها، حيث قال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمۡ يُوحَ إِلَيۡهِ شَيۡءٞ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثۡلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۗ﴾ [الأنعام:٩٣]..

٣٨٣. فيها مناسبة ظاهرة لما قبلها فمن أظلم ممَّن اختلق على الله الكذب، فكيف لي أنَّ أبدِّل القرآن افتراء عليه..

٣٨٤. تفيد مناسبة بين قطع الصِّلة بالله افتراءً عليه أو تكذيبًا بكتابه وبين المعنى اللُّغوي ﴿ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ من مادة "جرم " أي قطع.

٣٨٥. تفيد: شناعة التَّقوُّل على الله ﷻ وأنَّ صاحبه من أعظم النَّاس ظلماً وأشدَّهم جرماً، ولقد جعل ابن القيم رحمه الله أنَّ القول على الله بغير علم أشدُّ جرماً من الشِّرك في سياق كلامه في

آية الأعراف في قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف:٣٣] فبدأ بالأسهل تحريماً ثمَّ ما هو أشدّ منه إلى أن ختم بأغلظ المحرَّمات، وهو " القول عليه بلا علم"، فما أُهِلَّ به لغير الله في الدَّرجة الرَّابعة من المحرَّمات"[1] .

٣٨٦. تفيد أنَّ من افترى على الله الكذب فإنَّه يبوء بالخزي والخسران.

٣٨٧. تفيد: أنَّ المفتري على الله الكذب لا يظفر بمطلوب ولا ينجو من مرهوب.

٣٨٨. تفيد: أنَّ أعظم الظلم الافتراء على الله بالكذب والتَّكذيب بآيات الله.

٣٨٩. تفيد: بمفهوم المخالفة: أنَّ الصدق عدلٌ، وأنَّ أعظم العدل التَّصديق بآيات الله.

٣٩٠. تفيد: أنَّ الفلاح لا يجتمع مع الكذب والإجرام.

٣٩١. تفيد: بمفهوم المخالفة: أنَّ في الصِّـــدق الفلاح كلُّه، ولا يوجد كلمة من كلام العرب أجمع لخيري الدُّنيا والآخرة من كلمة الفلاح، وبهذا نعرف حجم خســارة هؤلاء المكذِّبين بآيات الله، نعوذ بالله من الحرمان.

٣٩٢. تفيد عدم فلاح المجرمون المكذِّبون المفترون وفي هذا توجيه للدَّاعية أنَّ عليك البلاغ وليس عليك هداهم.

٣٩٣. تفيد بمفهوم المخالفة أنَّ أعظم وســائل تقوية الصِّــلة بالله ونيل الفلاح الإقبال على كتاب الله تصديقاً ورواية ودراية وإتباعاً لتعاليمه.

٣٩٤. فيها اســتمرار عدم فلاح المجرمين ما داموا يكذِّبون بآيات الله تعالى ويفترون عليه الكذب؛ دلَّ على ذلك فعل المضارع ﴿لَا يُفْلِحُ﴾ .

قال تعالى: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [يونس:١٨]

٣٩٥. فيها من المناســبة: لما طلبوا من النَّبي ﷺ تغيير القرآن أو تبديله لاشــتماله على شــتم آلهتهم كما يزعمون، بيَّن هنا قبح الأصنام وعبادتها.

---

(١) أحكام أهل الذمة ٥٢٨/١.

٣٩٦. يدلُّ التَّعبير بالمضارع في قوله ﴿وَيَعۡبُدُونَ﴾على استمرارهم على الشِّرك وأنَّ ذلك لم يحصل منهم مرَّة أو مرَّتين بل صار هذا ديدنهم.

٣٩٧. تفيد: أنَّ الشِّرك يخلِّف أدواء عضال منها: التَّناقض الذي يعيشه صاحبه، فيشقى به ومعه.

٣٩٨. فيها: أنَّ أوهام العبد وأهواءه يطمسان بصيرته حتى يرى الحقَّ باطلاً والباطل حقاً، ولا تمكِّنه من معرفة الحقائق بأدلَّتها كما حصل من هؤلاء المشركين الذين منحوا من لا يضرُّ ولا ينفع أغلى وأنفس ما يعطى وهو التعبُّد والتألُّه دون أدنى نظر أو فكر في استحقاقهم ذلك من دون الله.

٣٩٩. بطلان كل عبادة لغير الله من ملك أو رسول أو ولي ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

٤٠٠. تفيد أنَّ الإله الحقّ هو من يملك جلب النَّفع ودفع الضُّرِّ.

٤٠١. تفيد تسفيه آلهة المشركين ودحض دعاوى شفاعتهم عند الله يوم القيامة.

٤٠٢. تفيد الجملة: ﴿وَيَقُولُونَ﴾ دلالة على أنَّ المشركين لا برهان لهم على شركهم بل مجرد أوهام يقولونها بالألسن فقط.

٤٠٣. تفيد أنَّ أهل الباطل يبنون اعتقاداتهم ليس على علم ودليل وإنَّما على مجرَّد أقوال سمعوها وبنوا عليها ﴿وَيَقُولُونَ﴾.

٤٠٤. تفيد أنَّ الشَّفاعة التي كانت تطلب من غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله هي محض الشِّرك.

٤٠٥. تفيد أنَّهم يأملون منهم الشَّفاعة فيعبدونهم فليس كلّ من أتعب نفسه في العمل يكون مقبولاً، لقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾، لأنَّ الشَّفاعة لها شروط، وهي لا تتوفَّر في من هذا إلههم لا من جهة الشَّافع ولا من جهة المشفوع له، فالمشفوع له مشرك، والله لم يأذن للشافع.

ولقد أجاد ابن القيم رحمه الله وأفاد حينما ذكر معنى ذلك نظماً في نونيَّته:

وله الشَّفاعة كلُّها وهو الذي ... في ذاك يأذن للَّشفيع الدَّاني

امن ارتضى ممَّن يوحِّده ولم ... يشرك به شيئا لما قد جاء في القرآن

هذي شــفاعة كلّ ذي شــرك فلا تعقــد عليهــا يا أخــا الإيمــان
والله في القــرآن أبطلهــا فــلا تــعدل عــن الآثار والـقــرآن

٤٠٦. تفيد أنَّ شبهة الشَّفاعة هي من أعظم ذرائع المشركين قديماً وحديثاً.

٤٠٧. تفيد أنَّ القول بالشَّـــفاعة ممَّن لم يأذن به الله داخل في الظُّلم والقول على الله كذباً. وداخل فيه كلّ من يفتري على الله الكذب والقول بغير برهان ودليل.

٤٠٨. تفيد ضلال المتصوِّفة ونحوهم ممَّن يدعون الأولياء والصَّالحين ويستدلُّون بنفس شبهة المشـركين في هذه الآية: ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ وفي الآية الأخرى ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزُّمَر:٣].

٤٠٩. يفيد أنَّ شبهات المشركين متشابهة عبر التاريخ؛ ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدۡ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبۡلِكَۚ﴾ [فُصِّلَت:٤٣].

٤١٠. تفيد الآية في قوله: ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ ذم التحيُّل على أحكام الله تعالى وأنَّها لا تحلِّل الحرام وأنَّ التعليلات الباطلة لا تغيِّر من الحقائق شيئاً.

٤١١. تفيد مع ما سبق من الآيات أنَّ أعظم الظُّلم والتكذيب بآيات الله "الشِّرك به.

٤١٢. تفيد إقرار المشركين بتوحيد الرُّبوبيَّة وأنَّه الرَّبّ الخالق الواحد الأحد، ﴿عِندَ ٱللَّهِۚ﴾

٤١٣. تفيد سعة علم الله وإحاطته جلَّ وعلا بما هو كائن في ملكوت السَّموات والأرض.

٤١٤. تفيد تنزيه الرَّبّ جلَّ وعلا نفسه عن الشُّركاء وتقديسه وإجلاله وتعظيمه عن الشَّريك والنَّظير والشَّبيه ودعوة لنا للتخلُّق بمقتضى ذلك، لقوله تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ﴾.

٤١٥. تفيد: قصور عقول المشركين في عبادتهم لأصنام لا تملك نفعاً ولا تدفع ضرًّا.

٤١٦. تفيد: تهكُّم الله ﷻ بالمشركين في دعواهم الباطلة التي لا مستند لها ولا دليل ولا حجَّة وهو شفاعة الأصنام عنده ﷻ ﴿قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ الآية.

٤١٧. يفيد: ذكر السَّموات والأرض عظم هذه الآيات ودلالتها على ربوبيَّته جلَّ وعلا ومن ثَمَّ استحقاقه للعبوديَّة الحقَّة دون ما سواه من آلهتهم الباطلة التي لا تضرّ ولا تنفع ولا تشفع.

٤١٨. تفيد أنَّ الآيات في السَّماوات أعظم منها في الأرض؛ لسعتها، وعظمتها، وما فيها من كواكبها، وشمسها، وقمرها، وبروجها، وعلِّوها، واستغنائها عن عمد تقلّها، أو علّاقة ترفعها، إلى غير ذلك من عجائبها فالآية فيها أعظم من الأرض، وفي كلِّ شيء له آية سبحانه وبحمده.

٤١٩. تفيد أنَّ الِّشرك المذكور في الآية هو شرك الألوهيَّة، والعبادة، لأنَّ اعترافهم بالرُّبوبيَّة ثابت ولم تقع المعارك الكلاميَّة والقتاليَّة بين الأنبياء وخصومهم إلَّا في توحيد العبادة.

٤٢٠. تفيد أنَّ العبد يجب أن يعمل على تجنُّب ما يضرّه ويحرص على كلِّ ما ينفعه في دينه ودنياه.

٤٢١. تفيد الجملة من الآية: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ﴾ أنَّ الدِّين يوافق العقل السَّليم، وأنَّ الله هو النَّافع الضَّار أنَّ التَّوحيد هو ما يستدفع به الضَّرّ ويستجلب به النَّفع.

٤٢٢. فيها بيان بطلان عبادة المعبودات من دون الله؛ لعجزها وضعفها فلا تستحِّق العبادة ﴿مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ﴾ فكيف تعبد.

٤٢٣. تفيد تنزيه الله ﷻ عن الشُّركاء والأنداد..

٤٢٤. فيها بيان أنَّ أحوج ما يحتاج إليه الإنسان في حياته هو المعبود الذي يدفع عنه الضُّرّ ويجلب له النَّفع وليس ذلك إلَّا لله تعالى وحده.

٤٢٥. تفيد أنَّ القرآن يلقِّن جند الله الموحِّدين حجَّتهم وما يدحضون به شبهات أهل الباطل، لقوله تعالى: ﴿قُلۡ﴾.

٤٢٦. تفيد أنَّ أمور الخلق كلّها بيد الله تعالى ليس هنالك من يملك معه مثقال ذرَّة في السَّموات والأرض..

٤٢٧. تفيد أنَّ اعتقاد النَّفع والضُّرّ في غير الله من الشِّرك الأكبر، لأنَّ فيه تسوية لغير الله بالله فيما هو من خصائص الله.

٤٢٨. تفيد أنَّ تحقيق التَّوحيد لا يكون إلَّا بعد تنزيه الله تعالى عن كل صور الإشراك..

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَٱخۡتَلَفُواْۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡ فِيمَا فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ [يونس:١٩]

٤٢٩. تفيد دقَّة التَّناسب وروعة التَّناسق مع ما قبلها فبعد أن ذكر ﷻ في الآيات السَّابقة أنَّه يمهل ولا يهمل، ذكر ههنا الحكمة من تأخير عقوبة المستحقِّين للعقوبة والهلاك، فقال تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾.

٤٣٠. تفيد أنَّ الأصل في البشريَّة هو التَّوحيد وأن الشرك طارئ.

٤٣١. تفيد إمهال الله للعباد كي يعودوا، وهذا من دلائل رحمته وسعة عفوه.

٤٣٢. فيها ذمّ الفرقة والاختلاف، فالواجب سدّ ذرائعها وأسبابها والحرص على جمع الكلمة ووحدة الصَّف.

٤٣٣. تفيد أنَّ الشقاق والخلاف من أسباب هوان الأمَّة.

٤٣٤. فيها أنَّه لا وحدة للصف والجماعة إلَّا على التَّوحيد الخالص وأنَّ الشِّرك من أكبر أسباب الفرقة والاختلاف.

٤٣٥. فيها أنَّ دين الإسلام هو دين الفطرة التي فطر الله عليها كلّ أحد.

٤٣٦. فيها عظيم حلمه ﷻ بعباده في عدم تعجيل العذاب للنَّاس بكفرهم وإنَّما يؤخِّرهم إلى دار الجزاء.

٤٣٧. فيها أنَّ من صوارف ابتعاد النَّاس عن التَّوحيد هو اتباع الهوى.

٤٣٨. فيها أنَّ هذه الدَّار دار تكليف واختبار وابتلاء والآخرة دار ثواب وعقاب.

٤٣٩. فيها الإشارة الى سابق علمه ﷻ وهو ما قدَّره وقضاه ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ الآية.

٤٤٠. تفيد أنَّ اختلاف البشر سنَّة من سنن الله الكونيَّة، ومع أنَّ الله قد حذَّرنا منه إلَّا أنَّ قضاؤه واقع، لأنَّ الأمر الكوني لا بدَّ من وقوعه ويكون فيما يحبّه الله وفيما لا يحبه كالكفر ونحوه.

٤٤١. تفيد وتتضمَّن الوعيد على الاختلاف الشَّرعي.

٤٤٢. تفيد بضميمة ما قبلها من الآيات أنَّ من أجلّ أسباب الخلاف الشَّرعي الاختلاف على كتاب الله الذي أنزله.

٤٤٣. في اقتران التهديد بالهلاك بعد الاختلاف تنفير منه، وهذا يدلُّ على فضيلة الائتلاف والوحدة وأنَّها أقرب الى السَّلامة.

٤٤٤. إضافة الرُّبوبيَّة في ﴿رَبِّكَ﴾ تفيد الرُّبوبيَّة الخاصَّة وفي ذلك تشريف للرسول ﷺ.

٤٤٥. تفيد بيان حكمة الله تعالى بتأخير العقوبة عن العصاة وأهل الشِّرك والكفر.

٤٤٦. تفيد إثبات الكلام لله تعالى؛ لقوله ﷻ: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾.

٤٤٧. تفيد تسلية النَّبي ﷺ والدُّعاة إلى الله من بعده، وكأنَّه قيل: لا تطمع في اتفاق الكلّ على دينك واستجابتهم لك فيما تدعوهم إليه من الإيمان والتَّوحيد، فإنَّ الاختلاف بين النَّاس سنَّة إلهيَّة في هذا الكون،﴿... وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ....﴾[هود:١١٨، ١١٩].

٤٤٨. تفيد معرفة تاريخ الشِّرك وأسباب وقوعه للحذر والتَّحذير؛ فقد جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما: كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلّهم على الإسلام" (١) .

٤٤٩. فيها إثبات القدر وكتابة الأمور في الأزل.

قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ۖ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾ [يونس:٢٠]

٤٥٠. تفيد عناية الله ﷻ بتولِّي الرَّدّ سبحانه دحضاً لشبهات الكافرين المعاندين وتلقين الرَّسول والمؤمنين حجَّتهم، لقوله تعالى: ﴿فَقُلْ﴾.

٤٥١. تفيد أنَّ سنَّة الله ألَّا يستجيب سؤال المعاندين والمكابرين لإرسال الآيات حتى لا يعجل لهم العقوبة حال عدم إيمانهم.

٤٥٢. تفيد أنَّ ما كلَّ من سأل من المعاندين والمتكبّرين يجاب وأنَّ مثل هؤلاء أقلّ وأحقر من أن يجابوا إلى ما سألوه؛ لأنَّه لا فائدة ولا طائل في جوابهم.

٤٥٣. تفيد تعنُّت المشركين وعنادهم ومكابرتهم فما سألوا ليؤمنوا وإنَّما سألوا عناداً وتعجيزاً وتعنُّتاً.

---

(١) رواه ابن جرير في «تفسيره» (٤/ ٢٧٥ بتحقيق أحمد شاكر رحمه الله) والحاكم (٢/ ٥٤٦) وقال: صحيح على شرط البخاري ووافقه الذهبي.

٤٥٤. تفيد جهل هؤلاء المعاندين بحقيقة القرآن في طلبهم آية أخرى غيره وإلَّا فهو أكبر معجزة وأقوى حجَّة وأعظم دليل، فلم يكن عندهم ردّ على الموجود بل زعموا أنَّهم يريدوا غيره ليؤمنوا به.

٤٥٥. تفيد أنَّ من ادَّعى علم الغيب فقد أشرك لأنَّ الغيب المطلق من خصائص الله تعالى ﴿فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ﴾.

٤٥٦. تفيد أنَّ القرآن من أعظم وسائل الثَّبات على دين الله بما فيه من تثبيت الفئة المؤمنة بياناً للحقِّ وكشفًا لسبيل المشركين المكابرين ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان:٣٣].

٤٥٧. تفيد أنَّ علم الإنسان قاصر عن علم الله تعالى بالكمِّ والكيفيَّة والنَّتائج ومهما تعلَّم فإنَّه لم يؤت من العلم إلَّا قليل فلا يحيط بالغيب وهو "السِّر والخفي من العلوم التي لا يعلمها الا الله، لقوله: ﴿فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ﴾.

٤٥٨. فيها ضرورة أن يعرف الإنسان حدود مهمَّته وقدرته ولا يتجاوزها كما أُمر النَّبي ﷺ أن يكِل الأمر الى عالم الغيب.

٤٥٩. تفيد تهديد ووعيد لأولئك القوم المعاندين ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾.

قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِيٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ [يونس:٢١]

٤٦٠. فيها من المناسبة أنَّه: لما طلب الكفَّار من النَّبي ﷺ آية غير القرآن في الآية السَّابقة أتى هنا بجواب آخر عليهم.

٤٦١. تفيد دقَّة التَّناسب وروعة التَّناسق مع ما قبلها فبعد أن ذكرت الآية السَّابقة طلب الكفَّار من النَّبي ﷺ نزول آية من عند الله تعالى، جاء الرَّدُّ القاطع في هذه الآية بأنَّ إظهار الآيات لا فائدة منه؛ لأنَّه ﷻ لو أظهر لهم جميع ما طلبوه من المعجزات الظَّاهرة فإنَّهم لا يقبلونها؛ لأنَّه ليس غرضهم من هذه الآيات سوى الدَّفع والمنع والمبالغة في صون مناصبهم الدُّنيوية، والامتناع من المتابعة، والدَّليل عليه ما ذكر في هذه الآية من أنَّه تعالى لما شدَّد الأمر عليهم وسلَّط البلاء عليهم، ثمَّ أزالها عنهم وأبدل تلك البليَّات بالخيرات، فهم مع ذلك استمرُّوا

على التَّكذيب والجحود، فدلَّ ذلك على أنَّه تعالى لو أنزل عليهم الآيات التي طلبوها لم يلتفتوا إليها.

٤٦٢. تفيد أنَّ من أعظم صور مكر الكافر في آيات الله تعالى: الغرور وإعجابه بنفسه وبما وصل إليه من تطوُّر وتحضُّر وقوَّة وفكر في شتَّى مناحي الحياة، وقد ذكر ذلك في عدد من الآيات كما في قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي﴾ [هود:١٠]، وقوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾ [فُصِّلَت:٥٠].

٤٦٣. فيها إثبات صفة الرَّحمة لله ﷻ والرَّدّ على المعطِّلة، وأنَّ رحمة الله تعالى واسعة شاملة وسعت النَّاس جميعاً بل رحمته وسعت كل شيء.

٤٦٤. فيها أنَّ الجحود متأصِّل في الإنسان، ويؤيِّده ما جاء في سورة إبراهيم ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم:٣٤].

٤٦٥. فيها بيان التأدب مع الله في إضافة النِّعم إليه وعدم نسبة الضر إليه.

٤٦٦. يفيد التنكير في قوله ﴿رَحْمَةً﴾ و ﴿ضَرَّاءَ﴾ بيان غاية عجز النَّاس وأنَّهم لا يستطيعون أن يجلبوا لأنفسهم أيسر الأشياء ولا أن يدفعوا عن أنفسهم شيئاً ولو صغر.

٤٦٧. فيها بيان واسع رحمة الله تعالى أنَّه يعطي النَّاس كلّ ما يحتاجون إليه من الأمور كبيراً كان ذلك أو صغراً

٤٦٨. بيان عجز الانسان وضعفه حيث أنَّه يتضرَّر حتى بأصغر الشَّيء.

٤٦٩. تفيد سُنَّة التَّداول فالأيَّام دول وأنَّ دوام الحال من المحال ﴿رَحْمَةً مِّنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ﴾.

٤٧٠. تفيد أنَّ المؤمن عليه أن يوطِّن نفسه ويأتي بالعبوديَّة المناسبة لكلِّ حالٍ لأنَّ أمره كلَّه خير فيدور مع مراد الله حيث دار ما بين الشُّكر على النعماء والصَّبر على الضَّرَّاء.

٤٧١. تفيد أنَّ الفرج بعد الضِّيق واليسر بعد العسر أدعى أن يقابل بالشكر لا الكفر للمنعم ﷻ لذا كان ذنب كفَّار قريش أفدح وأشنع أن قابلوا النِّعمة بالنُّكران والكفران.

٤٧٢. فيها الحذر كل الحذر من مكر الله ﷻ فمن مكر الله به أذلَّه وأخزاه في الدنيا وعذَّبه في الآخرة.

٤٧٣. فيها أنَّ على العبد أن يحسن عمله فلا شيء يخفى ولا شيء ينسى بل كلّه مكتوب في كتاب لا يضلُّ ربِّي ولا ينسى.

٤٧٤. وفيها: المكر والخداع والحيل وردّ الحقِّ ديدن الكفَّار وأتباعهم.

٤٧٥. وفيها: أنَّ إثارة الشُّبه أيضا من سلوكهم، وهو ديدن كلّ من يصدّ عن الحقِّ.

٤٧٦. وفيها: أنَّ النَّعماء قد تكون استدراجاً ونقمة.

٤٧٧. وفيها: أنَّ الله أسرع مكراً وعقوبة واستدراجاً لهم.

٤٧٨. وفيها: أنَّ الغالب أنَّ الانسان كفور جحود لنعم الله، وتكون في حال الجاهل أكثر من غيره..

٤٧٩. تفيد جملة ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسۡرَعُ مَكۡرٗاۚ﴾ أنَّ صفات الله تعالى كلَّها صفات كمال، دالَّة على أحسن المعاني وأكملها.

٤٨٠. تفيد أنَّ الجزاء من جنس العمل وكما تدين تدان وبالكيل الذي تكيل تكتال.

٤٨١. تفيد جملة ﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكۡتُبُونَ مَا تَمۡكُرُونَ﴾ إثبات الملائكة الكتبة الحفظة المكلفون بكتابة وحفظ أعمال العباد.

٤٨٢. تفيد ضرورة معرفة أنَّ هذه الحياة الدُّنيا حياة متقلِّبة ومليئة بالمنغِّصات من الضَّرّاء والأمراض الخطيرة والأوبئة الفتَّاكة؛ قال تعالى: ﴿مِّنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُمۡ﴾ وقد تكرَّر ذكر الضُّرِّ في نحو من عشر آيات من هذه السُّورة والسَّعيد من اتَّعظ من أحوال وتقلُّبات هذه الحياة الفانية وعمل لما بعدها من الحياة الباقية المستقرة.

٤٨٣. تفيد تهديد ووعيد للمشركين من كفَّار قريش على كفرهم وجحودهم.

٤٨٤. من هدايات الآية أن نصف الله بما وصف به نفسه في كتابه على الوجه الذي يليق به جلَّ وعلا.

٤٨٥. تفيد فضل الله تعالى على الكافر؛ لكونه يذيقه الرَّحمة العامَّة في هذه الدُّنيا بالرغم من استحقاقه للعذاب، لقوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ مِّنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ﴾، فالكافر أحد أفراد هذا العموم.

٤٨٦. تفيد خطورة مكر الكافرين وكثرته، وتعدُّد أشكاله، وتنوُّع أصنافه، بتعدّد وتنوُّع آيات الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِيٓ ءَايَاتِنَا﴾ أي: لهم مكر عظيم وسريع في جميع آياتنا الكونيَّة والشَّرعيَّة.

٤٨٧. تفيد بيان عتوّ الكافر وطغيانه حيث لم يمض وقت على تذوُّقه الرَّحمة ولما ينغمس بعد في تلك الرَّحمة حتى سارع إلى الكفر والجحود والمكر في آيات الله تعالى.

٤٨٨. فيها: سرعة تهالك الكافرين الى التَّكذيب بآيات الله، دلَّ عليه ﴿إِذَا﴾ ومقابلة الله لهم بقوله ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ فأثبت لهم سرعة في المكر في آيات الله، وفي هذا انغلاق منافذ الفكر والنَّظر عند الكافر، وعدم بصيرته وطلبه للحقِّ.

٤٨٩. فيها تحذير ضمني من الكينونة بهذه الحالة، بل الواجب عليهم ضدَّها، وهو أن تشكر نعمة الله وآلاءه ومن شكرها الاستجابة لآيات الله إيماناً وامتثالاً.

٤٩٠. تفيد مثالاً لنوع من أنواع علوم القرآن، وهو وجود آيات مدنيَّة في السُّور المكيَّة، فسورة يونس مكيَّة وقد قيل: إنَّ هذه الآية نزلت بعد أن دعا النَّبي ﷺ بأنَّ يسلِّط الله على كفار قريش سبع سنين كسني يوسف، ثم رحمهم بعد ذلك وأنزل عليهم الأمطار النَّافعة؛ ثم قال تعالى عن حالهم بعد ذلك: ﴿إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِيٓ ءَايَاتِنَا﴾.

٤٩١. فيها أنَّ كتابة الملائكة لأعمال الكفَّار ومكرهم في آيات الله مكر بهم.

٤٩٢. فيها إثبات كتابة الأعمال وهذا يتضمَّن الجزاء عليها وبيان عدل الله ﷻ.

٤٩٣. فيها إثبات الكرام الكاتبين من الملائكة؛ ﴿بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزُّخرُف:٨٠].

٤٩٤. : فيها تعظيم الرَّب جلَّ وعلا وبيان كماله وجلاله؛ لقوله: ﴿أَذَقْنَا﴾ ﴿ءَايَاتِنَا﴾ ﴿رُسُلَنَا﴾ بصيغة الجمع التي تدلُّ على التَّعظيم...

٤٩٥. فيها أنَّ الضَّرَّاء قد تمس النَّاس جميعاً كالأوبئة والأمراض العامَّة؛ لقوله: ﴿ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ﴾ وفيها رحمة الله تعالى بالنَّاس إذ عبَّر عن الضَّرَّاء بالمسِّ فقط..

٤٩٦. فيها أنَّ الاستهزاء والتَّكذيب بآيات الله تعالى من المكر الكُبَّار للكفَّار..

٤٩٧. فيها أنَّ الملائكة رسل؛ قال تعالى: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ﴾ [فاطر:١] وهذا أصل الكلمة لغة لأنَّها من الألوكة وهي الرسالة.

٤٩٨. فيها استمرار وتجدُّد الكتابة من الملائكة واستمرار وتجدُّد المكر من الكافرين دلَّ على ذلك الأفعال المضارعة ﴿يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾

٤٩٩. تفيد أهميَّة أن يتولى صاحب الحقِّ إظهار حجَّته وبراهينه على خصومه بنفسه؛ فذلك أشدّ وقعاً في أسماع السَّامعين، وأقوى تأثيراً في نفوس الباغين وأنكى في قلوب الماكرين، حيث قال تعالى ملقِّناً نبيَّه محمداً ﷺ الرَّدّ عليهم: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ ثم تولَّى ﷻ بنفسه العظيمة بيان حجَّته وأدلَّته في ذلك الرَّدّ، ولم يكتف بتلقين نبيّه ﷺ أن يقول لهم بل قال عزَّ وجل بنفسه: ﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾.

٥٠٠. تفيد أهميَّة أن يؤتى بالأدلَّة العقلية والمنطقيَّة لمن لا يقتنع إلَّا بتلك الأدلَّة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ وبيان ذلك: أنَّه إذا كانت الرُّسل حاضرة في ذلك المكان تكتب ما يمكرون، فلا يتصوَّر عقلاً ومنطقاً أنَّ مرسلهم لا يعلم مسبقاً بما أرسلهم من أجله، كما أنَّه لا يتصوَّر عقلاً ومنطقاً وجود مكر مع سبق علم الممكور به سواء كان ذلك عن علم سابق أو عن طريق تلك الرسل، وأيضا فإنَّ في إرسال الرُّسل لمجرد كتابة المكر فقط دون اتخاذ إجراءات أخرى ضدّ هؤلاء الماكرين دليل على قدرة مرسلهم الكاملة على إبطال مكر هؤلاء في أي وقت من الأوقات وبأسرع ما يتصور، دون الحاجة إلى تدخُّل من تلك الرُّسل في نفس الوقت، لعلمه بأنَّهم لا يفوتونه وكلّ هذه دلائل عقليَّة منطقيَّة اشتملت عليها هذه العبارة القرآنيَّة.

٥٠١. وفيها: ختمت الآية بالتَّذكير بأنَّ كلَّ شيء مكتوب.

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [يونس:٢٢]

٥٠٢. تفيد مناسبة ظاهرة لما قبلها؛ فبعد أن ذكرت الآية السَّابقة حقائق كليَّة وقواعد عامَّة في أحوال النَّاس وتقلُّبهم بين الرَّحمة والضَّرَّاء والعسر واليسر، وسرعة مكرهم في آيات الله، وسرعة مكر الله تعالى بجانب مكرهم، وكان ذلك لا يتأيَّد ولا ينكشف تمام الانكشاف إلَّا بذكر مثال واضح وجلي جاءت هذه الآية تأييداً وتوضيحاً وتفسيراً للآية السَّابقة.

٥٠٣. تفيد أنَّ شرك الكفَّار القدماء السَّابقين أهون من شرك الكفرة في عصرنا الحاضر.

٥٠٤. تفيد شكر نعم الله تعالى استبقاء للنِّعم وزيادة لها، فالله يحبُّ أن يشكر كما يحبُّ أن يذكر.

٥٠٥. تفيد تِعداد نعم الله على الخلق، والله يحبُّ أن يذكر وتذكر نعمه ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضُّحى:١١].

٥٠٦. اعتراف المشركين بربوبيَّة الله تعالى واضطرارهم لدعائه والتعلُّق به.

٥٠٧. تفيد مع ما قبلها ضرورة استحضار الأمثلة والنَّماذج في حال إيراد الحقائق والقواعد العلميَّة وذلك من أجل ترسيخ تلك المعلومات في ذهن المتلقِّي، ويفضَّل أن تكون تلك الأمثلة ممَّا تمسُّ حياة المتلقِّي بل ويكون جزءاً منها، لقوله تعالى: ﴿يُسَيِّرُكُمْ﴾ وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ﴾..

٥٠٨. تفيد تكريم الله للبشر دون غيرهم من مخلوقات الله إذ سيَّرهم في البرِّ والبحر وميَّزهم بالعقل والإرادة للسير، قال تعالى: ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء:٧٠]

٥٠٩. تفيد جواز ركوب البحر سواء كان للجهاد في سبيل الله، أو لأداء فريضة الحجِّ، أو لطلب الرِّزق، أو غير ذلك من أوجه الرُّكوب؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾..

٥١٠. تفيد أنَّ الاعتراف بربوبيَّة الله تعالى مركوز في الطبائع والفطر البشريَّة، فهم مجبولون على أنَّ الله ﷻ هو المتصرِّف في هذا الكون، لذلك فإنَّه إذا حقَّت الحقائق واشتدَّت الأزمة وعظم الكرب رجعوا إليه كلُّهم؛ مؤمنهم وكافرهم..

٥١١. ﴿يُسَيِّرُكُمْ﴾ و ﴿كُنتُمْ﴾ ثم ﴿جَآءَتْهَا﴾ و ﴿وَجَآءَهُمُ﴾ تفيد الانتقال من ضمائر المخاطبين الي ضمائر الغائبين بما يناسب حالهم عند إقبالهم الى الله وإخلاص الدعاء له عند الشِّدَّه ثمَّ الإعراض والكفر بعد النَّجاة وهذه صفتهم ودأبهم وهو مقابلة الإحسان بالكفران فناسب الخطاب حالهم.

٥١٢. تقديم البرّ على البحر تفيد غلبة التسيير والمسير فيه وتشعُّبه ولتعدُّد واختلاف مراكبه ووسائله واطمئنان النُّفوس إليه.

٥١٣. تفيد دقَّة العبارة وروعة الفصاحة القرآنيَّة في وصف المشاهد والمواقف والوقائع، وكأنَّ المستمع يعيش في أجواء تلك المشاهد والمواقف ويتفاعل معها وكأنَّه طرف فيها؛ ومن أجل ذلك نجد العبارة القرآنيَّة في هذه الآية تتنقل بين صيغة الخطاب وصيغة الغيبة لتصوير تلك المشاهد من زوايا مختلفة يتفاعل معها المستمع وكأنَّه طرف فيها، ممَّا يعطي بعداً أكبر وصورة شاملة ووصفاً دقيقاً لما يحدث من أمور في تلك الواقعة..

٥١٤. في الآية ما يدعو إلى التَّدبُّر في مخلوقات الله؛ ومنها سير الفلك في البحر كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ [البقرة:١٦٤] إلى آخر الآية.

٥١٥. تفيد أنَّ مشاهدة المواقف والأحداث الطَّيِّبة الملائمة للأحوال والظُّروف من أسرع ما يدخل السَّعادة والرَّاحة في القلوب، ويصنع البهجة والفرحة في النُّفوس، ويرسم البسمة في الوجوه، لقوله تعالى: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا﴾..

٥١٦. تفيد أنَّ الفرح المصحوب بالبطر والفخر والزّهو شؤم على صاحبه، وهو منذر للكوارث والمصائب والجوائح المهلكة؛ لقوله تعالى: ﴿وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾، وقد ذكر النهي عن ذلك الفرح في عدد من الآيات القرآنية، كما في قصة قارون: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ [القصص:٧٦]..

٥١٧. تفيد أنَّ الفرحة بحدوث النِّعم يجب أن يصحبها شكر المنعم جلَّ جلاله، وإلَّا كانت جديرة بأن تسلب عاجلاً أو آجلاً؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾. وقال تعالى في آية أخرى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم:٧]

٥١٨. تفيد أنَّ البدايات السَّعيدة والجميلة لحياة المرء ينبغي أن لا تنسيه طول المسافة، ووعورة الطريق، وصعوبة الوصول، فالعبرة بالنِّهايات السَّعيدة لا البدايات، لقوله تعالى: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾..

ولله درُّ الشاعر حين قال:

يا راقدَ اللَّيلِ مســـروراً بأوَّلِـهِ إنَّ الحوادثَ قدْ يطرقنَ أســـحارَا

لا تفرحنَّ بليـلٍ طـابَ أوَّلـهُ فـربَّ آخرِ ليـلٍ أجَّجَ النَّـارا

٥١٩. تفيد أنَّ الرِّياح أو الرِّيح خلق من خلق الله، وآية من آياته، وهي مرسلة بأمر الله تعالى إمَّا بالرَّحمة وإمَّا بالعذاب وقد ذُكرتِ الرِّياحُ في القُرآنِ جَمعًا ومُفردةً، فحيث كانت في ســياقِ الرَّحمةِ أتت مجموعةً، وحيثُ وقعتْ في ســياقِ العَذابِ أتت مُفردةً، وســرُّ ذلك أنَّ رياحَ الرَّحمةِ مُختلفةُ الصِّــفاتِ والمهابِّ والمنافِعِ، وأمَّا في العذابِ فإنَّها تأتي مِن وجهٍ واحدٍ وصِــمَام واحدٍ لا يقومُ لها شيءٌ، ولا يعارِضُها غيرُها حتى تنتهيَ إلى حيث أُمِرَتْ. إلَّا أنَّ هذا لم يَطَّرِدْ هنا في قَولِه تعالى: ﴿وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ﴾، وقد يقال: أنَّ مجيء الرِّيح بالإفراد للعذاب، وبالجمع للرَّحمة قاعدة أغلبيَّة، والسَّــبب في خروجها عن الأصــل؛ وهو إفراد الرِّيح مع السُّــفن هو الرَّحمة بها ولو أنَّها جمعت فقد يدلُّ الجمع على مجيء الرِّيح من مهابٍّ متعدِّدة وفي ذلك دمارٌ لها.

٥٢٠. تفيد أنَّ الأمواج البحريَّة تتشكَّل وتستمدُّ طاقتها من قوَّة الرِّياح التي تهبُّ فوق سطح البحر؛ لقوله تعالى: ﴿جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ﴾..

٥٢١. بضـميمة ما قبلها من الآيات تفيد أنَّ الواجب على المؤمن أن لا يأمن مكر الله وزوال نعمته وحلول نقمته كما هو ديدن رســول الله كما روى ابن ماجة في ســننه عن عبد الله بن سـرجس ﵁ قال: "كان رسـول الله ﷺ يقول: «اللهم إنِّي أعوذ بك من الحور بعد الكور"[(١)] . وقال المباركفوري: "أي النُّقصان بعد الزيادة وفساد الأمور بعد صلاحها"[(٢)].

٥٢٢. تفيد شــدَّة خطورة الأمواج البحريَّة التي تأتي من أماكن متفرقة من البحر بحيث لا يكون لها مســارات محدَّدة يمكن التَّنبُّؤ بها وتفادي خطورتها وشــدَّة هيجانها؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ﴾.

٥٢٣. تفيد أنَّه ينبغي للعبد أن لا ينتظر حتى تسوء لديه الأمور والأحوال وتحيط به المصائب والكوارث من كل مكان، بل يســارع في الدُّعاء والالتجاء إلى ربِّه في كلِّ وقت، وقبل وبعد

---

(١) أخرجه مسلم ٢/ ٩٧٩.

(٢) تحفة الأحوذي، شرح جامع الترمذي، لمحمد بن عبد الرحمن المباركفوري٩/ ٢٨١.

حلول المصائب وفي أثنائها؛ فدعاء الله تعالى ينفع لما نزل ولما لم ينزل، ولا يردّ القدر إلَّا الدُّعاء؛ لقوله تعالى: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ﴾ [يونس:٢٢]

٥٢٤. تفيد أنَّه ينبغي للعبد إذا رأى اشتداد الرِيح أن يلجأ إلى الله تعالى، ويدعو بالدُّعاء المأثور عن النبيِّ ﷺ.

٥٢٥. تفيد أنَّ دعاء الكافر لله تعالى إنَّما هو دعاء اضطرار لا دعاء محبَّة ورغبة؛ لقوله تعالى: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ دَعَوُاْ ٱللَّهَ﴾ [يونس:٢٢]. ولو تيقَّن أنَّه لم يحط به لما دعا الله تعالى.

٥٢٦. تفيد بضميمة ما بعدها أنَّ الإخلاص ينجّي صاحبه ويصرف عنه السُّوء في الدُّنيا ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ [يوسف:٢٤].

٥٢٧. تفيد أهميَّة الانكسار والتَّضرُّع إلى الله والابتعاد عن الرِّياء والسُّمعة في الدُّعاء، وأنَّ ذلك أحرى لاستجابة دعاء العبد؛ لقوله تعالى: ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي: مخلصين له الدُّعاء..

٥٢٨. تفيد اشتمال الآية على عدد من " السُّنن الإلهيَّة " منها: سنَّة التَّسخير ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۖ﴾ وسنَّة التَّغيير ﴿بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ﴾ وسنَّة الابتلاء والتَّمحيص ﴿جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ﴾ سنَّة الإملاء والاستدراج؛ بضميمة ما بعدها ﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمۡ﴾ [يونس:٢٣] وسنَّة الجزاء من جنس العمل؛ بضميمة ما قبلها ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسۡرَعُ مَكۡرًاۚ﴾.

٥٢٩. تفيد أنَّ أهل العقول الماكرة، والنُّفوس الباغية؛ لا يأتون بالقربات والعبادات لله تعالى إلَّا على سبيل المعاوضة؛ مع أنَّ الأصل والمطلوب أن تكون أعمال العباد متمحّصة لله تعالى في كل وقت؛ لا أن تكون فقط عند تجدُّد نعمة أو حدوث مطلوب للعبد؛ لقوله تعالى: ﴿لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾.

٥٣٠. تفيد جواز حذف ما يعلم من السِّياق؛ لقوله تعالى: ﴿لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ﴾ أي من هذه المصيبة أو الشِّدَّة التي نحن فيها.

٥٣١. تفيد أنَّ من عبد الله تعالى على سبيل المعاوضة لم يوفَّق لحسن طاعة الله وعبادته، وذلك لأنَّ ما قام به هؤلاء أشبه ما يكون بالنَّذر؛ وقد جاء في الحديث: (النَّذر لا يأتي بخير

وإنَّما يستخرج به من البخيل" [1]، ولو أنَّهم قالوا: اللهم نجِّنا من هذه الشِّدَّة وألهمنا شكر نعمتك؛ لحصل لهما الأمران جميعاً؛ فإنَّ الله ﷻ لا يخيِّب من دعاه.

٥٣٢. فيها فضل الله ﷻ على النَّاس في تسييرهم في البرِّ والبحر وتسخير السُّفن لهم وكلّها آيات ناطقة تدلُّ على رحمته وإحسانه ولطفه وفضله؛ ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [الشورى:٣٢، ٣٣].

٥٣٣. فيها وجوب إخلاص الدعاء لله ﷻ.

٥٣٤. يفيد التَّعبير بصفة الألوهيَّة دون الرُّبوبيَّة في قوله: ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ﴾ ولم يقل: (دعوا ربهم)، مع أنَّ الكفَّار يؤمنون بربوبيَّة الله تعالى فقط؛ وذلك للدَّلالة على أنَّ من أقرَّ بتوحيد الرُّبوبيَّة وعلم أنَّ الله سبحانه هو الرَّبّ وحده لا شريك له في ربوبيَّته؛ لزمه من ذلك الإقرار أن يفرد الله بالعبادة وحده ﷻ؛ لأنَّه لا يصلح أن يعبد إلَّا من كان ربَّاً خالقاً مالكاً مدبِّراً، وما دام كلّه لله وحده وجب أن يكون هو المعبود وحده، لا شريك له.

٥٣٥. تفيد أنَّ الكافر يقرُّ ويؤمن بوجود الله، ويؤمن به ويلتجئ إليه، ولكن هذا الإيمان والالتجاء لا يخرجه من الكفر بالله تعالى؛ وقد كان الكفَّار في عهد النَّبي ﷺ يؤمنون بأنَّ الله هو خالقهم ورازقهم، وينيبون إليه ويلجؤون إليه لا إلى غيره في أوقات الشِّدَّة، ومع ذلك حكم بكفرهم وقاتلهم النَّبي ﷺ.

٥٣٦. تفيد سرعة تبدُّل الأحوال في هذه الحياة الدُّنيا، وفي كل ذلك حكم وابتلاءات.

٥٣٧. تفيد أنَّ النَّجاة من الشَّدائد ابتلاء للعبد أيشكر أم يكفر بعد ذلك.

٥٣٨. تفيد أنَّ المنجي في الشَّدائد وحده هو الذي يستحق العبادة دون سواه.

٥٣٩. تفيد مدح الشُّكر والشَّاكرين، فمن لزمه وكان الشُّكر وصفه تحقَّق له خير كثير.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس:٢٣]

٥٤٠. فيها من المناسبة أنَّه: لما ذكر ﷻ حكاية عنهم تضرُّعهم، بيَّن هنا عودتهم للبغي، لأنَّ ديدن أهل البغي الإفساد في الأرض، وقد قال الله تعالى عنهم بما سبق في علمه أنَّهم لو ردُّوا من

(١) أخرجه البخاري ١٢٤/٨، ومسلم ١٢٦١/٣.

عذاب القيامة لرجعوا إلى ما كانوا عليه، قال تعالى: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام:٢٨].

٥٤١. وفيها: أنَّ بغي الإنسان على نفسه.

٥٤٢. وفيها: أنَّ البغي يجازى أهله في الدُّنيا والآخرة.

٥٤٣. وفيها: البغي لا يكون بالحقِّ أبداً.

٥٤٤. وفيها: بيان حقارة الدُّنيا وقرب نهايتها.

٥٤٥. وفيها: صيغة المضارع ﴿يَبْغُونَ﴾ تدلُّ على استمرارهم بالبغي وتجدُّد ذلك، وتطلُّبهم الاستعلاء في الأرض بغير الحقِّ أي فساداً كما في القرطبي "وأصله الطَّلب، أي يطلبون الاستعلاء بالفساد بغير الحقِّ أي بالتَّكذيب ; ومنه بغت المرأة طلبت غير زوجها"[(١)] .

٥٤٦. وفيها: الختم بالتهديد والتقريع منه سبحانه العالم بصنيعهم القادر عليهم وعلى أفعالهم.

٥٤٧. تفيد مع ما قبلها أنَّ دعاء المضطر المخلص في دعائه مستجاب، ولو كان كافراً؛ بل هي استجابة سريعة من الله تعالى فكيف بدعوات المؤمن المضطر؛ بدلالة الفاء في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَنجَاهُمْ﴾؛ لأنَّ الفاء للتعقيب مع الفور، كما عقد ابن مالك في الخلاصة:

والفاء للترتيب باتصال وثم للترتيب بانفصال

٥٤٨. تفيد مع ما قبلها قدرة الله تعالى على إنجاء من يطلب النَّجاة.

٥٤٩. تفيد مع ما قبلها إثبات علم الله تعالى لأحوال عباده، وسمعه لدعوات من يدعوه؛ لقوله تعالى: ﴿أَنجَاهُمْ﴾ وذلك لأنَّه لا ينجيهم إذا دعوه إلَّا بعد أن يسمع دعاءهم ويعلم بحالهم.

٥٥٠. تفيد رحمة الله وحلمه بالكافرين، حيث يجيب دعاءهم وينقذهم من الشَّدائد والمصائب مع علمه بأنَّهم سوف يبغون في الأرض؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾..

---

(١) تفسير القرطبي ٨/ ٣٢٦.

٥٥١. تفيد أنَّ أعظم البغي في الأرض: الشِّرك بالله؛ وبهذا جاء التَّنصيص في بعض الآيات، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت:٦٥].

٥٥٢. تفيد تقلُّب أصحاب المذاهب الباطلة وأنَّهم لا قرار لهم ولا ثبات.

٥٥٣. تفيد أنَّ الطَّبع غالباً ما يغلب التَّطبُّع.

قال زهير في معلَّقته:

ومهما تكن عند امرئ من خليقة وإن خالها تخفى على النَّاس تعلم

٥٥٤. تفيد أنَّ الطُّغاة يتعاملون مع التَّديُّن بالمصلحة لا بالإيمان.

٥٥٥. تفيد مع ما قبلها وما بعدها أهميَّة الاتِّعاظ وأخذ العبرة ممَّا ذكر في هذه الآيات، وربطها بما وقع علينا هذه الأيَّام من جائحة ووباء كورونا، حيث كانت تجري بنا سفينة الحياة بريح طيِّبة وأحوال مستقرَّة وظروف ملائمة، فكانت الأرض قد أخذت زخرفها وازَّيَّنت بأعلى وأرقى وسائل الرَّفاهيَّة والزِّينة والتَّقدُّم والتَّطوُّر في شتَّى مناحي الحياة، وظنَّ أهل الأرض أنَّهم قادرون على حماية هذا الكون ومكتسباته من أي مخاطر تهدِّده، واطمأنُّوا إلى إمكاناتهم الهائلة وقوَّتهم القاهرة، مفتخرين وفرحين بما أوتوا من تقدُّم وتطوُّر في شتَّى المجالات، ولكن للأسف لم يدم هذا الفرح طويلاً فقد أتاها أمر الله ﷻ ليلاً أو نهاراً بحسب مواقع بلدان العالم مترامية الأطراف، فعصف بهم وباء كورونا، – وهو فيروس لا يرى بالعين المجرَّدة – فأحاط بهم من كلِّ مكان، وأغلق عليهم الأبواب، وعزلهم في البيوت، وحصد أرواح كثير منهم.

٥٥٦. بضميمة ما قبلها تفيد أهميَّة الدُّعاء كسلاح تستمطر به رحمة الله فإذا كان قد استجاب للمشركين المعاندين فكيف – تعاظم شأنه وجلَّت قدرته وفاضت رحمته – بعباده المؤمنين.

٥٥٧. تفيد الهداية لاتخاذ الأسباب ومنها الدُّعاء.

٥٥٨. تفيد التَّعقيب وسرعه مقابلة النِّعم بالكفر دون تمهُّل – والعياذ بالله –، لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾، فأتى بإذا الفجائية.

٥٥٩. تفيد نقضهم للعهد والنَّذر الذي قطعوه علي أنفسهم ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾.

٥٦٠. تفيد الزَّجر وقوَّة البيان وذلك بالانتقال للخطاب المباشر وبيان سوء عاقبة عملهم، لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ﴾.

٥٦١. تفيد أنَّ وبال بغيهم عائد عليهم ومثله كثير في القرآن ﴿مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۖ﴾ [فُصِّلَت:٤٦].

٥٦٢. تفيد أنَّ حدثاً صغيراً قد يفعله ويقوم به شخص ما في بقعة من الأرض قد يكون لها نتائج سلبيَّة وخطيرة؛ بل وهائلة الاتساع على كل الأرض؛ فيتضرَّر منها القريب والبعيد، لقوله تعالى: ﴿يَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ﴾ أي : أنَّ بغيهم شامل لجميع أقطار الأرض بالرُّغم من كونهم في رقعة صغيرة من الأرض، وفي هذا إشارة إلى ما يصطلح عليه علماء الفيزياء من فلسفة الفوضى، أو نظريَّة تأثير رفرفة الفراشة، ولعلَّ خير مثال حي على ذلك هو ما نعيشه الآن في ظل جائحة كورونا، حيث امتد هذا الوباء بسرعة هائلة في جميع أقطار الأرض بعد أن كان محصوراً في رقعة صغيرة من الأرض، وهنا تظهر للمتأمِّل والمتدبِّر دقَّة العبارة القرآنيَّة حينما وجَّه ﷻ النِّداء إلى كلِّ النَّاس ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ أي: أنَّ هذا البغي واقع عليكم وعلى أبناء جنسكم جميعاً لذا فالحذر الحذر، وخذوا على يد بعضكم.

٥٦٣. تفيد أنَّ أمد البغي وحبله قصير، وعلى تقدير انتفاع البعض به فهو عرض زائل، ثمَّ يبقى عاره وخزيه ووباله بعد الموت؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡۖ مَّتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾.

٥٦٤. تفيد اختصاص الرُّجوع لله ربِّ العالمين الدَّيَّان النَّاقد البصير مالك يوم الدين ومثله قوله تعال:﴿إِلَيۡنَا مَرۡجِعُكُمۡ﴾.

٥٦٥. تفيد بخس متاع الحياه الدُّنيا لقلَّته وحقارته وسرعة انقضائه ثمَّ يبقى وزره وحسابه يوم القيامة ولذلك يقول الحقُّ سبحانه ﴿قُلۡ مَتَٰعُ ٱلدُّنۡيَا قَلِيلٞ﴾ [النساء:٧٧]

٥٦٦. فيها أنَّ مشركي زماننا أغلظ شركاً من الأوَّلين لأنَّ الأوَّلين يشركون في الرَّخاء ويخلصون في الشَّدَّة ومشركو زماننا يشركون في الرَّخاء والشَّدَّة..

٥٦٧. فيها أنَّ الذي ينجي من الكربات والشَّدائد هو الله ﷻ وحده فلتتعلَّق به القلوب ولتتوجَّه إليه بالدُّعاء والإخلاص؛ ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ [النمل:٦٢]

٥٦٨. تفيد التَّزهيد في الدُّنيا ومتاعها والعاقل لا يبيع دينه بعرض من الدُّنيا زائل.

٥٦٩. تفيد عدل الله ﷻ عن الظُّلم أو الهضم لأفعال العباد، ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

٥٧٠. تفيد سعة رحمة الله تعالى بالخلق فقد نجَّاهم وهو يعلم شركهم وكفرهم وما سوف يفعلونه بعد ذلك.

٥٧١. تفيد الحذر فيما يفعله العبد لأنَّ الله مطَّلع عليه وسوف يخبره به.

٥٧٢. تفيد كمال قدرته حيث مرجع الخلق جميعاً إليه وحسابهم بين يديه.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس:٢٤]

٥٧٣. وتفيد دقَّة المناسبة أيضا لما قبلها: فبعد أن ذكر الله ﷻ بغي النَّاس على أنفسهم بسبب متاع الحياة الدُّنيا، ضرب مثلاً عجيباً غريباً لهذه الحياة يذكِّر من يبغي فيها على سرعة زوالها وانقضائها، ويصرف العاقل عن الغرور بها، ويهديه إلى القصد والاعتدال فيها، واجتناب التَّوسُّل إليها بالمكر والبغي والظُّلم، وحبّ العلوِّ والفساد في الأرض، وأنَّها بحال ما تعز وتسر، تضمحل ويؤول أمرها إلى الفناء.

٥٧٤. وفيها: أنَّ ضرب المثل من أساليب القرآن البديعة.

٥٧٥. وفيها: تشبيه الحياة الدُّنيا بماء المطر من السَّماء للدّلالة على أنَّ البشر ليس لهم تأثير في زيادته ونقصانه؛ على غرار ماء الأرض قد يكون للإنسان دخل فيه.

٥٧٦. وفيها: بيان عجز الإنسان ﴿وَظَنَّ أَهْلُهَآ﴾ وبيان قدرة الله.

٥٧٧. وفيها: الأمر في الآية الكريمة: ﴿أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا﴾ أمر كوني.

٥٧٨. تفيد عظمة خلق الله تعالى وعظمة آياته الدَّالة على كمال قدرته وتدبيره وعظيم حكمته.

٥٧٩. تفيد علوِّ الله تعالى علوّاً يليق بجلاله وعظيم سلطانه، لقوله تعالى: ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾.

٥٨٠. فيها أنَّ السَّماء تأتي بمعنى العلوّ؛ لأنَّ هذا الماء ينزل من السَّحاب. وهذا يبيّن معنى قوله: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك:١٦]، أي من في العلوِّ على أحد التفسيرين للآية، والثَّاني أنَّ

(في) بمعنى (على) كقوله: ﴿فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا﴾ [الملك:١٥] أي على مناكبها، فالله ﷻ فوق السَّماوات مستو على عرشه بائن من خلقه وسع كرسيُّه السَّماوات والأرض.

٥٨١. تفيد قمَّة البلاغة القرآنيَّة وروعة الفصاحة البيانيَّة، حيث شبَّه ﷻ هذه الدُّنيا بالماء النَّازل من السَّماء؛ وذلك لأنَّ الماء لا يستقرُّ في موضع، كذلك الدُّنيا لا تبقى على واحد، ولأنَّ الماء لا يستقيم على حالة واحدة كذلك الدُّنيا، ولأنَّ الماء لا يبقى ويذهب، كذلك الدُّنيا تفنى، ولأنَّ الماء لا يقدر أحد أن يدخله ولا يبتل كذلك الدُّنيا لا يسلم أحد دخلها من فتنتها وآفتها، ولأنَّ الماء إذا كان بقدر كان نافعاً منبتاً، وإذا جاوز المقدار كان ضارّاً مهلكاً، وكذلك الدُّنيا الكفاف منها ينفع وفضولها يضُرُّ.

٥٨٢. تفيد دقَّة تشبيه الحياة الدُّنيا بالماء النَّازل من السَّماء، دون ماء الأرض، وذلك لأنَّ ماء السَّماء – وهو المطر – لا تأثير لكسب العبد فيه، بزيادة أو نقص، ولأنَّه أيضا يستوي فيه جميع الخلائق، بخلاف ماء الأرض فيهما، فكان تشبيه الحياة به أدقّ وأنسب..

٥٨٣. تفيد بيان قدرة الله تعالى حيث جعل هذا الماء غذاء لنبات الأرض فيجري في عروقه ويخالطه تمام المخالطة، لقوله تعالى: ﴿فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ﴾.

٥٨٤. تفيد بيان الأثر الجميل والرائع الذي يتركه الماء النَّازل من السَّماء على الأرض، حيث يجعل أوراق الأشجار والنَّباتات تختلط بعضها ببعض، من كلِّ جنس ونوع، وكأنَّها وشي من أحسن الوشيَّات، ممَّا يضفي البهجة والسُّرور على النُّفوس؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: فاختلط بسبب الماء نبات الأرض حتى التفَّ بعضه ببعض مشكِّلة صورة رائعة من جمال الطَّبيعة الخلَّابة..

٥٨٥. تفيد بيان إدراك الأرض لما خلقها الله تعالى من أجله من نفع البشر والكائنات الحيَّة، حيث إنَّها تأخذ –بأمر ربها– الماء النَّازل وتبلعه لتخرج للكائنات الحيَّة الزروع والنَّباتات متزيِّنة ومتزخرفة بأشكال وأنواع عديدة منها وذلك بالرغم من أحاديَّة مصدر الماء، لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا﴾.

٥٨٦. تفيد ضرورة وجود النَّباتات الأرضيَّة من الثِّمار والحبوب والتي هي أعظم مصدر لعيش وبقاء الكائنات الحيَّة على وجه الأرض؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ مِمَّا يَأۡكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلۡأَنۡعَٰمُ﴾.

٥٨٧. تفيد تسخير الله لهذا الكون وتذليله لبني الإنسان وما في ذلك من منافع جمَّة.

٥٨٨. تفيد إنعام الله وتدبيره لأقوات الخلائق رزقاً من عنده تعالى وتبارك ﴿مِمَّا يَأۡكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلۡأَنۡعَٰمُ﴾.

٥٨٩. تفيد خطورة الحياة الدُّنيا حيث إنَّها تتزخرف وتتزيَّن بما يأخذ بلبِّ وعقول أهلها، ثمَّ تغرق بعد ذلك من استشرف لها بشهواتها وملذَّاتها وتنسيه المقصد الذي خلق من أجله.

٥٩٠. تفيد: أنَّ كلَّ ما اكتمل في هذه الحياة الدُّنيا فإلى نقصان وزوال.

ولله درء القائل:

لكل شيء إذا ما تمَّ نقصان فلا يغرّ بطيب العيش إنسان

٥٩١. الحياة الدُّنيا إذا ازدهرت لابد أن يأتي ما ينقِّصها ويكدِّرها.

٥٩٢. تفيد أنَّه متى ما ظنَّ العبد أنَّه قادر بنفسه ابتلاه الله بما يثبت عجزه وضعفه.

قال أبو الطيب:

إذا كان عون الله للمرء شاملاً تفتح له من كل أمر مراده

وإن لم يكن عون من الله للفتى فأول ما يجني عليه اجتهاده

٥٩٣. تفيد أنَّ الابتلاء يأتي بغتة.

٥٩٤. تفيد أنَّ الابتلاء ليس شكلاً محدَّداً إنَّما يوقف على أمره تعالى.

٥٩٥. تفيد وجوب التفكُّر في الآيات الشرعيَّة والكونيَّة.

٥٩٦. تفيد أنَّ من أفضل الطُّرق وأنجع الوسائل: التَّعليم والتَّوضيح بضرب الأمثلة.

٥٩٧. عقاب الله يأتي بعد تمكين وغرور، حتى يكون السُّقوط من علوٍّ والعقاب أوقع.

٥٩٨. تفيد أنَّ الدُّنيا مراحل بحيث نلاحظ أنَّ الله لم يخرج بذلك المطر نباتاً مباشرة هكذا، وإنَّما تكوَّن الغيث ثمَّ نزل الماء من السَّماء ثمَّ اختلط بالأرض ثمَّ بقي مدة ثم أخرجت الأرض نباتها، ففي ذلك من تعاقب المراحل المختلفة.

٥٩٩. تفيد أنَّ الله تعالى وحده هو الذي ينزِّل الغيث، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾ [لقمان:٣٤]..

٦٠٠. تفيد ضعف الإنسان وجهله وغروره ولهذا سرعان ما ينخدع بما يرى ﴿وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ﴾.

٦٠١. تفيد أنَّ القادر على تصريف شؤون الكون هو الله تعالى وحده..

٦٠٢. تفيد شدَّة أخذه جلَّ وعلا للقرى والمدن ﴿فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ﴾..

٦٠٣. تفيد أنَّ من تفكَّر في آيات الله هدته إلى الصِّراط المستقيم.

٦٠٤. تفيد الآية الكريمة أنَّ ما في الدنيا من الزخارف حقير ولا يعدل شيئا بما عند الله.

قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [يونس:٢٥]

٦٠٥. فيها مناسبة لما قبلها؛ فلما كانت جملة ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ [يونس:٢٤] تذييلاً وكان شأن التَّذييل أن يكون كاملاً جامعاً مستقلاً جعلت الجملة المعطوفة عليها مثلها في الاستقلال فعُدل فيها عن الإضمار إلى الإظهار إذْ وضع قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ﴾ موضع ندعو لأنَّ الإضمار في الجملة يجعلها محتاجة إلى الجملة التي فيها المعاد [١] .

٦٠٦. فيها أنَّ السَّلام الحقيقي إنَّما هو في جنَّات الخلد أمَّا الدُّنيا فليست دار سلام مهما تزيَّنت لأصحابها بل هي دار غرور لا تسلم من منغِّصات.

٦٠٧. أي ترغيب للنَّاس في الجنَّة دار السَّلام، والله تعالى بذاته العلية من يتولَّى الدَّعوة دون أن يأمر نبيَّه بالدَّعوة إليها هنا، وليس فوق هذا ترغيب وبعث للهمم نحوها.. أنالنا الله وإياكم سكناها ووفَّقنا للعمل الصَّالح الذي يبلِّغها برحمة الله وتوفيقه.

٦٠٨. وفيها أنَّ الهداية منحة ربانيَّة.

---

(١) التحرير والتنوير ١١/١٤٥.

٦٠٩. تفيد "أل" في ﴿ٱلسَّلَٰمِ﴾ للاستغراق ففيها كل أنواع السَّلام بكلِّ معانيه وأحواله. بخلاف أعظم سلام الدنيا فلو حصل للبعض في نفس وصحة ومال وولد فإنَّه لا يخلو من أذى ومنغِّصات ليس أقلَّها ما يخرج منه يوميًّا.

٦١٠. فيها أنَّ دعوة الله تعالى إلى دار السَّلام مستمرَّة ولذلك عبَّر بالمضارع في قوله ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ﴾ وهذ يدلُّ على واسع رحمته للخلق.

٦١١. فيها لطف الله الكريم المنَّان وجميل إحسانه وعظيم ودِّه وجزيل فضله حيث يدعو سبحانه الى جنَّته دار السَّلام.

٦١٢. الاستقامة تورث السَّلامة والإسلام عاقبته دار السَّلام.

٦١٣. فيها الحثُّ والتَّرغيب وتقوية الهمَّه وشد العزيمة للتَّشمير إلى العمل والمسابقة إلى جنَّة الله ﷻ وطلب رضوانه.

٦١٤. تفيد: بضميمه ما قبلها من ذكر الدُّنيا الدَّنيئة شحذ الهمم وتوجيه الطَّاقات إلى معالي الأمور، لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ﴾ .

٦١٥. وفيها: فضل الله على عباده ورحمته بهم إذ يدعوهم إلى داره لإكرامهم والإنعام عليهم.

٦١٦. اشتملت الآية على شتَّى أنواع الهداية.

٦١٧. تضمَّنت الدَّعوة والتَّوجيه من الله للإنسان الذي كرَّمه الله وخلقه في أحسن تقويم وزوَّده بالحواس وركَّب فيه العقل.

٦١٨. اشتملت الآية من أنواع الهدايات هداية الدّلالة بإرسال الرُّسل وإنزال الكتب وهداية التوفيق إلى سلوك الجادة والصِّراط المستقيم هداية أخصّ وهي الهداية إلى جنَّته ودار كرامته وهي دار البقاء والسَّلامة من العيوب والآفات، ولكلِّ تلك المعاني السَّامية أمرنا الله أن نسأله الهداية في كلِّ ركعة في صلاتنا.

٦١٩. تفيد أنَّ الهداية من الله فليطلبها العبد منه على الدَّوام.

٦٢٠. تفيد أنَّ الطَّريق المستقيم هو أقصر الطُّرق وأيسرها للوصول إلى رضوان الله، وهذا يتماشى هندسيًّا فإنَّ الخطَّ المستقيم أقصر خطٍّ يربط بين نقطتين.

٦٢١. تفيد أنَّ الدَّاعية مأمور بتقديم الدَّعوة وأنَّ أمر الاستجابة والهداية بيد مقلِّب القلوب وحده.

٦٢٢. تفيد ضرورة الاستجابة فإنَّه إذا دعاك العبد وجبت الاستجابة فكيف إذا دعاك الخالق ﷻ.

٦٢٣. تفيد عظم مكانة دار السَّلام لأنَّ المكان المهيَّأ للدَّعوة يكون بقدر الدَّاعي فكيف بدارٍ دعا لها الرَّحمن الكريم.

٦٢٤. تفيد الآية الكريمة دفع العجب والغرور بالعمل لأنَّ ذلك من محض توفيق الله للعبد وهدايته ابتداء.

٦٢٥. تفيد أنَّ أعمَّ وأشمل وأغلى دعوة في هذا الكون هو دعوة الله تعالى عباده إلى دار السَّلام، وهذه الدَّار لا شك أنَّها مهيَّأة ومعدَّة من الله تعالى لعموم المدعوِّين.

٦٢٦. تفيد ضرورة أن يتولى صاحب الدَّار بنفسه دعوة المدعوِّين إلى داره، لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾.

٦٢٧. تفيد أنَّه لا يجوز للمدعو أن يلبِّي دعوة داع إلى دخول دار ليس هو صاحبها، وههنا قد يظهر للمتأمِّل والمتدبِّر سرُّ نسبة هذه الدَّار إلى اسمه (السَّلام)، حيث قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾، وكأنَّه ﷻ يقول: (والله يدعو إلى داره)..

٦٢٨. تفيد ضرورة أن يقوم الدَّاعي بوصف الطَّريق ووضع علامات يهتدي إليها من قام بدعوتهم.

٦٢٩. تفيد أنَّ دار السَّلام والتي دعا الباري ﷻ إليها حفَّت طرقها بالمكاره والمصاعب، ولهذا كان لا بد من هداية خاصَّة من صاحبها، وهو الله ﷻ؛ لهذا قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي﴾

٦٣٠. تقديم لفظ الجلالة العظيم يفيد عظمة الدَّعوة.

٦٣١. تفيد بدلالة السِّياق أنَّ الزُّهد في الدُّنيا وإدراك حقيقتها من أعظم الأسباب والتشمير للفوز بدار السَّلام..

٦٣٢. . تفيد أنَّ الاستجابة للحقِّ الذي جاء في الكتاب والسُّنَّة هي الاستجابة الحقيقيَّة لدعوة الله تعالى إلى دار السَّلام.

٦٣٣. في هذه الآية الكريمة الأمر بالتَّمسُّك بكتاب الله ﷻ وسنَّة رسوله ﷺ، لأنَّ الله تعالى دعانا إلى دار السَّلام، وتمَّ الوصول إلى دار الرّضوان إلَّا عبر طريقين لا ثالث لهما، الكتاب والسُّنَّة.

٦٣٤. تفيد بمفهوم المخالفة أنَّ الله تعالى رحيم بالخلق ولا يرضى لهم الكفر والدُّخول إلى جهنم، وأنَّه يدعو إلى الجنَّة والمغفرة كما في قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾[البقرة:٢٢١].

٦٣٥. يفيد وصفها بـ ﴿دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ على أنَّه ليس في الجنَّة موت لأنَّها دار السَّلامة من كلِّ الآفات والنَّقائص.

عقد ابن القيم في كافيته شيئاً من صفاتها فقال:

فاسمع إذاً أوصافها وصفاتها ... تيك المنازل ربَّة الإحسان

هي جنَّة طابت وطاب نعيمها ... فنعيمها باق وليس بفان

دار السَّلام وجنَّة المأوى ومن ... نزل عسكر الإيمان والقرآن

فالدَّار دار سلامة وخطابهم ... فيها سلام واسم ذي الغفران

٦٣٦. تفيد: أنَّه ممَّا يخفِّف على المؤمن وهو يجد اللأواء والوباء والابتلاء في الدُّنيا فيتذكَّر دعوة ربِّه لدار كلُّها سلام فيهون عليه كدر الدُّنيا ويعلِّق قلبه بدار السَّلام.

٦٣٧. تفيد الجملة من الآية الكريمة ﴿وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ التَّرغيب والتَّرهيب كأنَّه سبحانه يريد الخلق أن يرغبوا في هداية الله تعالى وأن يرهبوا في حالة عدم الحصول عليها.

٦٣٨. فيها أنَّ سبيل النَّجاة والهداية هو الصِّراط المستقيم، وأنَّ سبل الغواية والضَّلال هي السُّبل المعوجَّة قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾[الأنعام:١٥٣].

٦٣٩. فيها بيان أنَّ أفضل الدَّعوة ما كانت مستندها الوحيين الكتاب والسُّنَّة لأنَّ الدَّعوة بغيرهما لا توصل إلى دار السَّلام.

٦٤٠. تفيد أنَّ شرف الدَّعوة من شرف الدَّاعي وهو ربّ العالمين وإله الأوَّلين والآخرين.

٦٤١. تفيد شرف وعظم قدر المدعو إليه وهي الاستقامة على الصِّراط المستقيم.

٦٤٢. تفيد الهداية إلى سلوك طريق الدَّعوة إلى الله تخلُّقاً بمقتضى دعوه الله وتأسِّياً بالمرسلين واتباعاً لمنهج المصلحين.

٦٤٣. فيها: فضل الدَّاعي إلى الله وجنَّته لأنَّه اتصف بمقتضى فعل الله، قال ابن القيم رحمه الله: وأحبّ الخلق إليه من اتصف بمقتضيات صفاته" (١) .

٦٤٤. ربط صدر الآية بعجزها يفيد أنَّ الدَّعوة إلى الله ﷻ وإلى جنَّته دار السَّلام من أعظم وسائل الثَّبات على دين الله وصراطه المستقيم.

قال تعالى: ﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [يونس:٢٦]

٦٤٥. فيها من المناسبة: أنَّه لما دعَّا سبحانه عباده لدار السَّلام بيَّن هنا ما يحصل لهم من السَّعادة فيها. ثمَّ بيَّن لهم الآفات التي حماهم عنها.

٦٤٦. وفيها أيضا من المناسبة بين الإحسان والنَّظر إلى وجهه الكريم، فالإحسان في الدُّنيا المراقبة التَّامة كالرُّؤية له سبحانه، فكان الجزاء النَّظر له حقيقة في الآخرة.

٦٤٧. وفيها: الإيمان بالله سبب في دخول الجنَّة.

٦٤٨. وفيها: أنَّ أعظم نعيم في الجنَّة هو رؤية الله ﷻ.

٦٤٩. وفيها: أنَّ نعيم الجنَّة دائم لا ينقطع، قال تعالى: ﴿۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ﴾ [الرعد:٣٥]

٦٥٠. وفيها: اسم الإشارة ﴿أُولَٰئِكَ﴾ فيه تنبيه على أنَّهم استحقُّوا الخلود، فمن دلالاته: البعد، للإيذان بعلوّ درجتهم ومكانتهم.

٦٥١. فيها التنبيه إلى أنَّ الجزاء من جنس العمل فلمَّا أحسنوا العمل أكرمهم الله بالحسنى وهي الجنَّة وزادهم من الإكرام برؤية وجهه الكريم نسأل الله الكريم من فضله وقد قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن:٦٠].

٦٥٢. إحسان العمل يقتضي إخلاصه لله تعالى ومتابعة السُّنَّة النَّبويَّة.

---

(١) ينظر التقرير والتحبير (٨٣/٣)، البحر المحيط(٣٨٤/٦).

٦٥٣. وفيه التَّحذير من الرِّياء والبدعة وكلاهما محبط للعمل.

٦٥٤. فيها الرَّدُّ على المعتزلة والخوارج – ومنهم الإباضـــية – المنكرين لرؤية المؤمنين لربهم ﷻ في الجنَّة..

٦٥٥. تفيد الآية ترجيح لتفســـير الزِّيادة بالرُّؤية، فالنَّظر لوجه الله الكريم أكســـب وجوههم نضارة وبهاءً أبعد عنها القتر والذِّلة.

٦٥٦. يفيد تنكير كلمة ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ منحها شمولاً وســعة تشــمل كلَّ ما يتمنَّى المؤمن الزِّيادة منه في الجنَّة وفوق ذلك ممَّا أراده الله له.. قال الطبري: وعمَّ ربنا جلَّ ثناؤه الزِّيادات على الحسنى فلم يخصِّص منها شيئاً دون شيء، وغير مستنكر من فضل الله أن يجمع ذلك لهم، بل ذلك مجموع لهم إن شاء الله" (١).

٦٥٧. فيها أنَّ للطَّاعة وإحســـان العمل أثراً وحســـناً وجمالاً وبهاءً على الوجه وفي المقابل أثر المعصية على وجوه العصاة.

٦٥٨. يفيد خلوّ الفعل ﴿أَحْسَنُوا﴾ من القيد ليشـــمل إحســـان الإيمان والاعتقاد والنيَّات، وإحسان عمل الجوارح، وإحسان الأخلاق والتَّعامل وغير ذلك ممَّا يكون الإحسان فيه مطلباً شرعيَّاً.

٦٥٩. فيها أنَّ من كان له رعاية جمَّة في العناية بوجهه فيما يجمِّله ويحسِّنه وينضِّره في الحياة الدُّنيا – وكلّنا هو ذاك – فلتكن له رعاية فيما يبلِّغه ذلك وزيادة في الدَّار الآخرة.

٦٦٠. تفيد عظم كرم أكرم الأكرمين ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ أي لا يســـتحقُّونها بعملهم، بل بفضـــله ورحمته وعظم جوده وكرمه وشكره لأعمال العباد وهو أكرم الأكرمين.

٦٦١. تفيد كمال سعادة الجنَّة ونعيمها، وأن جمع الله لهم نعيم وسعادة ومتعة الظَّاهر والباطن ونفى عنهم إهانة الظَّاهر والباطن ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾ .

٦٦٢. تفيد أنَّ الوجه عضو من أهمَّ أعضاء جسم الإنسان التي تظهر انفعالاته النَّفسيَّة فهو أهمّ منطقة في جسم الإنسان يصدر علامات وتعبيرات غير لفظيَّة ويعكس ما يعتمل داخله من

(١) ينظر التقرير والتحبير (٨٣/٣)، البحر المحيط(٣٨٤/٦).

أحاسيس ويمكِّننا أن نعرف بوساطتها حالة الإنسان ومكنونات نفسه من حزن أو فرح أو خوف أو أمن.

٦٦٣. تفيد أنَّ الوجه موضع الإكرام من الإنسان؛ لذا فإنَّه وأعضاءه نفسيَّة، فمن كمال النَّعيم ظهور ذلك على الوجه ﴿تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾ [المطفِّفين:٢٤] وكمال الذُّل والتَّعاسة والهوان ظهور ذلك على الوجه.

٦٦٤. تفيد أنَّ ساحة القيامة هي ساحة ظهور الأسرار والخفايا وتجسيد أعمال الإنسان وأفكار الخلائق على الوجوه والتي تبدي الانفعالات النَّفسيَّة والأحاسيس التي يحسُّ بها النَّاس في ذلك اليوم الموعود، وقد انقسمت هذه العلامات على قسمين، قسم يحكي نعيم المؤمنين وفرحهم والرَّاحة النَّفسيَّة التي يشعرون بها يوم القيامة، وقسم يحكي شقاء الكافرين وحزنهم وعذابهم وتعبهم النَّفسي وقلقهم الذي يشعرون به يوم القيامة".

٦٦٥. تفيد براعة القرآن وقوَّة بيانه في عكس واقع القيامة وأحداثها وتقريب حال النَّاس وانفعالهم بالمشهد الرَّهيب من خلال سيماء الوجوه؛ وذلك لأنَّ اطلاع الإنسان على حقائق الأشياء في أكثر الأمر يحصل بالحسِّ، والإنسان اجتمع في وجهه أعضاء كثيرة كلّ واحد يدلُّ على أمر، فإذا رأى الإنسان وجه الإنسان حكم عليه بأحكام ما كان يحكم بها لولا رؤية وجهه، فكان أدلّ على حقيقة الإنسان وأحكامه من غيره.

٦٦٦. فيها حثّ على الإحسان بأنواعه لينال المحسن الحسنى وزيادة.

٦٦٧. فيها أنَّ من تمام نعيم أهل الجنَّة التَّكريم والاحتفاء بهم حيث نفى عنهم القتر والذِّلة.

٦٦٨. وصفهم بأنَّهم أصحاب الجنَّة يفيد ملازمتهم لها وبقاءهم فيها لا يبغون عنها حولاً، وهذا نعيم فوق نعيم وأكَّده بقوله: ﴿هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

٦٦٩. تفيد مع ما قبلها أنَّ الحياة الدُّنيا مزرعة للحياة الآخرة، وأنَّ الإحسان فيها جزاؤه الإحسان في الآخرة، لقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾.

٦٧٠. تفيد مع ما قبلها أنَّ أعظم الهداية أن يهدي الله عبده لأحسن الأخلاق والأعمال في الحياة الدُّنيا.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [يونس:٢٧]

٦٧١. فيها أنَّ من مآلات شؤم المعصية الذِّلة في الوجه – عياذاً بالله – وما أخطره من مآل، ومن مآلات شؤم المعاصي ظلمة بالوجه.

٦٧٢. الجزاء من جنس العمل؛ ولذلك كان الجزاء العادل أن يكون مآلهم الآخروي عذاب جهنم.

٦٧٣. فيها أنَّ السَّيِّئة تجرُّ إلى سيِّئة أخرى، وبالمقابل فإنَّ الحسنة تجرُّ الي حسنة أخرى. قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ [محمد:١٧].

٦٧٤. فيها الإشارة الى المقابلة بين السُّعداء في الآية السَّابقة والأشقياء في هذه الآية من حيث: العمل؛ ﴿أَحْسَنُوا۟﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟﴾ – المآل: ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ .. ﴿أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ – الجزاء: ﴿وَزِيَادَةٌ ۖ﴾ ... ﴿بِمِثْلِهَا﴾ – الأثر ﴿۞ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ﴾ ﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ﴾.

٦٧٥. في التَّعبير بـ﴿كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ تأكيد لمسؤولية العبد في كسب السَّيِّئات بإرادته وجنايته على نفسه وفي هذا ردٌّ على الجبرية.

٦٧٦. فيها بيان العدل الإلهي مع العصاة ﴿بِمِثْلِهَا﴾ فالواحدة بجزاء السَّيِّئة الواحدة إن لم يشملها العفو الإلهي بينما الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة وهذا قمَّة الفضل الإلهي.

٦٧٧. فيها أنَّ المعاصي والسَّيِّئات لها آثارها الباطنة على القلوب بالرَّان والخوف والهلع ﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ﴾ كما أنَّ لها آثارها الظَّاهرة على الوجوه بالظُّلمة والغشاوة.

٦٧٨. تفيد الآية أنَّ كلَّ من مات على الشِّرك والكفر بالله لا تنفعه شفاعة شافع لقوله تعالى: ﴿مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ﴾.

٦٧٩. تفيد إحصاء الله لأعمال العباد جميعها.

٦٨٠. فيها بيان شؤم المعصية وما تورثه من حسرة وندامة وما تؤول بصاحبها من خزي وخسران.

٦٨١. فيها بيان التَّفاوت بين من كسب الحسنات وبين من كسب السَّيِّئات فالفرق واسع والبون شاسع.

٦٨٢. فيها الحذر من كسب السَّيِّئات، ووجوب البعد عنها، وتخويف النَّفس بما تؤدي إليه وما تردي بعاملها.

٦٨٣. فيها بيان العدل الإلهي والفضل الكبير منه ﷻ في المجازاة بالسَّيِّئة بمثلها أمَّا الحسنة فيضاعفها أضعافاً كثيرة فله الحمد كما يحبّ ربّنا ويرضى ونسأله المزيد من فضله.

٦٨٤. فيها أنَّ الدُّنيا مزرعة الآخرة كما ذكر ابن رجب الحنبلي أنَّ الإنسان يزرع بقوله وعمله الحسنات والسَّيِّئات، ثمَّ يحصد يوم القيامة ما زرع، فمَن زرَع خيراً مِن قول أو عمل حصد الكرامةَ، ومَن زرع شرًّا من قول أو عمل حصد غداً النَّدامةَ" (١) .

٦٨٥. تفيد أنَّ الإصرار والتَّمادي على المعاصي والفسق ولاسيَّما الكبائر كالتَّكذيب والشِّرك والكفر بالله سببٌ لسوء الخاتمة؛ فالعبد يموت على ما عاش عليه، ويبعث على ما مات عليه قال تعالي ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [يونس:٣٣].

٦٨٦. تفيد أنَّ عذاب الآخرة يشمل الجانب المعنوي ﴿وَتَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ﴾ والجانب الحسي ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾ كما يشمل عذاب الباطن الذُّل والهوان والصَّغار ﴿مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۖ﴾ الظَّاهر ﴿كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًاۚ﴾.

٦٨٧. تفيد صيغة جمع ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ الدّلالة على كثرة ما عملوا منها ممَّا يدلُّ على خطورة السَّيِّئات على الإنسان وأنَّها تورده في نار جهنم والعياذ بالله.

٦٨٨. فيها: استمرار الذُّل والهوان في نار جهنم، ويدلُّ على ذلك الفعل المضارع في قوله: ﴿وَتَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ﴾ فلا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون.

٦٨٩. تنكير وتنوين ﴿ذِلَّةٞۖ﴾ يدلُّ على تهويل وتعظيم وكثرة ما هم فيه من ذلٍّ وهوان.

---

(١) جامع العلوم والحكم ١٤٧/٢.

٦٩٠. الإشارة إليهم بإشارة البعيد ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ يدلُّ على بعدهم في الشَّرِّ والعذاب والنَّكال.

٦٩١. وصفهم بأنَّهم أصحاب النَّار يفيد ملازمتهم لها وبقاءهم فيها كملازمة الصَّاحب لصاحبه.

٦٩٢. تفيد: ذكر قاعدة الفضل مع أهل الإحسان وقاعدة العدل مع أهل الإساءة في الآيتين إلى ضرورة العناية بالقواعد والأصول عموماً.

٦٩٣. تفيد مع ما قبلها أنَّ المؤمنين الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيِّئاً لهم عند الله تعالى يوم القيامة من يعصمهم من عذاب الله تعالى، وذلك بعد أن يأذن الله تعالى في شفاعة الشَّافعين، لقوله تعالى ههنا عن المسيئين: ﴿مَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾.

٦٩٤. يفيد التَّعبير بـ ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ﴾ دون (والذين أساءوا) كما عبَّر في الآية السَّابقة بقوله ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ﴾ ، وذلك للإشارة إلى أنَّ إساءتهم من فعلهم وسعيهم، وفي ذلك ردٌّ على الجبريَّة.

٦٩٥. تفيد تمكُّن السَّواد من وجوه الكفَّار، وذلك من خلال وصف الليل بالرَّغم من أنَّه زمن الإظلام أو الظُّلمة بـ ﴿مُظْلِمًا﴾ ، وذلك للإشارة إلى أنَّ المراد من هذا الليل هو الليل الشَّديد الظَّلام الذي تحتجب نجومه وتتمكَّن ظلمته، وقد جاء وصف وجوه الكفَّار بالسَّواد في آيات أخرى كما في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ [آل عمران:١٠٦].

٦٩٦. يفيد التَّعبير بغشيان الليل المظلم ههنا دون السَّواد للإشارة إلى أنَّهم مع هذا السَّواد الذي في وجوههم في خوف ورعب شديدين متلبسين بأنواع الهموم والمصائب، وكأنَّ حالهم في البؤس والشَّقاء يشبه ما قاله الشَّاعر الجاهلي واصفاً حياته الشَّقيَّة والبئيسة:

وليل كموج البحر أرخى سدوله ... عليَّ بأنواع الهموم ليبتلي

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلي ... بصبح وما الإصباح منك بأمثلِ

٦٩٧. تفيد خلود نار جهنم لأنَّ خلود أهلها يستلزم خلود النَّار.

٦٩٨. يفيد التَّعبير بالمقابلة ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ﴾ أنَّ الميزان عند الله هو (الطاعة/ المعصية) بغضِّ النَّظر عن جنسه أو قبيلته أو نسبه أو حسبه أو غير ذلك.

٦٩٩. تفيد الآية عظمة الله التي لا تدركها العقول البشرية إذ أنَّ السَّيِّئات كثيرة: من كفر وكبر وحسد وصد عن سبيل الله وأذى لأوليائه ... إلى غير ذلك من المعاصي القلبية والتي بالجوارح، فتقدير كلُّ سيِّئة بميزان دقيق لا يزيد ولا ينقص مثقال ذرَّة أمرٌ عظيم، لقوله تعالى: ﴿بِمِثْلِهَا﴾.

قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ ۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ۖ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾ [يونس:٢٨]

٧٠٠. تفيد دقَّة التَّناسب وروعة التَّناسق مع ما قبلها فبعد أن ذكرت الآية السَّابقة أنَّ أصحاب النَّار ليس لهم من الله من عاصم ولا شافع، وكان يتبادر إلى الذهن هذا التساؤل: كيف لا يكون لهم عاصم وشافع لهم من عذاب الله تعالى وهم الذين كانوا يقولون عن آلهتهم: ﴿وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ [يونس:١٨]، فجاءت هذه الآية لتجيب عن هذا التساؤل وتبيِّن أنَّ معبوداتهم سيتبرأون منهم ومن عبادتهم لهم، فضلاً عن أن يكونوا شفعاء لهم عند الله تعالى..

٧٠١. تفيد انقلاب المحبَّة والولاية التي كانت من المشركين لمعبوداتهم في الدُّنيا عداوة وبغضاء يوم القيامة.

٧٠٢. تفيد إثبات الحشر وأنَّه شامل لجميع الخلق ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾.

٧٠٣. فيها بيان بطلان الشِّرك والمعبودات من دون الله، بدليل تبرؤ المعبودين من العابدين في ساعة هم أحوج ما يكونون لشفاعتهم والانتصار لهم والدِّفاع عنهم.

٧٠٤. فيها تقطُّع الأسباب بين المشركين وبين معبوديهم حيث ظهر الحقُّ وبطل ما كانوا يصنعون.

٧٠٥. فيها تبكيتٌ عظيم للمشركين الذين عبدوا مع الله غيره ممَّن لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنهم شيئا" (١).

٧٠٦. تفيد ضعف آلهة المشركين وأنَّهم في يوم الحشر يأتمرون بأمر الله تعالى وينتظرون فصل القضاء بينهم وبين من عبدوهم من دون الله تعالى؛ ﴿مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ﴾.

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/٢٦٥.

٧٠٧. تفيد تعظيم الله ﷻ ، ودل على ذلك الجمع للتعظيم في قوله: ﴿نَحْشُرُهُمْ﴾، ﴿فَزَيَّلْنَا﴾، وكذلك ما في الآية من دلالة على العظمة والكبرياء والقدرة في جمع الخلائق وحشرهم أجمعين.

٧٠٨. فيها أنَّ الحشـــر للجميع لا يتخلَّف أحد؛ لقوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ﴾ [المرسلات:٣٨].

٧٠٩. فيها إثبات القول لله ﷻ.

٧١٠. تفيد مع ما قبلها أنَّ فضيحة المشركين مع معبوداتهم ستكون على مرأى ومسمع من المؤمنين وعلى رؤوس الأشهاد لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ جميع الخلق مؤمنهم وكافرهم، وفي ذلك زيادة في النِّعمة على المؤمنين وتقوية في النّكاية بالمشركين، وإظهار لغبنهم أمام الخلق؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾ [التغابن:٩].

٧١١. تفيد تعدُّد المواقف في يوم الحشـــر، فمرَّة يجمع الكفَّار مع آلهتهم كما في هذه الآية؛ ومرَّة يكونون فرادى من غير آلهتهم؛ ويقال لهم كما جاء في آية أخرى: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ﴾ [الأنعام:٩٤].

٧١٢. تفيد تهكُّماً بالمشـــركين ومعبوداتهم، حيث إنَّها نســـبت إليهم في يوم الحشـــر ﴿أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ﴾ وذلك لأنَّهم في الدُّنيا كانوا يجعلونها شركاء لله..

٧١٣. تفيد بيان قدرة الله تعالى حيث إنَّه ﷻ يخلق في كلِّ ما عبد من دون الله تعالى صـــفة الحياة والعقل والنُّطق؛ حتى يكون بإمكانهم الرَّدُّ على من عبدوهم من دون الله تعالى والتبرؤ منهم؛ لقوله تعالى: ﴿مَا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾ .

٧١٤. تفيد أنَّ المشـــركين كانوا يعبدون أهواءهم في الحقيقة لقول شـــركائهم: ﴿مَا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾.

٧١٥. تفيد أنَّ المشركين كانوا يعبدون ذواتاً موصوفة بصفة الشَّفاعة والتَّخليص من عذاب الله تعالى كما كانوا يقولون: ﴿هَٰؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾، ولكن لما كانت ذوات الشُّـــركاء خالية عن تلك الصِّـفات صـدق أن يقولوا لعابديهم: ﴿مَا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾. وحاصـل المعنى: إنَّكم عبدتم من زعمتم أنَّه يقدر على الشَّـفاعة لكم وتخليصـكم من العذاب، وأنَّه موصـوف بكيت وكيت

فاطلبوه، فإنَّا لسنا كذلك، والمراد من ذلك؛ قطع عرى أطماعهم وإيقاعهم في اليأس الكلّي من حصول ما كانوا يرجونه ويعتقدونه فيهم..

قال تعالى: ﴿فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ إِن كُنَّا عَنۡ عِبَادَتِكُمۡ لَغَٰفِلِينَ﴾ [يونس:٢٩].

٧١٦. تفيد: عدل الله المطلق حتَّى مع الكافرين فيقرِّرهم بشركهم قبل دار جزائهم – والعياذ بالله –.

٧١٧. فيها إشارة إلى مشروعيَّة الإشهاد في التَّعاملات، ومن تحمَّل الشَّهادة فعليه أداؤها وعدم كتمانها.

٧١٨. وفيها براءة الأنبياء والصَّالحين المعبودين من دون الله من الدَّعوة أو الرِّضا بعبادة المشركين إيَّاهم من دون الله فإنَّه عدل تقشعرُّ منه الأبدان وترتجف عند تلاوة هذه الآية العظيمة المباركة.

٧١٩. فيها أنَّه ليس كلُّ معبود من دون الله راضٍ بذلك، ولذا فهؤلاء مخصوصون من قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ لَوۡ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةٗ مَّا وَرَدُوهَاۖ وَكُلّٞ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٩٩﴾ [الأنبياء:٩٩، ١٠٠].

٧٢٠. فيها أعظم وأكبر شهادة من أعظم وأجلّ شهيد ﷻ، لقوله: ﴿قُلۡ أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ قُلِ ٱللَّهُۖ شَهِيدُۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ﴾ [الأنعام:١٩].

٧٢١. تفيد بضميمة الآيات قبلها أنَّ الغيب كلَّه لله، ومنه ما نقل وفصَّل الرَّبُّ ﷻ لنا في القرآن عن أحداث يوم القيامة.

٧٢٢. تفيد فقه اختيار الشَّهيد وكفاءته ومقبوليَّته لدى أطراف النِّزاع.

٧٢٣. فيها أنَّ من العدل أن لا يؤخذ أحد بجريرة غيره إن لم يكن يحط علمًا بذلك، ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ﴾ [الأنعام:١٦٤].

٧٢٤. تفيد أنَّ الله تعالى أنزل القرآن لنتعرَّف على يوم القيامة، لأنَّ هذا اليوم هو أهمّ يوم في حياة كلّ واحد منَّا. ويعضّد ذلك أنَّ الله قد ختم كتابه بآية تأمرنا أن نتَّقي الله ﷻ وأن نعمل لذلك اليوم، وهي آخر آية نزلت من القرآن: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ٢٨١﴾ [البقرة:٢٨١].

٧٢٥. يفيد: تقديم النَّفس أنَّ من أمر بأمر أو احتكم إلى حكم فمن العدل والصِّدق أن يبدأ بنفسه أوَّلًا قبل الغير، يقول ﷻ: ﴿أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ﴾ [البقرة:٤٤].

٧٢٦. تفيد إثبات صفات كمال لله تعالى إذ لا يشهد على أفعالهم إلَّا من كان عليماً سميعاً بصيراً إلى غير ذلك حيث أنَّها شهادة صدق ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا﴾ [النساء:٨٧].

قال تعالى: ﴿هُنَالِكَ تَبۡلُواْ كُلُّ نَفۡسٖ مَّآ أَسۡلَفَتۡۚ وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۖ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ [يونس:٣٠]

٧٢٧. تفيد: أنَّ في يوم القيامة تتجلَّى الحقائق وتكشف الصَّحائف وتسقط الدَّعاوى الباطلة.

٧٢٨. تفيد: أنَّ في ذلك اليوم تتبع كلُّ نفس ما كانت تعبده من دون الله تعالى حتَّى يدخلوهم النَّار -والعياذ بالله-؛ لقوله تعالى في قراءة أخرى: (هنالك تتلو كل نفس) أي تتبع؛ ويدلُّ على ذلك قوله تعالى: ﴿يَقۡدُمُ قَوۡمَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَۖ﴾ [هود:٩٨]، وروى مسلم في صحيحه عن النَّبي ﷺ: (إذا كان يوم القيامة أذَّن مؤذِّن: لتتبع كلّ أمَّة ما كانت تعبد، فلا يبقى أحد كان يعبد غير الله سبحانه من الأصنام والأنصاب إلَّا يتساقطون في النَّار" [(١)].

٧٢٩. تفيد: قلَّة وسفه عقول المشركين الذين يعبدون من هو غافل عن عبادتهم، كما قال ﷻ عنهم: ﴿إِن كُنَّا عَنۡ عِبَادَتِكُمۡ لَغَٰفِلِينَ﴾ [يونس:٢٩].

٧٣٠. فيها أنَّ يوم القيامة هو موقف الحساب والجزاء حيث تعلم كلُّ نفس ما أسلفت من عملٍ خيراً كان أو شرَّاً قال سبحانه: ﴿يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٖ مُّحۡضَرٗا وَمَا عَمِلَتۡ مِن سُوٓءٖ تَوَدُّ لَوۡ أَنَّ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَهُۥٓ أَمَدَۢا بَعِيدٗاۗ﴾ [آل عمران:٣٠].

٧٣١. فيها أنَّ ذلك اليوم الحكم فيه لله ﷻ فهو المهيمن على الموقف وهو الذي يتولَّى ويملك الأمر ﷻ وهو الحكم العدل.

٧٣٢. تفيد: أنَّه في يوم القيامة تعطى كلُّ نفس صحيفة أعمالها لتتلوها وتقرأها وتطَّلع على ما عملته من خيرٍ أو شرٍّ؛ لقوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ تَبۡلُواْ كُلُّ نَفۡسٖ مَّآ أَسۡلَفَتۡۚ﴾ أي: تقرأ كلُّ نفس ما

(١) أخرجه البخاري٦/٤٤، ومسلم ١/١٦٧.

أســـلفت من أعمـال في الـدُّنيـا، نظيرهـا قولـه تعـالى: ﴿ ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا﴾ [الإسراء:١٤].

٧٣٣. تفيد: إثبات الولاية لله ﷻ؛ أي: أنَّه ﷻ يتولَّى عباده؛ وولايته نوعان؛ الأولى: الولاية العامَّة؛ بمعنى أن يتولى شـؤون عباده؛ وهذه الولاية تشـمل المؤمنين والكفَّار، ولهذا قال تعالى في هذه الآية: ﴿وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ﴾ يعني الكافرين؛ والنّوع الثَّاني: ولاية خاصَّـــة بالمؤمنين، كقوله تعـالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ﴾ [محمد:١١]، وكما في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البقرة:٢٥٧]؛ ومقتضى النَّوع الأول أنَّ لله تعالى كمال السُّلطان، والتَّدبير في جميع خلقه؛ ومقتضى النوَّع الثَّاني: الرَّأفة، والرَّحمة، والتَّوفيق.

٧٣٤. تفيد: أنَّ التَّفريق بين الولاية العامَّة التي أثبتها الله لجميع خلقه، والولاية الخاصَّـــة للمؤمنين، يزول به الإشكال في إثبات الولاية للمشركين، ونفيها عنهم بما ذكره الشيخ الأمين في جزء دفع إيهام الاضـطراب عن آي الكتاب، حيث قال: والجواب عن هذا أنَّ معنى كونه مولى الكافرين أنَّه مالكهم المتصرِّف فيهم بما شاء، ومعنى كونه مولى المؤمنين دون الكافرين، أي ولاية المحبَّة والتوفيق والنَّصر، والعلم عند الله تعالى(١).

٧٣٥. تفيد: إثبات الرُّجوع إلى الله يوم القيامة والوقوف بين يديه للحســـاب والجزاء؛ لقوله تعالى: ﴿وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ﴾.

٧٣٦. تفيد: عظمة الله تعالى وكمال سلطانه، فهو ﷻ وحده الذي له الحكم المطلق والسُّلطة العليا في الدُّنيا والآخرة.

٧٣٧. تفيد: أنَّ الكفَّار سـوف يعلمون يوم الحسـاب والجزاء أنَّ الله ﷻ هو الحقُّ، وأنَّ وعده للمؤمنين ووعيده للكـافرين هو الحقُّ والعدل؛ ولهذا قال تعالى ههنا: ﴿مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ﴾، وقال تعالى في آية أخرى: ﴿يَوۡمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ وَيَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ ٱلۡمُبِينُ﴾ [النور:٢٥].

٧٣٨. تفيد: أنَّ كلَّ ما يصـدر عن الله تعالى في يوم القيامة من الفصـل والقضـاء بين مخلوقاته فهو الحقُّ والعدل.

---

(١) ينظر: دفع إيهام الاضطراب عن آي الكتاب ٨٩/١.

٧٣٩. تفيد: أنَّ الحقَّ هو الله تعالى فما وعد به حقّ وما قاله حقّ، ولا يكون الجزاء إلَّا بالحقِّ.

٧٤٠. تفيد: مع ما قبلها أنَّ الله ﷻ هو الحقُّ وأنَّ كلَّ معبود دونه باطل..

٧٤١. تفيد: أنَّ الحقَّ اسم من أسماء الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ﴾ ؛ وقال تعالى في آية أخرى: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۗ﴾ [طه:١١٤]

٧٤٢. تفيد: أهميَّة الاستعداد للقاء الله تعالى والوقوف بين يديه للعرض والجزاء.

٧٤٣. وفي هذا إشارة إلى أنَّ كلَّ ما يعبدونه من دون الله تعالى في النَّار جميعاً؛ إلَّا من سبقت لهم من الله الحسنى من الأنبياء والرُّسل وعباد الله الصَّالحين من الملائكة والبشر؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء:٩٨] ثم قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ﴾ [الأنبياء:١٠١]، فيدخل في هذا الوعيد من عُبِد من دون الله وهو راضٍ أو دعا النَّاس لعبادته.

٧٤٤. تفيد: أنَّ من أصعب المواقف على النَّفس فقدان النَّصير والمولى ساعة الحاجة الشَّديدة إليه، وأن تجد من كنت تناصبه العداء وتكفر به وبآياته هو (سيِّد) الموقف وصاحب الملك والحساب والجزاء.

٧٤٥. تفيد: عظمة يوم القيامة والحساب وأنت تقرأ في لحظة واحدة كلّ ما أسلفته في حياتك لتلقى الجزاء.

٧٤٦. تفيد: عظمة الله تعالى حيث مردّ جميع الخلق إليه وهو وحده العليم بهم القادر على جزائهم..

٧٤٧. تفيد: أنَّ المشركين سوف يعلمون يوم القيامة أنَّه لا مفرّ لهم من عذاب الله تعالى، وأنَّه ليس لهم من الله من عاصم؛ لقوله تعالى: ﴿وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾. وقال تعالى في آية أخرى: ﴿وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَدۡعُونَ مِن قَبۡلُۖ وَظَنُّواْ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٖ﴾ [فُصِّلَت:٤٨].

٧٤٨. تفيد: أنَّ المشركين كانوا يصرُّون على افترائهم وشركهم بغير بيِّنة؛ دلَّ على ذلك قوله: ﴿كَانُواْ﴾ والفعل المضارع ﴿يَفۡتَرُونَ﴾.

٧٤٩. فيها زيف وبطلان عبادة المشركين حيث لا تغني عنهم في موقف القيامة شيئاً.

٧٥٠. تفيد: أنَّ كلَّ عبادة لغير الله تعالى فهي ضلال وضياع وهلاك على من يعبده؛ ولن يجدي شيئاً عنه؛ لقوله تعالى: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ .

٧٥١. تفيد: أنَّ من أعظم الكذب وأشنع الافتراء أن يزعم العبد أنَّ عبادته لغير الله تعالى حقّ؛ وأنَّ تلك المعبودات تقرّبه إلى الله تعالى وتشفع له عنده؛ لقوله تعالى: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي: غاب عنهم واضمحلَّ ما كانوا يفترونه من أنَّ شركاءهم تشفع لهم وتقرّبهم إلى الله تعالى..

قال تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس:٣١]

٧٥٢. تفيد: دقَّة التَّناسب وروعة التَّناسق مع ما قبلها فبعد أن ذكرت الآيات السَّابقة الكفَّار وحالهم في الآخرة مع شركائهم الذين أنكروا عبادتهم لهم؛ ذكرت هذه الآية أنَّ إقرار هؤلاء الكفَّار بربوبيَّة الله تعالى في الدُّنيا لم تنفعهم في الآخرة لإشراكهم غيره معه في العبادة؛ ممَّا يدلُّ دلالة واضحة على فساد مذهبهم.

٧٥٣. تفيد: عناية الله برسله وتلقينهم حجَّتهم وتثبيتهم، والأمر يشمل من خلفهم من الدُّعاة ممن سلك مسلكهم ودعا بدعوتهم، لقوله تعالى: ﴿قُلْ﴾.

٧٥٤. تفيد: وجوب مناظرة المشركين ومحاجَّتهم؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم﴾ والأصل في الأمر أنَّه للوجوب.

٧٥٥. تفيد: أنَّه ينبغي أن يقدّم الاستدلال بالذي لا نزاع فيه، ويتفق عليه الخصم؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ وذلك لأنَّ الرِّزق من الله تعالى أمر معلوم، ولا يستطيع أحد من البشر أن يدَّعي أنَّه يستطيع أن ينزل المطر من السَّماء أو ينبت النَّبات من الأرض.

٧٥٦. فيها أنَّ المعبود هو من يخلق ويرزق وليس غيره؛ قال تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ﴾ [العنكبوت:١٧].

٧٥٧. تفيد: مع ما قبلها أنَّ هذه الحياة الدُّنيا لا قيمة لها عند الله تعالى؛ ولهذا فإنَّه يرزق الكافر بأفضل وأجود أنواع الرِّزق؛ بخلاف الدَّار الآخرة؛ فإنَّ الله يعطي الدُّنيا من يحبُّ ومن لا يحبُّ، فليس العطاء دليلاً للرضا، بل هو تفضُّل من الكريم جلَّ وعلا، وفي هذا المعنى قال عليه

الصلاة والسلام: "لَوْ كَانَت الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّه جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْها شَرْبَةَ مَاءٍ" (١).

قال العلَّامة ابن القيِّم في نونيَّته:

لو ساوت الدنيا جناح بعوضة ... لم يسق منها الرب ذا الكفران

لكنها والله أحقر عنده ... ذا الجناح القاصر الطيران (٢)

وقال في موضع آخر:

هذا ولو عدلت جناح بعوضة ... عند الإله الحق في الميزان

لم يسق منها كافرا من شربة ... ماء وكان الحق بالحرمان (٣)

٧٥٨. تفيد: بيان رحمة الله تعالى الواسعة حيث إنَّه يرزق الكافرين في هذه الحياة الدُّنيا بالرُّغم من كفرهم وجحودهم..

٧٥٩. تفيد: بضميمة ما قبلها أنَّ إقرار المشركين بربوبيَّة الله وتدبر آياته وآثاره المبثوثة في الكون إنَّما توصل إلى تقرير حقيقة واضحة ألا وهي استحقاقه للعبوديَّة وحده لا شريك له، فالإيمان بقدرة الله على الإحياء والإماتة وتوزيع الأرزاق لا ينفع لمن أشرك معه غيره.

٧٦٠. تفيد: أنَّ المشركين يعرفون الله بل ويقرُّون أنَّه الخالق الرَّازق المدبِّر لكن هذا لا ينفعهم لأنَّهم أشركوا به في العبادة وهذا يدلُّ على تناقض المشركين وسخف عقولهم، لأنَّهم يعترفون بجميع ذلك، وأنَّ الله لا شريك له في شيء من المذكورات. فـ ﴿قُلْ﴾ لهم إلزامًا بالحجَّة ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ فإنَّ من القواعد المقرّرة أنَّ توحيد الرُّبوبيَّة يستلزم توحيد الإلهية.

٧٦١. خصَّ السَّمع والبصر بالذِّكر من باب التنبيه على المفضول بالفاضل، ولكمال شرفهما ونفعهما.

---

(١) أخرجه الترمذي ٤/٥٦٠، وصححه الألباني.

(٢) نونية ابن القيم ١/٣٠٨.

(٣) نفس المصدر ١/٣٥٩.

٧٦٢. تفيد: أنَّ قوام روح الإنســـان فيما أعطاه الله تعالى من الحواس التي يدرك بها دلائل وحدانية الله تعالى، ورؤية الأدلَّة الكونيَّة وسماع الأدلَّة الشَّـــرعيَّة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أَمَّن يَمۡلِكُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ﴾.

٧٦٣. فيها أنَّ إخراج الحي من الميِّت والميِّت من الحي من أظهر وأعظم الدَّلائل على قدرة الله ﷻ ووجوب إفراده بالعبادة ولذلك ذكرت في القرآن الكريم كثيراً، لأنَّ إخراج الشيء من نقيضه أمر في غاية الإعجاز، فلا يســتطيع إلَّا إله خالق قادر عالم، متَّصــف بكلِّ صــفات الكمال، فيتعيَّن أن يكون هو الله ﷻ دون ما سواه.

٧٦٤. فيها أنَّ أعظم التَّقوى أن يتَّقي الإنسان الشِّرك.

٧٦٥. تفيد: ضرورة أن يتأمَّل الإنسان في داخل نفسه وما فيها من الحواس النَّافعة التي يمكن أن تزول عنه بإرادة الله تعالى في أي وقت وفي أي لحظة؛ لقوله تعالى: ﴿أَمَّن يَمۡلِكُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ﴾ . وقال تعالى في آية أخرى: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الذاريات:٢١].

٧٦٦. تفيد: تعريضاً بمعبودات المشركين وذمّها، حيث إنَّها لا تسمع ولا تبصر، فضلاً عن أن تملك سمع وأبصـــار عابديها؛ لقوله تعالى: ﴿أَمَّن يَمۡلِكُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ﴾ ولهذا قال تعالى في آية أخرى: ﴿أَمۡ لَهُمۡ أَعۡيُنٞ يُبۡصِرُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۖ﴾ [الأعراف:١٩٥].

٧٦٧. تفيد: تمام قدرة الله تعالى في إبداع وإتقان صـــنع مخلوقاته؛ لقوله تعالى: ﴿أَمَّن يَمۡلِكُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ﴾ ولهذا قال علي ﷺ: (سبحان من بصَّر بشحم، وأسمع بعظم، وأنطق بلحم)..

٧٦٨. تفيد: أنَّ الإنســان لا قدرة له على رؤية المرئيَّات ولا سماع المســموعات إلَّا بإرادة الله تعالى ومشيئته.

٧٦٩. تفيد: أهميَّة حاسَّـة السَّـمع وشـرفها وكمالها حيث إنَّه يحصـل بها من العلم والإدراك، أكثر مما يحصل بالبصر، وبهذا يظهر للمتأمِّل والمتدبِّر سرُّ تقديم السَّمع على الأبصار، في آيات الذِّكر الحكيم.

٧٧٠. تفيد: تمام قدرة الله تعالى؛ حيث إنَّه يخرج الحيّ من الميِّت، وبالعكس، وهذا من تمام القدرة أنَّه يخرج الشَّيء من ضدِّه.

٧٧١. تفيد: ثبوت قيام الأفعال الاختيارية بالله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ﴾..

٧٧٢. تفيد: أنَّ ﴿ٱلۡحَيَّ﴾ و﴿ٱلۡمَيِّتِ﴾ متضادَّان متنافيان، فحصول المثل عن المثل قد يوهم أن يكون بسبب الطبيعة والخاصيَّة، أمَّا حصول الضِّدّ من الضِّدِّ فيمتنع أن يكون بسبب الطبيعة والخاصيَّة، بل لا بدَّ وأنَّ يكون بتقدير المقدِّر الحكيم والمدبِّر العليم.

٧٧٣. تفيد: كمال سلطان الله تعالى؛ حيث إنَّ تدبير جميع أمور الخلق إليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۚ﴾.

٧٧٤. تفيد: أنَّ على العباد اللُّجوء إلى الله تعالى والاستعانة به، وطلب ما يحتاجونه ممَّا تستقيم به أمور حياتهم منه ﷻ، لأنَّه هو من يدبِّر أمور الكون.

٧٧٥. تفيد: أنَّ من أفضل وأنجح طرق التَّعليم والمناظرة أن يأتي المعلِّم والمناظر بحججه وبراهينه بصورة السُّؤال؛ ويرمي بها في عقليَّة المتعلِّم أو الخصم؛ ليكون مشاركاً ومقرِّراً في عمليَّة النَّتيجة؛ لقوله تعالى: ﴿قُلۡ﴾، ﴿مَن يَرۡزُقُكُم﴾ ﴿أَمَّن يَمۡلِكُ﴾ ﴿وَمَن يُخۡرِجُ﴾ ﴿وَمَن يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۚ﴾ ثمَّ قال: ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ﴾.

٧٧٦. تفيد: مع ما قبلها دليلاً على صحَّة البعث بعد الموت؛ لأنَّ القادر على إخراج البدن من النُّطفة قادر على إخراجه من التُّراب للحساب والجزاء. وفي هذه الهداية يظهر للمتأمِّل والمتدبِّر العلاقة التَّناسبيَّة والتَّناسقيَّة بين هذه الآية وما قبلها.

قال تعالى: ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلۡحَقُّۖ فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ﴾ [يونس:٣٢]

٧٧٧. فيها من المناسبة أنَّه لما بيَّن في الآية السَّابقة، التَّعريف بالرُّبوبيَّة، وأنَّ من أخصَّ مقتضيات الرُّبوبيَّة: ما ورد في الآية السَّابقة من ذكر الملك والخلق والتَّدبير ناسب أن يبيِّن أنَّ من يملك ذلك هو الله فقال: ﴿فَذَٰلِكُمُ﴾ المتَّصف بهذا الكمال والجلال المذكور في الآية السَّابقة، هو ﴿ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلۡحَقُّۖ﴾ سبحانه.

٧٧٨. ذكر اسم الإشارة ﴿فَذَٰلِكُمُ﴾ الدَّالُّ على البعيد: فيه إشعار بتعظيم الله، وعلوِّه وتنزيهه سبحانه.

٧٧٩. تفيد: أنَّ الحقَّ هو الثَّابت الذي لا يتزعزع ولا يتغيَّر، وأحقّ الحقِّ هو معرفة الله تبارك وتعالى.

٧٨٠. تفيد: أنَّ الله ﷻ خير من يعرِّف بنفسه جل وعلا، فقد وصف ﷻ نفسه في الآية السَّابقة بأنواع من الكمال والجلال، ثمَّ قال: ﴿ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ﴾.

٧٨١. تفيد: مع ما قبلها أنَّ العقل الصَّريح لا يُعارض النَّقل الصَّحيح، بل يشهد له ويؤيِّده؛ لأنَّ المصدر واحد، وهو الحقّ ﷻ؛ فالذي خلق العقل هو الذي أرسل إليه النَّقل، ومن المحال أن يُرسل إليه ما يُفسده؛ وبيان ذلك: أنَّه عندما سئل المشركون في الآية السَّابقة عن بعض الأمور في هذا الكون مَن صاحبها؟ فساقتهم أدلتهم العقليَّة إلى أن يقولوا (الله)؛ قال تعالى في هذه الآية ممَّا هو دليل نقلي صريح ﴿ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ﴾؛ فدلَّ هذا على أنَّ العقل الصَّريح والنَّقل الصَّحيح لا يتعارضان؛ بل يتأيَّدان ويشهدان لبعضهما البعض.

٧٨٢. حكمت هذه الآية بأنَّه ليس بين الحقّ والباطل منزلة ثالثة في هذه المسألة التي هي توحيد الله تعالى، وكذلك هو الأمر في نظائرها، وهي مسائل الأصول التي الحقّ فيها في طرف واحد" [١]، فلا وسطيَّة بين الكفر والإسلام، لأنَّ الوسطية هنا هي عين النِّفاق.

٧٨٣. في هذه الآية إيناس للمخاطبين ودعوة لهم إلى التوحيد بواسطة الربوبيَّة التي تقتضي الإحسان والإنعام والتَّربية.

٧٨٤. في هذه الآية والتي قبلها إشارة إلى أركان الألوهيَّة الحقَّة وهي الرِّزق المطلق وملك السَّمع والأبصار والإحياء والإماتة وتدبير الأمر.

٧٨٥. وتفيد: أسلوباً دعويَّاً (أسلوب الإلزام): وهو الاحتجاج على استحقاق الله ﷻ للتَّفرُّد بالإلهيَّة، وفقاً لإقرار المخاطب أنَّ الله جلَّ وعلا متفرِّد بكمال الرُّبوبيَّة ﷻ .

٧٨٦. تفيد: أنَّ المقدّمات الصَّحيحة تنبني عليها النَّتائج الصَّحيحة، فالمقدِّمة كانت في بيان اتِّصافه جلَّ وعلا بالصِّفات المذكورة في الآية السَّابقة، وجاءت النَّتيجة الصَّحيحة في هذه الآية بتقرير كمال الرُّبوبيَّة، والشِّهادة بكونها حقّ لا مرية فيه..

---

(١) تفسير القرطبي ٨/٣٣٦.

٧٨٧. تفيد: أنَّ من أساليب الدَّعوة ومهاراتها: معرفة مسلَّمات المخاطب، والانطلاق منها لإقناعه.

٧٨٨. تفيد: أنَّه لما كان مشركو العرب يقرُّون بالرُّبوبيَّة، كان في هذا الخطاب نوع إفحام لهم من خلال مسلَّماتهم، ليتهيَّأ نقلهم إلى الإقرار باستحقاقه ﷻ للتَّفرُّد بالإلهيَّة.

٧٨٩. تفيد: جواز استعمال اللَّوم والتَّقريع للمدعو، وذلك بعد تمام البيان القاطع للشَّكِّ والرَّيب.

٧٩٠. تفيد: أنَّ الحجَّة قد قامت على العباد ببيان الحقِّ الذي يجب اتباعه.

٧٩١. تفيد: أنَّ من حاد عمَّا بيَّنه لهم النَّبي ﷺ من معرفة ربِّهم وعبادته فقد ضلَّ ولا شك.

٧٩٢. تفيد: أنَّ الحقَّ واحد والضَّلال متعدِّد دائماً.

قال ابن القيِّم رحمه الله في النُّونيَّة:

فلواحد كن واحدا في واحد أعني سبيل الحق والإيمان

٧٩٣. يفيد تفرُّد الحقّ أنَّ العبرة بالكيف وليس بالكَمِّ.

٧٩٤. تفيد: أنَّ الإنسان متى ما وجد الحقَّ في أيّ مسألة فليعضّ عليها بالنَّواجذ خوفاً من أن يصرف عنه.

٧٩٥. تفيد: وضوح الحقّ وظهوره كما قيل: "الحقُّ أبلج والباطل لجلج".

٧٩٦. تفيد: أنَّ سنن الله في كونه وشرعه تنتظم على الحقِّ، وأنَّ الدَّعوة لتعدُّد الحقّ أو نسبيَّته إنَّما هي دعوه للفوضى والدَّمار والخسارة والبوار.

٧٩٧. تفيد: أنَّ الحقَّ قائم بذاته يحمل بذرة ثباته، وأسباب ظهوره، وأنَّ الباطل يحمل بذرة فنائه واضمحلاله.

٧٩٨. تفيد: أنَّ معاند الحقّ والسَّاعي في إبطاله مخذول، ولا يؤبه به في أيّ وادي من أودية الضَّلال هلك.

٧٩٩. تفيد: عظمة وفضل القرآن الكريم فهو من الحقّ ووصفه الحقّ.

٨٠٠. وصف الله تعالى ما أنزله على رسوله من الوحي بأنَّه الحقُّ في أكثر من مئة موضع في كتابه العزيز، فالله تعالى هو الحقُّ وأرسل رسوله بالهدى ودين الحقّ، وبالحقّ أنزل القرآن وبالحقِّ نزل، وخلق السَّموات والأرض بالحقِّ فتعالى الله الملك الحقّ.

٨٠١. تفيد: قوَّة حجج التَّوحيد وظهور براهينه، وكلَّما عظمت حاجة النَّاس لشيء فإنَّ الله يجعل دلائله واضحة بيِّنة.

٨٠٢. فيها أنَّ من ترك الحقّ ابتلي بالباطل ولابدَّ، ولذلك جاء السُّؤال الإنكاري في آخر الآية ﴿فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ﴾ عن توحيده وإفراده بالعبادة.

٨٠٣. تفيد: أنَّ الحقَّ يثبت بالحجج الشَّرعيَّة والعقليَّة وأنَّ أهل الحقِّ يجب عليهم أن لا يتوانوا ولا يتواروا في بيانه، والتَّحذير من تنكُّب طريقه والتشعُّب في طرق الضَّلال بمخالفته.

٨٠٤. يفيد: صياغة الفعل ﴿تُصۡرَفُونَ﴾ المنسوبة إلى فاعلين خارجيين يصرفون النَّاس عن الحقِّ يدلُّ على ضرورة الانتباه إلى مصادر المعلومات والتَّأكُّد من مدى صحَّتها ومدى توفُّر الأدلَّة على أنَّها صحيحة أي أنَّها (الحقّ) وليست (الضَّلال)..

٨٠٥. تفيد: هذه الجملة من الآية الكريمة: ﴿فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ﴾ أنَّ الحقَّ لا يتعارض مع الحقِّ أبداً بل يعضّد بعضه بعضًا، وأنَّ التَّناقض والاختلاف من علامات الباطل ... حجج الله لا تتعارض، وأدلَّة الشَّرع لا تتناقض، والحقّ يصدّق بعضه بعضاً" (١) .

﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [يونس:٣٣]

٨٠٦. تفيد: الإيمان بالقدر، وبعلم الله الشَّامل المحيط، فإنَّ التَّعبير بالفعل الماضي ﴿حَقَّتۡ﴾ يبيِّن أنَّ ذلك ثابت في علم الله.

٨٠٧. تفيد: أنَّ الجزاء من جنس العمل، فإنَّهم لما فسقوا وخرجوا عن طاعة الله، سلبهم الله الهدى، ومدَّ لهم في غيِّهم وضلالهم.

٨٠٨. وتفيد: أنَّ الفسوق وسائر المعاصي تعتبر سبباً للحرمان من الهداية، فإنَّ فِسْق هؤلاء جرَّ عليهم عقوبة الإضلال.

---

(١) إعلام الموقعين: ٣ /١٠٤.

٨٠٩. وفيها من أعلام النُّبوَّة، أنَّ جمهوراً من المجرمين ممَّن نزلت هذه الآيات في شـأنهم، ظلُّوا على كفرهم حتَّى هلكوا مع أنَّ الفرصة كانت مواتية ليسلموا.

٨١٠. تفيد: أنَّ الفسق من أعظم موانع قبول الحقِّ.

٨١١. تفيد: إثبات صـفة الكلام لله ﷻ وذلك في قوله تعالى: ﴿حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ ففيها إشعار بالثِّقة بوعد الله ﷻ، فإنَّه جلَّ وعلا لما قضى ذلك، أنبأ نبيَّه ﷺ أنَّ من قضاه وتولَّاه هو ﴿رَبِّكَ﴾ جلَّ جلاله، الذي بيده مقاليد كلّ شيء، وهذا ظاهر في التَّعبير بلفظ ﴿رَبِّكَ﴾ فلم يقل (حقَّت كلمة الله) وكأنَّ في هذا طمأنة لنبيِّه ﷺ، أنَّ من قضـى ذلك هو ربّك الذي يحوطك بعنايته.

٨١٢. وفيها من مباحث الإيمان: ربط القدر بالرُّبوبيَّة وهذا ظاهر في: ﴿حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ فإنَّ القدر من محض تدبير الله ﷻ، ونسبته أليق بكمال الرُّبوبيَّة..

٨١٣. تفيد: أنَّ ما قضاه الله جلَّ وعلا، لا سبيل لرَدِّه، قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ﴾ [الرعد:١١].

٨١٤. وتفيد: أنَّ الهداية والإضلال بيده جلَّ جلاله، فلا سبيل لجلب الهداية ودفع الضَّلال إلَّا بالتَّعلُّق بالله ﷻ والتَّضرُّع إليه، لاستنزال ما عنده من الخير..

٨١٥. فيها ردّ على القدريَّة بإثبات قضاء الله الأزلي على من كتب الله له الإيمان أو الفسق. كما أنَّ فيها ردَّاً على الجبريَّة في أنَّ الله لم يكتب عدم الإيمان إلَّا على المسـتحقِّين الفاسـقين وهذا تقرير لمعتقد أهل السُّنَّة وهي الوسطيَّة بين طرفي نقيض، فهم كما في آي التنزيل كالخالص الذي يخرج ﴿مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ﴾ نعتهم ﴿لَّبَنًا خَالِصٗا سَآئِغٗا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ [النحل:٦٦].

٨١٦. وفيها إثبات كمال الرُّبوبيَّة والتَّصرُّف والتَّدبير لله جلَّ جلاله..

٨١٧. تفيد: أنَّ الشِّـرك بالله وفسـاد النِّيَّة وسـوء الطَّويَّة من أعظم أسـباب الخذلان وانقطاع موارد التَّوفيق للهداية كما الإخلاص وصـلاح النِّيَّة وحسـن الطَّويَّة من أجل موارد التَّوفيق ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ [يوسف:٢٤].

٨١٨. تشـير: إلى أنَّ الأمر أمر قلوب في المقام الأوَّل بغضـاً للإيمان والتَّوحيد ومحبَّة للشِّـرك والفسق وذلك بفساد تصورهم للحقّ أو محبَّة ما يضادِّه أو اجتماع الأمرين معًا، يقول ابن القيِّم

"مرض القلب هو نوع فساد يحصل للمرء، يفسد به تصوُّره للحقِّ، وإرادته له، فلا يرى الحقّ حقًّا، أو يراه على خلاف ما هو عليه، أو ينقص إدراكه له، وتفسد به إرادته له، فيبغض الحقَّ النَّافع، أو يحبّ الباطل الضَّار، أو يجتمعان له وهو الغالب" (١) .

٨١٩. تفيد: سعة علم الله ﷻ فهو ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل :١٢٥].

٨٢٠. فيها التَّحذير من الفسق وأنَّه من أسباب الضَّلال وعدم الإيمان.

٨٢١. فيها مع ما قبلها كثرة الفسق في المشركين.

٨٢٢. فيها أنَّ الفسق يأتي بمعنى الكفر كما في قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ﴾ [السجدة:١٨].

٨٢٣. تفيد: كمال حكمته جل وعز وأنَّه يضع الأمور في نصابها فيهدي من يستحقّ بنعمته ورحمته ويُضِلُّ من يشاء بعدله وحكمته.

٨٢٤. تفيد: ما كان عليه هؤلاء المشركين من الشَّقاء فبعد إقرارهم بكلِّ الذي ينجِّيهم إذا عملوا به، فسقوا وخرجوا من دائرة الإيمان، ودخلوا مع زمرة الذين حقَّت عليهم كلمة الله وكان بإمكانهم أن يظلوا خارجًا عنها.

قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ [يونس:٣٤]

٨٢٥. فيها تعظيم لجناب الرَّسول ﷺ، لتشريفه بـ ﴿قُلْ﴾ لأنَّ الأمر بفعل الخير من الأعلى فيه تشريف للمأمور.

٨٢٦. وتفيد: عناية الله ﷻ ورعايته لنبيِّه ﷺ، وذلك بتلقينه الحجج والبراهين.

٨٢٧. فيها شاهد بلاغي وهو خروج الاستفهام التي خرجت عن معناها الحقيقي إلى معنى النفي إذ لا يبدأ الخلق ولا يعيده إلا الله.

٨٢٨. وتفيد: مهارة من مهارات المناظرة والحوار، وهي الاستدلال بالأدلَّة العقليَّة القاطعة، التي لا محيد عنها، والمتَّفق عليها العقليَّة التي يشترك في الإقرار بها كلّ العقلاء، سواء كانوا مسلمين أو كفَّاراً.

---

(١)[إغاثة اللهفان: ١/ ١٧٠].

٨٢٩. وتفيد: هوان وضعف تلك الآلهة التي أشركوها مع الله ﷻ، فإنَّها عاجزة لا تملك لنفسها ضرًّا ولا نفعاً ولا تصرُّفاً.

٨٣٠. وتفيد: أنَّ من تمام أوصاف الرُّبوبيَّة الحقَّة: القدرة على الخلق من عدم، وإعادة ذلك الخلق بعد فنائه.

٨٣١. وتفيد: إشارة إلى البعث والجزاء والنُّشور، ولكونه سيقع لا محالة، فقد صلح أن يكون دليلاً على الرُّبوبيَّة في إعادة الخلق، ومن ذلك قوله جلَّ جلاله: ﴿يَوْمَ نَطْوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٤].

٨٣٢. وفيها: أنَّ الآلهة التي يزعمونها لا تملك شيئاً.

٨٣٣. فيها: التَّحذير من الشِّرك بصرف العبادة لغير الله.

٨٣٤. وفيها: زكاة النَّفس لا تكون إلَّا باتِّباع الحقّ قولاً وعملاً.

٨٣٥. تفيد: أنَّ من أعظم أبواب الرُّبوبيَّة هو تحدّي الله سبحانه المعاندين المكابرين الجاحدين هو إعادة بدء الخلق.

٨٣٦. فيها الاستدلال على توحيد الله وبطلان الشِّرك بإثبات عجز آلهتهم التي يعبدونها من دون الله وباعترافهم، فكيف يليق أن تصرف العبادة إلى هذه المعبودات العاجزة والعاجز الضَّعيف لا يصلح أن يكون إلهاً معبوداً.

٨٣٧. فيها الاستدلال على البعث بأنَّ القادر على ابتداء الخلق – وهذا ما يقرُّون به –قادر على إعادته – وهو ما ينكرونه ويستبعدونه–كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الروم:٢٧].

٨٣٨. فيها الحثّ على محاورة غير المؤمنين في موضوعات الخلق والإيمان بالخالق..

٨٣٩. فيها أنَّ أصل فساد عقيدتهم هو فساد فكرهم وتكذيبهم ناتج من سوء اعتقادهم.

٨٤٠. فيها أنَّ القرآن الكريم لم يترك مجالاً لبيان الحقّ إلَّا بيَّنه، فهنا الاستدلال الذي تدركه العقول والأفهام السَّليمة.

٨٤١. تفيد: مراعاة حال المدعوّين ودعوتهم بما يراعي حالهم وهو هنا الكفر والعناد فأتى التّوجيه الرَّبَّاني ﴿قُلْ﴾ بجدالهم ومناظرتهم بأحسن الطُّرق وأجملها، بأن تكون مجادلتهم مبنيَّة على حسن الإقناع وإيراد الحجج الدَّامغة.

٨٤٢. تفيد: جملة: ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ أنَّ الغرض من المجادلة والإفحام وإيراد الحجج هو هدايتهم وردّهم عن كفرهم وشركهم إلى الهدى فناسب تذييل الآية بذلك أي فكيف تصرفون عن الحقِّ بعد معرفته.

٨٤٣. تفيد: أنَّ بعض الأسئلة الكبيرة والحسَّاسة قد يتهرَّب المسؤولون عن الإجابة عنها لا لعدم فهمهم للإجابة الصَّحيحة، ولكن لأنَّ تلك الإجابة قد تشكل إحراجاً شديداً وخطورة كبيرة على فكرهم وتصرُّفاتهم ومناصبهم؛ ولذا فإنَّ على السَّائل أن يستغلَّ تهرُّبهم ذلك لإيضاح الإجابة الصَّحيحة عن تلك الأسئلة؛ لقوله تعالى في هذه الآية الكريمة والتي بعدها: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم﴾، ثمَّ قال: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾.

٨٤٤. فيها نسبة الشُّركاء إليهم لأنَّها نسبة كاذبة خاطئة منهم ليس لها حقيقة.

٨٤٥. تفيد: كلمة ﴿شُرَكَآئِكُم﴾ الشُّركاء بالجمع يدلُّ على كثرتهم وتعدُّدهم، وفي هذا دليل آخر على بطلان الشِّرك فأيُّهم أحقّ بالعبادة مع كثرتهم؛ قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء:٢٢].

٨٤٦. فيها أنَّ الخالق الذي يبدأ الخلق ثم يعيده هو المستحقُّ للعبادة لا غيره ممَّن لا يخلق شيئاً؛ كما نعتهم الله جلَّ وعلا بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النحل:٢٠، ٢١].

٨٤٧. فيها أنَّ الشِّرك ضلال وعناد وسفه في العقول، ولذلك أنكر عليهم بقوله: ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾..

٨٤٨. تفيد: أنَّ الله استدلَّ عليهم في موضع التَّنازع، وهي الإعادة في سلك الاحتجاج مع عدم اعترافهم بها إيذاناً بظهور برهانها للأدلَّة القائمة عليها سمعاً وعقلاً وإنَّ إنكارها مكابرة وعناداً لا يلتفت إليه"[(١)].

٨٤٩. تفيد: أنَّ دليل البداية هو برهان ودليل الإعادة، بطريق الأولى.

٨٥٠. تفيد: دور وأثر الحجج العقليَّة في إظهار التَّوحيد.

قال تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهۡدِي لِلۡحَقِّۗ أَفَمَن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهۡدَىٰۖ فَمَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ﴾ [يونس:٣٥]

٨٥١. فيها من المناسبة لما قبلها: أنَّه لما بيَّن سبحانه عجز آلهتهم عن بدء الخلق وإعادته التي هي من أقوى أسباب القدرة وأعظم دلائل الرُّبوبيَّة بين هنا عجزهم عن الهداية للحقِّ والصَّواب.

٨٥٢. فيها استعمال الأسئلة التَّقريريَّة في بيان التَّوحيد وبطلان الشِّرك، وفي هذا جمع بين دلالة العقل ودلالة النَّقل، وهذا الجمع بين الدَّلائل من أقوى ما يكون في بيان الحقّ وتثبيته وترسيخه في نفس السَّامع.

٨٥٣. تفيد: هذه الآية مع سابقتها أنَّ كليها مسوقة في بيان بطلان الشِّرك وعبادة غير الله فالمعبودون من دون الله عاجزون عن هداية أنفسهم إلى الحقِّ فضلاً عن عابديهم فكان الإنكار ﴿أَفَمَن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهۡدَىٰۖ﴾.

٨٥٤. تفيد: عادة مطرَّدة في القرآن الكريم كما قال الرَّازي رحمه الله، وهذا مثال منها أنَّه لما ذكر تعالى في الآية السَّابقة الاستدلال بالخلق: ﴿قُلۡ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥۚ﴾ [يونس:٣٤] ثنَّى بالاستدلال بالهداية ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَهۡدِي لِلۡحَقِّۗ﴾.

٨٥٥. تفيد: ربط الآيات مع بعضها، فلمَّا ذكر الله تعالى في الآية السَّابقة الحقيقة الكونيَّة ﴿فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ﴾ قد يرد على النَّفس التَّساؤل عن كيفيَّة الاهتداء إليه فكان الجواب حاضراً ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَهۡدِي لِلۡحَقِّۗ﴾ فلا هداية إلَّا من طريقه.

٨٥٦. تفيد: أنَّ الهداية إلى الحقِّ والتَّوفيق له خاصَّة بالله ﷻ.

٨٥٧. تفيد: الإنكار من الله ﷻ على اتخاذ من يعجز على هداية نفسه فضلاً عن هداية غيره.

---

(١) تفسير القاسمي ٦/٢٣.

٨٥٨. تفيد: بطلان كلّ حكم فاسد لا يستند على دليل واضح ولا يؤيّده عقل سليم.

٨٥٩. تفيد: الدَّعوة إلى إعمال العقل السَّليم، حيث لا تعارض بين العقل السَّليم الصَّافي الحصيف، مع نصوص الشَّرع الحنيف.

٨٦٠. تفيد: أنَّه ﷻ هو الإله الحقّ الذي يستحقّ العبادة لأنَّه هو المالك الهادي من الضَّلالة.

٨٦١. تفيد: أنَّ الشَّيطان واتباع الهوى هما اللَّذان يصدَّان عن سلوك طريق الهداية والرَّشاد.

٨٦٢. وفيها: كذلك الرَّدّ على اعتقادهم الباطل أنَّ آلهتهم قادرة على الهداية وأنَّ الهداية ليست محصورة على الله بزعمهم تعالى الله.

٨٦٣. وفيها: الاستفهام الإنكاري عليهم ﴿أَفَمَن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ﴾. وهو كذلك استفهام تقريري.

٨٦٤. فيها بيان منه ـــ سبحانه ـــ بما هو مستقر في الفطر أنَّ الذي يهدي إلى الحق أحقّ بالإتباع ممَّن لا يهتدي إلَّا أن يهديه غيره، فلزم أن يكون الهادي بنفسه هو الكامل، دون الذي لا يهتدي إلَّا بغيره.

٨٦٥. تفيد: أنَّ الحقَّ أحقّ بالاتِّباع وأحقّ بالمناصرة كما فيها أنَّ الحقَّ يعلو ولا يعلى عليه.

٨٦٦. وفيها: الهداية بيد الله وحده.

٨٦٧. تفيد: أنَّ الله بيده هداية التَّوفيق والقبول كما أنَّ النَّبي ﷺ وأتباعه من الدُّعاة هم من يقومون بهداية النَّاس هداية دلالة وإرشاد إلى الخير وذلك بعكس آلهتهم فإنَّها لا تهدي غيرها ولا تدلّه على شيء.

٨٦٨. فيها: أنَّ على المرء أن يحرص على تزكية نفسه باتِّباع الحقِّ يقيناً وليس ظناً.

٨٦٩. فيها: الدَّعوة لإصلاح النَّفس ولا يكون ذلك إلى باتِّباع الحقِّ.

٨٧٠. فيها: إشارة إلى أنَّ الفطرة السَّويَّة تابعة للحقِّ، ودائرة في فلكه.

٨٧١. فيها: إشارة أنَّ عبادة الله وحده أولى من عبادة غيره، ولا نسبة بين عبادة الله وعبادة غيره إذ أنَّ عبادة الله عزٌّ ورفعة وشرف، وعبادة غيره ذل، وضعة وهوان.

وصدق من قال:

متى ما أقل مولاي أفضـــل منهم   أنَّ للـذي فضَّـــلتـه متنقّصـــاً

ألم تر أنَّ السَّـــيف ينقص قـدره   إذا قيل أنَّ السَّيف أمضى من العصا

٨٧٢. في نسبة الشُّركاء لهم: دلالة على أنَّه أمر مصنوع مفترى، لا تسنده حجَّة.

٨٧٣. تفيد: أنَّ القلوب بيد الله يقلِّبها ويصـرفها كيف يشـاء، فيهدي من يشـاء بفضـله، ويضلّ من يشاء بعدله.

٨٧٤. تفيد: أنَّ أعظم مِنَّة وأكرم نعمة من الله تعالى: نعمة الهداية إلى الحقِّ لذا كان أولُّ دعاء أمرنا الله تعالى أن ندعو به هو ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة:٦].

٨٧٥. تفيد: هذه الآية مع سابقتها: أنَّ حياة الأبدان والقلوب بيد الله وحده، لا شريك له.

٨٧٦. تفيد: أنَّ أعظم دليل على استحقاق الألوهيَّة هو: الهداية للحقّ.

٨٧٧. تفيد: تيسـير الطَّريق للسَّـالكين فمن رحمة الله بالناس أجمعين لما بين أنه لا هداية إلا عن طريقه سـهل هذا الطريق للراغبين فقال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلۡحَقِّ مِن رَّبِّكُمۡ فَـَٔامِنُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ ﴾ [النساء:١٧٠]

٨٧٨. تفيد: بضـــميمة ما قبلها من الآيات – أن الله هو الحق وقوله الحق وفعله الحق ودينه الحق ورسوله الذي بعث اليكم حق وكتابه المنزل من ربه هو الحق وما عداه من المعبودات والآلهة باطل وضلال.

٨٧٩. فيها أن الهداية للحق من أعظم المطالب.

٨٨٠. فيها بيان وتنبيه للدعاة وتحريضـــهم الي الحرص علي هداية الخلق وتعبيدهم لله ونجاتهم من عذاب الله وقوله ﴿فَمَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ﴾ أي فما بالكم أن يذهب بعقولكم كيف سويتم بين الله وبين خلقه وعدلتم هذا بهذا وعبدتم هذا وهذا، وهلا أفردتم الرب جل جلاله المالك الحاكم الهادي من الضلالة بالعبادة وحده وأخلصتم إليه الدعوة والإنابة" (١) .

قال تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكۡثَرُهُمۡ إِلَّا ظَنًّاۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ﴾ [يونس:٣٦]

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/٢٦٨.

٨٨١. لما ذكر في الآية السابقة أن الاتباع الحق إنما هو اتباع من يهدي للحق، ناسب أن يذكر ما يقابله وهو أن هناك اتباعا لغير الحق عليه أكثر الناس وهو اتباع الظن فيها أن من أهم مسالك الاتباع المنحرف هو اتباع الظن المؤدي للضلال، والمسلك الآخر اتباع الهوى المؤدي الى طريق المغضوب عليهم وقد حذر الله تعالى منهما في قوله ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ [النجم:٢٨] – وهو طريق الضالين – ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهۡوَى ٱلۡأَنفُسُ﴾ [النجم:٢٣] – وهو طريق المغضوب عليهم .ثم نبه على طريق الاستقامة وهو اتباع الحق– ﴿وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلۡهُدَىٰٓ﴾ [النجم:٢٣]وهو طريق أصحاب الصراط المستقيم.

٨٨٢. تفيد: حقيقة واقعة وهي تعكس واقع طباع الناس في أي مكان وأي زمان، إلا ما رحم ربي وقليل ما هم.

٨٨٣. تفيد: أن ميزان (الأكثرية) غير مجدية ولا تغني صاحبها بشيء، فهذا الميزان الذي يتحجج به بعض الناس عند دعوتهم لإقامة شعيرة من شعائر الله فيكون الرد عليهم بهذه الآية.

٨٨٤. تفيد: أن لا يغتر أهل الحق بكثرة الهالكين وأن لا يستوحشوا بقله السالكين، فالجماعة ما كان علي الحق ولو كنت وحدك.

٨٨٥. وتفيد: أن أكثر الناس يبنون حياتهم على الظن، فالحياة عند الاكثرية ما هي إلا ظنون.

٨٨٦. لما ذكر الله تعالى (الحقَّ) في الآيات السابقة شرع هنا في التحذير ممَّا يقابله، وما يقابله نوعان: الضَّلال وهذا بيَّنته الآية السابقة ﴿فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس:٣٢]– والآخر الظنّ، وهو ما يتوهَّمه الظَّانُّ حقًّا وهو ليس كذلك فحسم هذا الآخر في هذه الآية ﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـًٔا﴾ [يونس:٣٦].

٨٨٧. فيها: أنَّ الخلل والانحراف يأتي إمَّا لفساد في العلم، وهو الجهل واتِّباع الظنّ وهذا يؤدِّي إلى الضَّلال كما عند النصارى وجهلة المتعبدة بالبدع. (من فسد من عبادنا)– فساد في القصد ولو مع العلم وهو إتباع الهوى ويؤدِّي إلى الغواية ويمثِّله اليهود ومن فسد من علمائنا وقد يجتمع فساد العلم وفساد القصد في الجاهل فاسد النِّيَّة ولذا شرع للمسلم في كلِّ ركعة سؤال الهداية إلى الصِّراط المستقيم (الحقّ) والاستعاذة من طريق المغضوب عليهم والضَّالين.

٨٨٨. دليل على أنَّ تحصيل العلم في الأصول واجب والاكتفاء بالتقليد والظنِّ غير جائز.

٨٨٩. وفيها أنَّ ما يتعلَّق بباب العقائد فإنَّه لا يعوَّل فيه إلَّا على اليقين الجازم.

٨٩٠. فيها فضل العلم ومكانته في دين الله ولا سيما في أمر المعتقد الذي هو الأساس الذي يبنى عليه دين المسلم.

٨٩١. تفيد: الاعتناء بمصادر التَّلقِّي والدَّعوة للنهل من المعين الصَّافي الذي لا تشوبه شائبة والمحفوظ بحفظ الله لهذا الدين؛ كتاب الله وسنَّه رسوله ﷺ.

٨٩٢. تفيد: أنَّ دين المشركين وعبادتهم مبناها على العلم الخاطئ أو الجهل المركَّب أو التخيُّلات الباطلة كما ذكر ابن عاشور أنَّ "الظنّ كثر إطلاقه في القرآن والسنَّة على العلم المخطئ، أو الجهل المركَّب، والتخيُّلات الباطلة" (١).

٨٩٣. تفيد: أنَّ الحقَّ ليس بالضرورة أن يكون مع الأكثريَّة ويستفاد من ذلك بطلان اعتماد النَّاس على التصويت في ترجيح الأمور الدنيويَّة فالأولى وضع معايير يعتمد عليها في التَّرجيح بغض النَّظر عن عدد المؤيِّدين ومن تلكم الأمور اختيار الحاكم.. ففيها دليل على سقوط وبطلان الديمقراطيَّة.

٨٩٤. يستفاد منها مهما كثرت الظنون والأوهام والجهالات لابدَّ من وجود الحقِّ وإن لم يكن ظاهراً.

٨٩٥. يستفاد منها أن لا يتمسَّك المرء برأيه الشَّخصي أو غلبة ظنِّه ما لم يكن له دليل من كتاب أو سنَّة.

٨٩٦. تفيد: أنَّ محاربة الأفعال والسُّلوكيَّات لابدَّ أن تسبقها محاربة الأفكار والاعتقادات واستبدال الظُّنون باليقين.

٨٩٧. فيها مع ما قبلها الحرص على إتِّباع الحقّ ولو كان أهله قلَّة، وعدم إتِّباع الباطل ولو كان أهله كثرة.

٨٩٨. فيها أنَّ إتِّباع الظَّنّ من أكثر أسباب الضَّلال؛ دلَّ على ذلك أسلوب الحصر في النَّفي والإثبات.

---

(١) التحرير والتنوير ١١/١٦٦.

٨٩٩. تفيد: ختم الآية بصفة (علم الله) التَّربية العقديَّة الوجدانيَّة القلبيَّة والتي تثمر مراقبة الله تبارك وتعالى في كلِّ فعل يفعله الإنسان وتجعله لا يكترث بما عليه أكثر النَّاس فيحرص على ابتغاء مرضاة الله تبارك وتعالى في كلِّ شؤون حياته.

٩٠٠. تفيد: الإنصاف وعدم إطلاق الأحكام العامَّة هدي قرآني ﴿أَكْثَرُهُمْ﴾.

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [يونس:٣٧].

٩٠١. فيها من المناسبة أنَّه: لما ذكر الله تبارك وتعالى في الآية السَّابقة مصادر الضَّالين وإتباعهم الظنّ الذي لا يغني من الحقِّ شيئاً ناسب أن يبيّن مصدر الحقّ الذي (لا ريب فيه) الذي يهدي للحقِّ واليقين وهو القرآن الكريم.

٩٠٢. في الآية طمأنة المسلمين على كتاب ربِّهم وأنَّه غير قابل للافتراء فيه على الله من أي أحد في أي وقت؛ لأنَّه غير قابل للافتراء.

٩٠٣. فيها بيان أنَّ القرآن الكريم جاء مصدِّقاً للكتب السَّابقة.

٩٠٤. فيها بيان منزلة القرآن وعلاقته بالكتب السابقة.

٩٠٥. فيها بيان أنَّ القرآن الكريم ينتفي عنه الشَّكّ فهو الكتاب الحقّ نزل من عند الحقِّ على الرسول الحقّ يهدي به إلى الحقِّ ومن تمسَّك به هدي إلى الحقِّ وإلى طريق مستقيم.

٩٠٦. فيها بيان أنَّ القرآن الكريم لا يمكن أن يكون من عند غير الله ﷻ لأنَّه كلام الله المعجز الموحى به إلى الرَّسول الخاتم ﷺ المشتمل على كريم الأخلاق وفضائل الأعمال الجامع لكلِّ الشَّرائع والأحكام.

٩٠٧. تفيد: إعجاز القرآن من حيث الفصاحة والبلاغة وكونه معجزة باقية إلى قيام السَّاعة.

٩٠٨. فيها تعظيم القرآن الكريم وبيان منزلته.

٩٠٩. فيها أنَّ كتب الله ﷻ يصدِّق بعضها بعضاً، وخاتمها وأعظمها القرآن الكريم مصدِّق لما قبله.

٩١٠. فيها أنَّ هذا الكتاب مفصّل؛ فيه ما يحتاجه النَّاس وفي هذا دعوة لاستخراج هداياته مفصَّلة لينتفع بها النَّاس جميعاً.

٩١١. فيها أنَّ من لوازم الرُّبوبيَّة إنزال الكتب لهداية الخلق ولذا ختم الآية بقوله: ﴿مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

قال تعالى: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٣٨﴾ [يونس:٣٨]

٩١٢. فيها أنَّ التَّحدي كان متدرجاً، تحدي الإتيان بكتاب مثل القرآن في قوله: ﴿قُلۡ فَأۡتُواْ بِكِتَٰبٖ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهۡدَىٰ مِنۡهُمَآ أَتَّبِعۡهُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [القصص:٤٩] وفي هود تحدي بالإتيان بعشر سور ﴿قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ﴾ [هود:١٣] ويستمر التحدي والتَّنزُّل معهم إلى الإتيان بسورة واحدة ﴿فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ﴾ [البقرة:٢٣] ولا يزال التحدي قائلاً والتَّنزُّل معهم إلى سورة فعجزوا ومع ذلك لم يفعلوا ولن يفعلوا، ثمَّ تحدَّاهم بأي شيء مثله ولو آية، فعجزوا قال تعالى: ﴿فَلۡيَأۡتُواْ بِحَدِيثٖ مِّثۡلِهِۦٓ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ﴾ [الطور:٣٤].

٩١٣. فيها بيان بطلان قول المشركين في دعواهم باختلاق الرسول ﷺ للقرآن حيث عجزوا أن يأتوا بسورة منه.

٩١٤. فيها أنَّ عجز أولئك القوم على أن يأتوا بسورة مثل القرآن وهم أرباب الفصاحة والبلاغة يبيّن بما لا يدع مجالاً للشَّكِّ أنَّه تنزيل من حكيم حميد.

٩١٥. فيها تحدِّي أولئك القوم بأن يأتوا بسورة مثل القرآن ولن يستطيعوا فإذا عجزوا عن سورة فكيف حالهم في أن يأتوا بمثله وصدق الله ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ٨٨﴾ [الإسراء:٨٨].

٩١٦. تفيد: أنَّ شبه المشركين حول القرآن كانت مجرَّد أقوال لا يسندها دليل أو برهان.

٩١٧. تفيد: أهميَّة ردّ الشُّبه وإقامة الحجَّة على الخصم.

٩١٨. تفيد: أنَّ التَّعجيز من أساليب القرآن في إقامة الحجَّة.

٩١٩. يستفاد منه شرف أمَّة الإسلام التي ورثت هذا التَّحدي المعجز للبشر وما زالت هي تصدع بهذا التَّحدي (بخلاف الأمم السَّابقة التي ما ورثت معجزات رسلها).

٩٢٠. فيها أنَّ أي سورة في القرآن (صغرت أو كبرت) تحمل في طيَّاتها إعجازاً علمه من علمه وجهله من جهله.

٩٢١. فيها وجوب البحث عن أوجه الإعجاز في القرآن حتى لا يأتي من يجمع بعض العبارات والكلمات ويدَّعي أنَّها مثل القرآن.

٩٢٢. تفيد: أنَّ "عظم التَّحدِّي بقدر مهارة وحنكة المتحدي بموضع التَّحدي وهو هنا فصاحة العرب وامتلاكهم ناصية اللُّغة نثرها وشعرها، فإذا كان الخصم يملك الأدوات وعجز، فما سواه أعجز.

كما قال الشاعر في وصف خصومهم:

وجيشٍ كجُنح الليل يزحَف بالحصا ... وبالشوك والخَطِّيِّ حُمراً ثَعالِبُهْ

غَدَونا له والشّمسُ في خِدر أُمّها ... تُطالعنا والطَّلُّ لم يَجرِ ذائبُهْ

بضَربٍ يذوق الموتَ من ذاق طعمَه ... وتُدْرِك من نجّى الفرارُ مَثالبُهْ

كأنّ مُثَارَ النّقع فوقَ رؤوسنا ... وأسيافَنا ليلٌ تَهاوَى كوكبُهْ

بعثنا لهم موتَ الفُجاءةِ إنّنا ... بنو الموت خفّاق علينا سَبائبُهْ

فراحوا فريقٌ في الإسار ومثلُه ... قتيلٌ ومثلٌ لاذ بالبحر هاربُهْ

٩٢٣. فيها الرَّدُّ على الشِّيعة وجميع القائلين بتحريف القرآن أو افتراء مثله وأنه لم يحفظ بحفظ الله ﷻ في علاه.

٩٢٤. فيها أكبر دليل على صدق هذا الدِّين فلم ولن يأتي أحد بمثله.

٩٢٥. فيها الدَّعوة والاجتماع لمعاضدة النَّظير فاجتماع أهل الحقِّ وتناصرهم من باب أولى.

٩٢٦. فيها إظهار لمدد الله وعونه وتثبيته لرسوله وللمؤمنين من أتباع هذا الدين بهذا التَّحدي.

٩٢٧. أنَّ الكفَّار سيردِّدون هذه الشُّبهة مع وهائها وسخفها؛ دلَّ على ذلك الفعل المضارع في قوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ [يونس:٣٨].

٩٢٨. فيها تلقين الحجج وبقاء التَّحدي بهذا القرآن أبد الدهر.

قال تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يونس:٣٩]

٩٢٩. فيها من المناسبة: أنَّه لما أثبت سبحانه إعجاز القرآن بالأدلَّة والبراهين، ذكر هنا سبب تكذيبهم للقرآن.

٩٣٠. وفيها: أنَّ تكذيبهم للقرآن عناد منهم فقط، فهم يعلمون أنَّه حقّ.

٩٣١. فيها: دليل على التثبُّت، فلا يقبل أمر أو يردّ إلَّا بعد العلم به.

٩٣٢. فيها: أنَّ القرآن كلام الله ﷻ.

٩٣٣. وفيها: دليل أنَّهم لم يفهموا حقيقة القرآن.

٩٣٤. دلَّت الآية الكريمة كذلك على عقوبتهم وكلّ من سلك سبيلهم.

٩٣٥. فيها: أنَّ الحقَّ له أعداء وهذا من سنن الله الصِّراع بين الحقِّ والباطل.

٩٣٦. فيها: سنَّة الله جارية في إهلاك الظَّالمين.

٩٣٧. فيها: منهجية لكلِّ طالب علم من مفسِّر وغيره التثبُّت، وعلى المتلقِّي عدم تصديقه أو تكذيبه إلَّا بعد العلم بذلك.

٩٣٨. فيها: ذم للجهل والجاهلين، فالجاهل يذم الحقَّ لأنَّه لا يعرفه، وكما قيل: الجاهل عدو نفسه، ومجتمعه أيضا فحالهم كحال الجاهل المصرّ على الجهل المستمتع به.

٩٣٩. تفيد: الفرق الشاسع والبون الواسع بين من عَلِم فآمن وصدق ومن بين من جهل وكذَّب وجحد، فالجاهل لا يجاوز المبادئ إلى غاياتها والكيِّس ينظر إلى الغايات من وراء مبادئها.

٩٤٠. فيها أنَّ الجهل وعدم الفهم يجعل صاحبه يكذِّب بما يسمع قبل أن يفقه ويعلم كنه أمره وهذا هو حال الكافرين مع القرآن، سارعوا بالتكذيب به قبل أن يفقهوا حقيقة أمره ولم يقفوا على تأويله ومعناه.

٩٤١. فيها وجوب التَّيقُّن والتثبُّت في جميع الأمور وأن لا يستعجل الإنسان في إصدار حكمه دون أن يلمَّ بالأمر ويعرف حقيقته.

٩٤٢. فيها بيان حقيقة أولئك القوم وهو الجهل الواقع بهم وأنَّ تكذيبهم إنما هو بسبب جهلهم ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ﴾.

٩٤٣. فيها تحذير ووعيد للمكذِّبين في أن يحل بهم ما حلَّ بمن سبقهم من الأمم الماضية ممَّن كان على شاكلتهم.

٩٤٤. فيها تسلية النبي ﷺ بأنَّه ما لقي من قومه إلّا مثل ما لقي الرسل السابقون من أقوامهم" [١].

٩٤٥. تفيد: أهميَّة بعد النظر والتدبر في عواقب الأمور والاستفادة من ذلك.

٩٤٦. تفيد: مشروعيَّة القياس وذلك بقياس حالهم بحال من سبق.

٩٤٧. تفيد: ضرورة النَّظر في عاقبة الظَّالمين مقصود منه قياس أمثالهم في التَّكذيب عليهم في ترقُّب أن يحلَّ بهم من المصائب مثل ما حلَّ بأولئك" [٢].

٩٤٨. تفيد: أن سنن الله مضطردة متي ما توفرت أسبابها وبانت عللها.

٩٤٩. تفيد: أنَّ عاقبة الظلم وخيمة، ولاسيما أعظم الظلم، الشرك بالله وتكذيب آيات الله، ومشاقة رسله وأنَّ الظالمين أبعد الناس عن الهداية الربانية والأمن في الدنيا والآخرة، ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ [الأنعام:٨٢]، وذلك بأسلوب المخالفة لهذه الآية.

٩٥٠. تفيد: أنَّ من جهل شيئاً عاداه. قال الضحَّاك. وقيل للحسين بن الفضل: هل تجد في القرآن (من جهل شيئا عاداه) قال نعم، في موضعين: ﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ﴾ وقوله: ﴿وَإِذۡ لَمۡ يَهۡتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفۡكٞ قَدِيمٞ﴾ [الأحقاف:١١] [٣].

٩٥١. وفيها أنَّ "الجاهل عدو نفسه" وأنَّه ما يبلغ الأعداء من جاهل ما يبلغ الجاهل من نفسه.

٩٥٢. فيها أنَّ من أسباب ضلال كثير من البشر التكذيب بما لا يعلمون؛ قال شيخ الإسلام ابن تيمية: قال تعالى: ﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ﴾، وهذا لأنَّ الغالب على الآدميين صحَّة الحس والعقل فإذا أثبتوا شيئاً وصدَّقوا به كان حقًّا بخلاف ما نفوه، فإنَّ غالبهم أو كثير منهم ينفون ما لا يعلمون ويكذبون بما لم يحيطوا بعلمه، ويتفرَّع على هذا الأصل الباطل الجهل بالإلهيَّات وبما جاء به الرسول، والجهل بالأمور الكلية المحيطة بالموجودات، وبهذا ضلَّ زنادقة

---

(١) التحرير والتنوير ١١/١٧٣.

(٢) نفس المصدر ١١/ ١٧٤.

(٣) تفسير القرطبي ٨/٣٤٥.

الفلاسفة وغيرهم كما أنكروا الجن والملائكة وأمور الغيب إذ لم تدخل تحت علومهم القاصرة فجحدوها(١).

٩٥٣. فيها الحثّ على العلم وذم للجهل وما يؤدي إليه من التكذيب والإنكار.

٩٥٤. تفيد: أنَّ التكذيب بالقرآن سببه الجهل، وكلّ من أقبل عليه وتعلّم ما جاء فيه علم أنَّه الحقّ.

٩٥٥. تفيد: أنَّ صفات أهل الباطل والضَّلال دائما التَّعجل في إصدار الأحكام.

٩٥٦. تفيد: أنَّ التكذيب بالقرآن الكريم من أعظم أنواع الظلم.

٩٥٧. تفيد: أنَّ عاقبة الظَّالمين دائماً فيها الكثير من العبر، ولو جمع كتاب في عاقبة بعض المكذِّبين بالقرآن كيف كانت نهايتهم لكان في ذلك تحقيق لما أمر الله تعالى به في هذه الآية ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

قال تعالى: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يُؤۡمِنُ بِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن لَّا يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [يونس:٤٠]

٩٥٨. فيها تسلية للرسول ﷺ لئلا يحزن على عدم إيمان بعض النَّاس بالنُّور الذي بعث به.

٩٥٩. فيها بيان علم الله السابق، وأنَّ ما قضاه الله وقدَّره وكتبه هو الواقع لا محالة، فعدم الإيمان من البعض إنَّما هو واقع تحت مشيئته وقدرته وأرادته ﷻ ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ [يونس:٩٩] .

٩٦٠. فيها تمام فضله ﷻ في هداية من يستحق الهداية وتمام عدله فيمن يستحق الضَّلالة فيعطي كلّاً ما يستحقّه بالعدل والقسط.

٩٦١. تفيد: عظيم مكانة المؤمنين فحُقّ لمن آمن بالقرآن أن ينوِّه به الكريم المنَّان.

٩٦٢. يفيد عود الضَّمائر إلى ما قبلها من قوله تعالى: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ﴾ [يونس:٣٨]، ثمَّ قوله ههنا: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ﴾ دلالة على أنَّ بعض الكفَّار كانوا يؤمنون ويصدِّقون بأحقيَّة وصدق رسالة النبي ﷺ في نفوسهم ولكنَّهم كانوا يكتمون ذلك عن أقوامهم، ويظهرون الإعراض والتَّكذيب عناداً ومكابرة وتقليداً؛ كما قال تعالى: ﴿وَهُمۡ يَنۡهَوۡنَ عَنۡهُ وَيَنۡـَٔوۡنَ عَنۡهُۖ﴾ [الأنعام:٢٦].

---

(١)طريق الوصول ١٧٨- ١٧٩.

٩٦٣. كلام الله تعالى وهو الحقّ المبين، أنقسم الخلق بشأنه بين مؤمن وكافر فكيف بما عداه من الكلام، فلا تبتئس إن خولفت ورُدَّ كلامك ولو كان في وجهة نظرك هو دعوة إلى الحقِّ.

٩٦٤. تفيد: بياناً لصدق نبوة ورسالة النبي محمد ﷺ، وتسلية له عمَّا أصابه من عدم إيمان جميع قومه مع ظهور الأدلة والبراهين؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾

٩٦٥. تفيد: إعجازاً غيبيَّاً للقرآن الكريم؛ حيث أخبر بأمر غيبي، فحصل كما أخبر به؛ حيث آمن من المشركين عدد كبير ولم يؤمن عدد آخر.

٩٦٦. تفيد: أهميَّة تقديم النَّماذج الجميلة والرائعة في المجالات التي يتفاوت فيها الإقبال والإعراض؛ وذلك لما تحمله من دلالات وآثار نفسية عميقة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾..

٩٦٧. تفيد: تهيئة النبي ﷺ وأتباعه الفئة المؤمنة لأنواع من العبوديَّات، كالولاء والبراء والصبر وشكر النعمة والدعاء والدعوة إلى الله ومجاهدة أعداء الله، لقوله تعالى " ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾.

وكما قال أبو طالب:

ولقد علمت بأنَّ دين محمد ... من خير أديان البرية ديناً

لولا الملامة أو حذار مسبة ... لرأيتني سمحاً بذاك مبيناً

٩٦٨. أفادت أنَّ عدم الإيمان بالقرآن بمجرَّده مفسدة، فكان فساد الاعتقاد إفساداً في الأرض، إفساد للقلب، وإفساد للعقل، وإفساد للنفس، وإفساد لمن يليه من الزَّوج والولد. وإفساد لمن حوله من البيئة والمجتمع..

٩٦٩. تفيد: مشيئة الله النَّافذة وأنَّ ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

٩٧٠. فيها تخويف وتحذير للمفسدين أنَّ الله عليم بفسادهم وسيحاسبهم عليه.

٩٧١. فيها أنَّ المفسدين حقَّاً هم الذين لا يؤمنون بهذا القرآن.

٩٧٢. فيها تهديد ووعيد لمن سلك الصَّدّ عن سبيل الله ﷻ وصرف عباد الله عن هدي الله ﷻ وصراطه المستقيم ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

قال تعالى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس:٤١]

٩٧٣. تفيد: أنَّه إذا أدَّى الدَّاعية ما عليه وقال بما أوجبه الله عليه من الدَّعوة والبيان والنُّصح، فإنَّ هذا هو غاية ما يستطيعه، فقد أعذر، ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾.

٩٧٤. أنَّ الذي يدعو الناس إلى الحقِّ سيقابل بالتكذيب فيا أيها الداعي إلى الحقِّ لا تسأم مما يقابلك، فأنت على الحقِّ؛ لأنَّ من سنن الله في طريق الدعوة أن يقابل الناس الداعي إلى الحقِّ بالتكذيب والإعراض والصدّ، أنَّ طريق الدعوة محفوف بمثل هذا الابتلاء.

٩٧٥. تفيد: عدم قابليَّة المحل للهداية من تعطُّل أجهزة الاستجابة وانتكاس الفطرة وطمس القلوب وجمود العقول والتبعية العمياء وفساد النوايا فأنّى لهم أن يهتدوا.

٩٧٦. فيها سلوى للنبي والدعاة من بعده أنَّ عدم هدايتهم وتكذيبهم لا يعد فشل لدعوته ولا تقصير من جانبه ولا مسئوليته بعد تمام البلاغ وهداية البيان والإرشاد.

٩٧٧. تفيد: سنَّة التدافع والصِّراع بين الحقِّ والباطل، وهي سنَّة كونية تحكم أمر المجتمعات البشريَّة اقتضتها الحكمة الإلهيَّة لتمايز الصُّفوف وتوطين الفئة المؤمنة للصَّبر على البلاء وليعلموا أنَّ الأمر بيده وحده ﷻ.

٩٧٨. تفيد: التَّوجيه الرَّباني للنَّبي بتبنِّي معالم الخطاب الدَّعوي المكي من الوضوح والصَّراحة والمقابلة والمفاصلة والمتاركة في مواجهة المشركين المعاندين المكذِّبين.

٩٧٩. تفيد: أنَّ كلَّ إنسان مؤاخذ بعمله، فيجازى المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته ولا يظلم ربك أحداً.

٩٨٠. تفيد: مقابلة الخصم بالحجَّة والبيان والردّ عليه بالأدلَّة الواضحة البيِّنة المقنعة.

٩٨١. تفيد: أنَّ على الدَّاعية الاستمرار في دعوته والسَّير في طريقه وعدم الالتفات إلى أقوال المرجفين والمكذِّبين.

٩٨٢. تفيد: أنَّ على الدَّاعية الابتعاد عمن صدَّ عن دعوة الخير وأعرض عنها بعد بذل الجهد في دعوته، وتركه يواجه مصيره.

٩٨٣. تفيد: أنَّ الداعية إذا بذل جهده في النُّصح والدَّعوة إلى الخير ولم يجد تجاوباً فقد أعذر.

٩٨٤. تفيد: أنَّ فساد الاعتقاد يؤدي إلى فساد العمل.

٩٨٥. تفيد: أنَّ على الدَّاعية أن يتحرَّر من الانهزاميَّة ورؤية النَّاس وكم من النَّاس اتَّبعه وأطاعه.

٩٨٦. تفيد: أنَّ الداعيَّة لابدَّ له من عمل يراه المدعو وفيه أهميَّة القدوات، لقوله تعالى: ﴿فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾ [يونس:٤١].

٩٨٧. فيها ردٌّ على الجبريَّة لأنَّه نسب العمل إليه وإليهم ﴿لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾.

٩٨٨. فيها أنَّ عمل الإنسان مختص به وحده من خير أو شر دلَّ عليه الحصر في تقديم ما حقّه التأخير الذي يفيد الحصر ﴿لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الإسراء:١٥].

٩٨٩. ﴿أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ﴾ تفيد: أنَّ من تكذيبهم وشكِّهم أنَّ الدَّاعية يدعوهم إلى ما يضرّهم ولا ينفعهم.

٩٩٠. تفيد: أنَّ البراءة أشدُّ ما تكون إذا كانت متبادلة بين أطراف النِّزاع، فلا يبقي أحدهم على ودّ خصمه أو صلته، بل هي مفاصلة تامَّة، فهي مفازة لا تعبر ولا يمكن أن يقام عليها معبر، كما هو حال إبراهيم عليه السلام في قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ [الممتحنة:٤].

قال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ﴾ [يونس:٤٢].

٩٩١. تفيد: ذكر حاسَّة السَّمع كأداة لاكتساب المعارف والعلوم بانضمام البصر والعقل تشكل طرق التَّعلُّم الرئيسيَّة وأدواتها الإذن والعين والقلب.

٩٩٢. تفيد: أنَّه ليس كلّ من استمع اتَّبع.

٩٩٣. تفيد: أنَّ الصَّمم إنَّما هو صمم القلب وليس صمم السَّمع فقد يسمع حقيقة لكنَّه لا ينتفع بما سمع فكأنَّه لم يسمع.

٩٩٤. تفيد: أنَّ الجوارح إذا طمست وأصابها الصَّمم أصبح صاحبها لا يعي عقله ولا يستنير قلبه.

٩٩٥. تفيد: أنَّ العقل إذا لم يعي ما يقال له فهذا يعني أنَّ جوارحه قد عطِّلت.

٩٩٦. تفيد: أنَّ من خلق الله له سمعاً وبصراً وعطَّلهما عن وظيفتهما فهذا يعني أنَّه قد طمس عقله وغلف قلبه.

٩٩٧. يفيد التَّعبير بالجمع في قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ دون قوله: (ومنهم من يستمع إليك) كما قال في الآية التي بعد هذه الآية ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ﴾، وذلك للإشارة إلى كثرة المستمعين لما قاله النَّبي ﷺ ونطق به من كتاب وسنَّة، وذلك بناء على عدم توقُّف الاستماع على ما يتوقَّف عليه النَّظر من الشّروط العاديَّة أو العقليَّة.

٩٩٨. تفيد: أن العقل هو المحرِّك الفعلي للأدوات الأخرى كالسَّمع والبصر وهذا سبق العلوم الطِّبيَّة الحديثة.

٩٩٩. فيها بيان أنَّ الرَّسول ﷺ يملك هداية الدَّلالَّة أمَّا هداية التوفيق فهي محض توفيق من الله تعالى، لقوله ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ﴾.

١٠٠٠. وفيها دلالة صدق كتاب الله حيث لم يتعارض أبداً مع ما يكتشفه العلم الحديث.

١٠٠١. تفيد: أنَّ السَّماع النَّافع هو الذي يكون مع حضور القلب والإصغاء والحرص على معرفة الحقِّ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق:٣٧].

١٠٠٢. فيها ارتباط السَّمع بالعقل، وأنَّ السَّمع من أعظم وسائل العلم.

١٠٠٣. تفيد: أنَّ حاسَّة السَّمع أفضل من حاسَّة البصر؛ وذلك لأنَّ الله تعالى قرن بذهاب السَّمع ذهاب العقل، ولم يقرن بذهاب النَّظر إذهاب البصر، فوجب أن يكون السَّمع أفضل من البصر، كما أنَّ تقديم السَّمع على البصر في العديد من الآيات يدلُّ على ذلك.. ويتَّضح ذلك أكثر في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك:١٠]، فقدَّموا السَّمع على العقل، وجعلوا السَّمع سبباً للخلاص من عذاب السَّعير .... قال ابن القيم في تحقيقه لهذه المسألة نقلاً عن شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمهما الله جميعا: (قال شيخنا: والتَّحقيق أنَّ السَّمع له مزية والبصر له مزية، فمزية السَّمع العموم والشمول، ومزية البصر كمال الإدراك وتمامه فالسَّمع أعمّ وأشمل، والبصر أتمّ وأكمل، فهذا أفضل من جهة شمول إدراكه وعمومه، وهذا أفضل من جهة كمال إدراكه وتمامه).

١٠٠٤. تفيد: أنَّ الكفَّار شرّ وأضلُّ من البهائم والأنعام؛ وذلك لأنَّ البهائم – وإن كانت لا تعقل– إلَّا أنَّها تسمع، ولكن هؤلاء الكفَّار قد جمعوا بين الصَّمم وبين عدم العقل؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ﴾؛ ويشهد لهذا قوله تعالى في آية أخرى: ﴿۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الأنفال:٢٢].

١٠٠٥. تفيد: أنَّ الجوارح والحواس التي لا ينتفع بها كالمعدومة؛ ووجه ذلك: أنَّ هؤلاء الكفَّار لهم سمع؛ ولكنَّهم لما لم ينتفعوا بهذا السَّمع صاروا صمًّا؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ﴾.

١٠٠٦. تفيد: بيان شدَّة بغض الكفَّار لما كانوا يسمعونه من النَّبي ﷺ؛ ولهذا لم يحصل لهم الانتفاع بما كانوا يسمعون.

١٠٠٧. تفيد: أنَّ على الدَّاعية أن يعرف أنَّ استماع المدعو وإصغاءه لحديثه ودعوته لا يعني أبداً إعجابه بكلامه واستحسانه لحديثه؛ وقبوله لدعوته؛ بل قد يكون لدى الشَّخص أغراض ومآرب أخرى مخالفة تماماً؛ ولهذا كان الكفَّار عندما يستمعون القرآن يقولون: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ﴾ [الأنفال:٣١]، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الأنفال:٢١].

١٠٠٨. تفيد: تسلية للنَّبي ﷺ، وأن لا يكترث بعدم قبولهم، فإنَّ الهداية بيد الله.

قال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [يونس:٤٣، ٤٤].

١٠٠٩. فيها من المناسبة أنَّه: لما نفى عنهم أحد وسائل العلم وهو السَّمع نفى عنهم طريق آخر وهو النَّظر.

١٠١٠. وفيها: أنَّ العمى الحقيقي عمى القلب وليس البصر أي: عمى البصيرة وليس عمى البصر.

١٠١١. فيها: أنَّ ديدنهم عدم قبول الحقِّ، ولذلك لا تنفعهم حواسهم.

١٠١٢. فيها: أنَّ الله إذا أراد عدم هدايتهم فلا يملك أحد هدايتهم لا نبي ولا غيره.

١٠١٣. وفيها: تقدير الشَّقاء عليهم من باب كمال عدله سبحانه. وليس ظلماً لهم.

١٠١٤. فيها: الله سبحانه لا يعاقب من لا يستحق العقاب.

١٠١٥. فيها: أنَّه سبحانه لا ينقص من حسنات المحسنين ولا يزيد في سيِّئات المسيئين، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه:١١٢].

١٠١٦. فيها: من عمل خيراً فلنفسه ومن أساء فعليها.

١٠١٧. فيها ردٌّ على الجبريَّة.

١٠١٨. إثبات أنَّ الهداية بيد الله تعالى، لا يقدر عليها ملك مقرّب ولا نبي مرسل.

١٠١٩. تفيد: نفي الظُّلم عن الله تعالى، وذلك لتمام عدله، ويقال مثل ذلك في كلِّ الصِّفات المنفيَّة، لتمام كمال الضِّد، لأنَّ النَّفي المحض ليس بشيء كما قرَّر ذلك شيخ الإسلام في التَّدمريَّة.

١٠٢٠. تفيد: أن هُنَاكَ مَنْ يَنْظُرْ بِالبَصَرِ لَكِنَّهُ لاَ يَرى بِالبَصِيْرَةِ، قال تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف:١٩٨].

١٠٢١. تفيد: تقديم السَّمع على البصر وله شواهد لهذا التقديم وذلك لأنَّ حاسَّة السَّمع دائمة العمل دُون توقُّف، بخِلاف البصر فتتوقَّف بإغماض العين، وإن كان المغمض مستيقظًا، واستدلَّ بعضهم بذكر الله عن أصحاب الكهف أنَّه ضرَب على آذانهم، فكان ذلك أشدَّ دلالةً على الاستغراق في النَّوم لتوقُّف أشدِّ المنبِّهات؛ ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾.

١٠٢٢. تفيد: أنَّ ممَّا يستدلّ به على تقديم السَّمع أنَّه يتأتَّى من جهات استِقبالٍ مُتعدِّدة، عكس البصر لا يكون إلَّا بالمقابلة، ولأنَّ حاسَّة السمع تعمل ليلاً ونهارًا، وفي الظَّلام والنُّور، في حين أنَّ البصر لا يعمل إلَّا في النَّهار والنُّور.

١٠٢٣. تفيد: أنَّ سمت النُّبوَّة وعلاماتها ظاهرة في النَّبي ﷺ لا تخفى إلَّا على أعمى البصيرة؛ لقوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا﴾ ولذلك قال عبد الله بن سلام رضي الله عنه وكان من أحبار اليهود: لما نظرت في وجهه يعني النَّبي ﷺ عرفت أنَّه ليس بوجه كذاب"(١).

١٠٢٤. فيها توجيه إلى النَّظر في آيات الله تعالى المقروءة والمنظورة والنَّظر في سيرة النَّبي ﷺ فهي من أسباب الهداية.

---

(١) السلسلة الصحيحة ٢/١١٣.

١٠٢٥. فيها ذمّ من لا ينتفع ببصره في معرفة الحقِّ ولذلك وصفه بالأعمى، وقال تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا﴾ [الإسراء:٧٢].

١٠٢٦. فيها التَّحذير من ظلم النفس بأنواعه وأعظمه الشِّرك.

١٠٢٧. تفيد: ضمناً أنَّ العمى عمى القلب فالقلب هو مصدر نور البصيرة فإذا طمس نوره؛ وخمد شعاعه اختلت الجوارح وإن كانت قوَّة الباصرة سليمة.

١٠٢٨. تفيد: أنَّ أمر القلوب إلى الله وحده وما يتعلَّق بها من الهداية والبصيرة.

١٠٢٩. تفيد: بأسلوب المخالفة أنَّ البصيرة لا تحتاج إلى البصر فكم من أعمى قادته البصيرة؛ إلى الهداية وإلى الطريق المستقيم.

١٠٣٠. تفيد: ضمناً أنَّ القلب يرى ويعمى ويعضِّد ذلك قوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ [النجم:١١]، ولكن تعمى القلوب التي في الصدور.

١٠٣١. تفيد: بضميمة ما قبلها أنَّ القلب هو مصدر التَّوجيه ومنبع الأوامر ومحور إدارة البدن؛ فإذا صار القلب صمَّاً لا يسمع الحقَّ، وبُكْماً لا ينطق بالحقِّ وعمياً لا يرى الحقَّ؛ هلك صاحبه فإذا فقد القلب نور البصيرة تخبَّطت الجوارح وفسد البدن؛ فصار العبد كالحيوان.

١٠٣٢. فيها نفي الظُّلم عن ربنا ﷻ وأنَّه ﷺ متفضِّل عادل في جميع أفعاله وأحكامه غني عن عباده وطاعاتهم والكلّ مفتقرون إليه.

١٠٣٣. فيها أنَّ من تمام عدله ﷻ وعدم ظلمه أنَّه لا يعذِّب عباده إلَّا بعد إرسال الرسل وإنزال الكتب حيث تقوم عليهم الحجَّة.

١٠٣٤. فيها أنَّ النَّاس هم الظَّالمون لأنفسهم بتعطيل حواسهم عن قبول الحقِّ والإذعان له واستغراقهم في الكفر والمعصية.

١٠٣٥. فيها تسلية للرسول ﷺ ممَّا يجد في نفسه ممَّا يضيق به صدره من التَّكذيب والصَّدِّ عمَّا جاء به من الحقِّ.

١٠٣٦. تفيد: أنَّه قد يحدث نظر بلا رؤية كما قد تحدث رؤية بلا نظر كما في الأحلام حال النَّوم والقرآن يعبِّر عنها جميعاً بالفعل (رأى) و (رأيت) كما في سوره يوسف.

١٠٣٧. فيها مع ما قبلها أنَّ مدار الأمر على القلب؛ قال شيخ الإسلام ابن تيمية: فالأصمّ لا يعلم ما في الكلام من العلم، والضَّرير لا يدري ما تحتوي عليه الأشخاص من الحكمة البالغة وكذلك من نظر إلى الأشياء بغير قلب أو استمع إلى كلمات أهل العلم بغير قلب فإنَّه لا يعقل شيئاً؛ فمدار الأمر على القلب، وعند هذا تستبين الحكمة في قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ [الحج:٤٦] حتى لم يذكر هنا العين كما في الآيات السَّوابق فإنَّ سياق الكلام هنا في أمور غائبة، وحكمة معقولة من عواقب الأمور لا مجال لنظر العين فيها ومثله قوله: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ﴾ [الفرقان:٤٤] وتتبيَّن حقيقة الأمر في قوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق:٣٧] (١).

قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾ [يونس:٤٥]

١٠٣٨. فيها من المناسبة أنَّه لما ذكر ﷻ: النَّظر وآلة الإبصار في الآيات السَّابقة ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ﴾ [يونس:٤٣]، ناسب ذكر ظرفه الزَّماني ﴿إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾.

١٠٣٩. تفيد: دقَّة التَّناسب وروعة التَّناسق مع ما قبلها فبعد أن ذكرت الآيتان السَّابقتان أنَّ الكفَّار يستمعون وينظرون إلى النَّبي ﷺ؛ ذكر عقب ذلك يوم الحشر الذي تتَّجه الأسماع والأبصار إلى النبي ﷺ ليقوم ذلك المقام المحمود الذي يحمده فيه الأوَّلون والآخرون؛ ويشفع الشَّفاعة العامَّة والعظمى لأهل الموقف مؤمنهم وكافرهم..

١٠٤٠. فيها إعجاز نحوي بلاغي رائع إذ كلمة ﴿وَيَوْمَ﴾ نصبت على الظَّرفيَّة متعلِّقة بمحذوف تقديره (واذكر) لتدلّ على سعة ذلك اليوم.

١٠٤١. تفيد: كذلك التَّنبيه والحثّ على قصر الأمل والتَّزهيد في الدُّنيا والتَّرغيب في الآخرة.

١٠٤٢. تفيد: حقارة الدُّنيا على زينتها وبهرجها فلا تضيع فيها الأوقات والأعمار.

١٠٤٣. تفيد: أنَّ النَّاس مجبولة على التَّعارف والاجتماع.

---

(١) مجموع الفتاوى ٣١١/٩

١٠٤٤. تفيد: أنَّ الكفَّار إذا حشـــروا يوم القيامة اســـتقلوا مدَّة مكثهم في دار الدُّنيا أو في البرزخ، حتى كأنَّها قدر ساعة عندهم، وجاء بيان هذا المعنى في مواضع أخر في القرآن الكريم.

١٠٤٥. تفيد: أنَّ أهل المحشر يعرف بعضهم بعضاً، ولكن جاء في عدد من الآيات القرآنيَّة أنَّ هذه المعرفة لا أثر لها؛ إذ لا يسأل بعضهم بعضاً شيئاً.

١٠٤٦. تفيد: بيان عظيم وشـــديد حســـرة الكفَّار في موقف الحشـــر؛ حيث يتعارفون بينهم فيعرف الابن أباه، والأخ أخاه، والصَّديق صديقه، والحميم حميمه؛ ثمَّ لا يقدرون ولا يستطيعون التَّناصر والتَّعاون والتَّضافر فيما بينهم كما كانوا يفعلون في الدنيا.

١٠٤٧. تفيد: هذه الجملة من الآية: ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ على تعارف الأقارب والأصدقاء، ويكون فيه التبرؤ ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ [المعارج:١٠] وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾ [عبس:٣٤]، ومنه تعارف التوبيخ والافتضـاح للضُّـلَّال، ويكون فيه التَّلاوم ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ﴾ [سبأ:٣١].

١٠٤٨. فيها أنَّ التَّعارف مقصد من مقاصد الخلق، بضميمة قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟﴾ [الحُجُرات:١٣].

١٠٤٩. تفيد: أهميَّة إبطال حجج ودعاوى الخصـم بذكر الأمثلة والبراهين الدَّالَّة على بطلانها؛ لقوله تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾. وبيان ذلك: أنَّ المشـركين اسـتندوا في إنكارهم وإحالتهم البعث بشبهة أنَّ طول اللّبث وتغيُّر الأجساد ينافي إحياءها، فكانوا ﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ ۝١٠ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا نَّخِرَةً﴾ [النازعات:١٠، ١١] فقال تعالى في هذه الآية: ﴿كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾ أي: لم يمنعهم طول الزَّمن من الحشر، وأنَّهم حشروا بصفاتهم التي عاشوا عليها في الدُّنيا فكأنَّهم لم يفنوا، وفي ذلك اعتبار بعظيم قدرة الله تعالى على إرجاعهم.

١٠٥٠. فيها الرَّدّ على شـبهتهم التي يسـتندون عليها في إنكارهم للبعث؛ وأنَّه ينافي ما يحصـل من تمزُّق الأجسـام في القبور وانطفاء العقول بالموت، فأوضـحت العبارة القرآنيَّة أنَّه قد عادت لهم جميع آلاتهم الإدراكيَّة من العقل والسَّـمع والبصـر، وحشـروا على الحالة التي كانوا عليها في الدُّنيا في أجسامهم وإدراكهم ﴿كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾.

١٠٥١. تفيد: أنَّ هول الموقف جعل الذين كذَّبوا بلقاء الله ﷻ يستقصروا مدَّة لبثهم في الدُّنيا ﴿كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾.

١٠٥٢. تفيد: أنَّ أعظم الخسارة وأشدّ الخيبة والتَّعاسة على من كذَّب بلقاء الله تعالى.

١٠٥٣. تفيد: إثبات لقاء الله تعالى في الآخرة؛ لقوله: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾

١٠٥٤. تفيد: أنَّ التَّكذيب بلقاء الله تعالى من أعظم الضَّلالة والغواية.

١٠٥٥. تفيد: أنَّ الإيمان بلقاء الله تعالى والاستعداد له طريق للفلاح والهداية إلى الصِّراط المستقيم.

١٠٥٦. يفيد حذف مفعول ﴿خَسِرَ﴾ المبالغة في الوعيد الشَّديد؛ وليذهب العقل كلَّ مذهب في تصوُّر حجم هذه الخسارة، وأنَّها خسارة لا تعادلها خسارة؛ وقد جاء بيان مفعول الخسران في آيات أخرى من القرآن الكريم، وهي خسارة النَّفس والأهل؛ ولا شك أنَّهما خسارتان لا تعادلهما أي خسارة، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الزُّمَر:١٥].

١٠٥٧. تفيد: أنَّ أعظم خسارة هي خسارة النَّفس والأهل ألا ذلك هو الخسران المبين.

١٠٥٨. تفيد: فوز وفلاح المؤمنين برؤية الله تعالى في الآخرة؛ وخسران أهل الاعتزال الذين أنكروا رؤيته ﷻ، وكذَّبوا بالنُّصوص الواردة في ذلك؛ فإنَّ من الإيمان بلقاء الله تعالى الإيمان برؤيته ﷻ في الدَّار الآخرة، وحري بمن أنكرها وكذَّب بها أن يحرم منها ويخسر خسارة لا تعدلها خسارة.

وصدق الشاعر حين قال عن رؤية المؤمنين لربهم:

وينسون النعيم إذا رأوه فيا خسران أهل الاعتزال

١٠٥٩. تفيد: أنَّ مدار الربح والخسران إنَّما يكون في الإتِّباع والاهتداء بالهدى الإلهي؛ فمن اتبعه فهو الرَّابح؛ ومن خالفه فهو الخاسر.

١٠٦٠. تفيد: أنَّ التَّكذيب بلقاء الله تعالى؛ تؤدِّي بالعبد إلى سلب عموم الهداية سواء الدِّينيَّة والدُّنيويَّة والأخرويَّة؛ فيخسر الدُّنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾.

١٠٦١. تفيد: ضرورة إشغال المؤمن وقته وعمره فيما ينفعه في الآخرة، فهؤلاء الكفَّار عندما لم ينتفعوا بعمرهم في الدُّنيا استقلوا مدَّة وفترة بقائهم في الدُّنيا، والمؤمن لما انتفع بعمره وقدَّم لآخرته، لم يستقل تلك الفترة.

١٠٦٢. تفيد: أن يوم الحشر هو يوم ربح وخسارة فيربح المتقون ويخسر الذين كذَّبوا بلقاء الله ﷻ.

١٠٦٣. تفيد: أنَّنا إلى الله صائرون ويوم الحساب مجموعون وعلى تفريطنا نادمون وبأعمالنا مجزيُّون.

١٠٦٤. تفيد: عظمة الرَّب جلَّ وعلا وعظيم قدرته في حشر النَّاس وجمعهم ليوم لا ريب فيه.

١٠٦٥. فيها أنَّ سبب خسرانهم المبين هو التَّكذيب بلقاء القوي المتين وأنَّهم ما كانوا مهتدين؛ دلَّ على ذلك صلة الموصول: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ﴾.

١٠٦٦. تفيد: عظم ما كانوا فيه من الضَّلال وعدم الهداية؛ دلَّ على ذلك قوله: ﴿كَانُواْ﴾ قال تعالى: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ﴾ [يونس:٤٦].

١٠٦٧. تفيد: مناسبة ظاهرة لما قبلها فبعد أن ذكر حشر المكذِّبين في الآخرة للجزاء والعقاب؛ ذكر بعض جزائهم وعقوبتهم في الدُّنيا.

١٠٦٨. تفيد: أنَّ رؤية وقوع العذاب على أعداء الله تعالى يشفي صدور عباد الله الصَّالحين؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ﴾ وعليه؛ فإنَّ المؤمن تقرُّ عينه إذا أصيب عدو الله الكافر بمصيبة.

١٠٦٩. تفيد: أنَّ الكفَّار قد ينتفعون في الدُّنيا ببعض أعمالهم الخيريَّة؛ فيمسك الله عنهم بعض ما وعدهم به من أنواع العذاب والهلاك في الدُّنيا بسبب تلك الأعمال؛ لقوله تعالى: ﴿نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ﴾.

١٠٧٠. فيها أنَّ عذاب الله ﷻ شديد فهذا الذي يرى هو بعضه وليس كلَّه وفي هذا التَّخويف والتَّحذير من أسبابه.

١٠٧١. تفيد: أنَّ الله ﷻ سوف ينتقم من أعدائه عاجلاً أو آجلاً إذا لم يتوبوا ويرجعوا.

١٠٧٢. تفيد: الوعيد الشَّديد للمكذِّبين بأنَّ عذاب الله واقع بهم لا محالة عاجلاً أو آجلاً في حياة النبي ﷺ أو بعد وفاته.

١٠٧٣. تفيد: أَنَّهُ تَعالى يُرِي رَسُــولَهُ أَنْواعًا مِن ذُلِّ الكافِرِينَ وخِزْيِهِمْ في الدُّنْيا، وسَــيَزِيدُ عَلَيْهِ بَعْدَ وفاتِهِ، ولا شَكَّ أَنَّهُ حَصَلَ الكَثِيرُ مِنهُ في زَمانِ حَياةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وحَصَلَ الكَثِيرُ أَيْضًا بَعْدَ وفاتِهِ، والَّذِي سَيَحْصُلُ يَوْمَ القِيامَةِ أَكْثَرُ، وهو تَنْبِيهٌ عَلى أَنَّ عاقِبَةَ المحِقِّينَ مَحْمُودَةٌ، وعاقِبَةَ المُذْنِبِينَ مَذْمُومَةٌ.

١٠٧٤. تفيد: أنَّ الله ﷻ هو الذي يتوفَّى الأنفس، وأنَّ موته عليه السلام موت حقيقي، وما يقوله ويعتقده بعض الصُّوفيَّة في هذا الباب مردود بأدلَّة كثيرة..

١٠٧٥. تفيد: أنَّ الأمور كلَّها بيد الله ﷻ وسـائرة على تقديره ﷻ فلا يقع أمر من الأمور إلَّا في الوقت الذي قدَّره لا يتأخر ولا يتقدم.

١٠٧٦. تفيد: كمال قدرته جل وعلا ونفوذ مشيئته في خلقه بما شاء وقت ما شاء، وأنَّ الأمر أمره والحكم إليه.

١٠٧٧. تفيد: تسلية للنَّبي ﷺ وتطييب قلبه بإيقاع العذاب بالمجرمين عاجلاً أو آجلاً.

١٠٧٨. تفيد: رجوع العباد إلى الله ﷻ مهما طال أمدهم في الحياة وسينبِّئهم بما عملوا.

١٠٧٩. تفيد: أنَّ الله لا يخلف وعده ولكن لحكمة يراها ﷻ قد يتأخَّر.

١٠٨٠. فيها سعة علم الله واطلاعه على أعمال عباده وشهادته عليها ممَّا يورث الخشية والحياء منه ﷻ.

١٠٨١. تفيد: أنَّ الأمور كلَّها بقضاء الله وقدره؛ وهو ﷻ يقدِّر الأشياء وفق حكمته ومشيئته؛ وأنَّ نزول الهلاك والعقوبة في أعداء الله تعالى وإن أبطأ إلَّا أنَّه سـيأتي عاجلاً أو آجلاً، وما على المؤمن إلَّا الصَّبر مع الأخذ بالأسباب.

١٠٨٢. تفيد: أنَّ عقوبة الآخرة أعظم من عقوبة الدُّنيا؛ بل ما عقوبة الدنيا في مقابل عقوبة الآخرة إلَّا جزء قليل وبعض يسير ممَّا أعدَّه الله تعالى لأعدائه من العقوبة والعذاب.

١٠٨٣. فيها أنَّ رؤية العذاب الواقع على الكافرين فيه تسلية وشفاء لصدور المؤمنين..

١٠٨٤. فيها تعظيم الرَّب جلَّ وعلا؛ لقوله: ﴿نُرِيَنَّكَ﴾، ﴿نَعِدُهُمْ﴾، ﴿نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾، ﴿فَإِلَيْنَا﴾ وكلها بصيغة الجمع التي تدلّ على التَّعظيم والإجلال..

١٠٨٥. فيها أنَّ الرُّجوع إلى الله ﷻ وحده لا لغيره ﷻ دلَّ على ذلك الحصر في قوله: ﴿فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ وفي هذا إشارة إلى الاستعداد والإعداد لهذا الرجوع بالإيمان والعمل الصالح.

١٠٨٦. فيها ردٌّ على الجبريَّة لأنَّه نسب الفعل إليهم فهو من كسبهم وفعلهم..

١٠٨٧. تفيد: تنبيه النبي ﷺ إلى أنَّ وظيفته الانشغال بإنذار وتبليغ المشركين دون أن ينتظر نتيجة بلاغهم بحلول ما أوعدهم الله من العذاب حال حياته أو بعد مماته.

١٠٨٨. وفيها أنَّ الدَّاعية عليه بالظَّاهر وليس من مهامه مراقبه أعمال العباد بل الله وحده شهيد عليهم مطلع على أعمالهم.

١٠٨٩. تفيد: استمرار ظهور علامات صدق النبي ﷺ بعد وفاته إلى قيام السَّاعة؛ فهو عليه السلام قد أخبر ببعض موعودات الله تعالى في أعدائه؛ فكانت كما أخبر ﷺ.

١٠٩٠. تفيد: أنَّ الوعد والوعيد يتفرَّع عن أصل مقتضى العدل، إذ تقتضي العدالة الإلهيَّة أن يثيب الأخيار وأن يعاقب الأشرار.

١٠٩١. تفيد الجملة في قوله تعالى: ﴿نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ أي فتراه أمَّتك من بعد وفاتك ذلك الموعود.

١٠٩٢. تفيد: أنَّ الوعد والوعيد يستعمل الأول منهما ترغيباً في ثواب الله والثَّاني ترهيباً من عذاب الله.

قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ۖ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [يونس:٤٧]

١٠٩٣. تفيد: عناية الله بالأمم وأنَّه لم يهمل أمَّة قط.

١٠٩٤. فيها أنَّ كلَّ رسول إنَّما هو شهيد على قومه "ولكلِّ أمَّة رسول شاهد عليهم، فإذا جاء رسولهم يوم القيامة قضي بينهم.

١٠٩٥. تفيد: بضميمة ما قبلها من الآيات وجوب طاعة الرَّسول، وأنَّه إنَّما أرسل ليطاع بإذن الله، ولبيان دين الله وكونه شاهداً على قومه. قال الإمام الخطابي رحمه الله: لم يترك رسول الله شيئاً من أمر الدِّين قواعده وأصوله، وشرائعه، وفصوله، إلَّا بيَّنه وبلَّغه على كماله وتمامه"[(١)].

١٠٩٦. تفيد: الإعذار ببلوغ الحجَّة بإرسال الرُّسل.

---

(١) لم أقف عليه.

١٠٩٧. تفيد: أهميَّة دراسة قصص الأنبياء وأحوالهم مع أقوامهم واستخلاص الدروس والعبر من خلال سيرتهم فإنَّهم – صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين هم قدوة للحكَّام والمحكومين، وقدوة للعلماء والدُّعاة، والعامَّة والخاصَّة، والأغنياء والفقراء، والصَّحيح المعافى والمريض الذى نزل به الدَّاء، والأدلَّة على ذلك متوافرة في كتاب الله ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ﴾ [الأنعام: ٩٠]، وقال تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ﴾ [هود: ١٢٠].

١٠٩٨. تفيد: فضل الله ورحمته وكريم لطفه في إرسال الرُّسل حيث لم يترك النَّاس هملاً ولم يخلقهم سدأً بل أرسل إليهم الرُّسل تدعوهم إلى الخير وإلى ما فيه نجاتهم وسعادتهم في الدَّارين.

١٠٩٩. تفيد: دقَّة الحساب ورهبته حيث قضاء الله بالقسط والعدل فلا تظلم نفس شيئاً.

١١٠٠. تفيد: وعد الله الحقّ في يوم القيامة وحضور الخلائق جميعاً ويأتي كلُّ رسول مع أمَّته.

١١٠١. تفيد: شرف هذه الأمَّة وإن كانت آخر الأمم في الفصل بينهم قال ابن كثير: أنَّ هذه الأمَّة هي الأمَّة الشَّريفة وإن كانت آخر الأمم في الخلق إلَّا أنَّها أوَّل الأمم يوم القيامة يفصل بينهم ويقضى لهم [1].

١١٠٢. تفيد: وجوب القضاء بالعدل بين النَّاس من باب التَّخلُّق بمقتضى اسم الله وصفته.

١١٠٣. تفيد: عدم انقطاع الرِّسالة عن الأمم منذ آدم عليه السلام إلى يومنا هذا.

١١٠٤. تفيد: كثرة الرُّسل لتناسبها مع كثرة الأمم.

١١٠٥. فيها فضل النَّبي ﷺ حيث أرسل إلى كافَّة النَّاس ولم يرسل إلى قومه خاصَّة.

١١٠٦. فيها العناية بالمرسل إليهم بنسبة الرَّسول إليهم ﴿رَسُولُهُمْ﴾

١١٠٧. تفيد: هذه الجملة من الآية: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ وتؤكِّد العدل والقسط وتدفع توهُّم الظُّلم حين يجازي المجرم ويقع عليه العذاب.

١١٠٨. كرامة الإنسان على الله بملاحظة عظمة المرسِل (الله عز وجل) وعظمة المرسَل (الرُّسول) وعظمة الرِّسالة (القرآن لأمَّة النَّبي).

١١٠٩. وفيها استيفاء جميع اشتراطات التَّقاضي بالقسط من معلوميَّة الدَّعوى بالرِّسالة المسبقة، لقوله تعالى: ﴿قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ﴾، قد أعذر من أنذر، وحضور المدعي

(١) تفسير ابن كثير ٤/ ٢٧٢.

١١١٠. عليهم ونشر البيّنات ﴿ ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا﴾ [الإسراء:١٤]، وحضور أكثر من شاهد من الملائكة والرَّسول والمؤمنين والأعضاء ﴿وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ [يس:٦٥] وفوق كلّ ذلك عدل الدَّيَّان ﷻ.

قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [يونس:٤٨]

١١١١. تفيد: أنَّهم يكرِّرون هذا القول ويعيدونه دائماً استبعاداً وإنكاراً، دلَّ على ذلك الفعل المضارع: ﴿وَيَقُولُونَ﴾.

١١١٢. فيها أنَّه لا يلزم من صدق الوعد أن يعرفوا متى هو فهو حقّ وإنَّما أخفي زمانه لحكم بالغة.

١١١٣. فيها مكانة الصِّدق، وأنَّه من جوامع الأخلاق التي يتفق عليها رغم كفرهم وتكذيبهم بآيات الله وردِّهم لرسوله وما جاء به.

١١١٤. تفيد: بيان حال أكثر النَّاس مع المرسلين المنذرين فحالهم: أنَّهم يستهزئون ويسخرون بهؤلاء المرسلين فإنَّ السُّؤال الوارد في الآية. سؤال الأقوام لرسلهم. وردٌّ على وجه الاستهزاء والسُّخرية.

١١١٥. تفيد: بيان حال أكثر النَّاس حيال الإيمان بذلك اليوم، فحالهم عدم اليقين به وعدم الإيمان به لذا هم يستهزئون ويسخرون بهؤلاء المرسلين.

١١١٦. تكرَّرت هذه الآية بنصِّها في القرآن ست مرات ولم يسألوا مرة كيف نعد للقيامة؟

١١١٧. تفيد: أنَّهم مشتركون في التَّكذيب على تتابع الرُّسل، وأنَّ الكفر ملَّة واحدة.

قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي ضَرّٗا وَلَا نَفۡعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَلَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ﴾ [يونس:٤٩]

١١١٨. فيها: من المناسبة أنَّه: عندما أحدثوا شبهة تأخُّر الوعد أمر نبيَّه هنا بالرَّدّ ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي ضَرّٗا وَلَا نَفۡعًا﴾.

١١١٩. فيها: إنزال العذاب للأعداء والنُّصرة للأولياء لا يملكه إلَّا الله.

١١٢٠. وفيها: أنَّ النَّبي ﷺ لا يملك لنفسه ضرّاً ولا نفعاً في الدُّنيا والدِّين إلَّا بإرادة الله ومشيئته.

١١٢١. وفيها: موعظة بليغة لكلِّ من يتعلَّق بالرَّسول ويطلب منه ما لا يقدر عليه أو يستغيث به من دون الله.

١١٢٢. فيها الرَّدُّ على شبهات كلّ زمان -وإن هي تشابهت- وعدم إهمالها، إن لم يكن طمعاً في هداية السَّائل، فحدَّاً للشُّبهة من الانتشار.

١١٢٣. تفيد: أنَّه ينبغي دراسة الإجابة على الشُّبهات وألَّا تكون اعتباطيَّة، وليكن فيها من الجواب ما فيه زيادة على السُّؤال ذاته.

١١٢٤. فيها بلاغة القرآن الكريم حيث قدّم وصف النَّذير على وصف البشير، هنا: لأنَّ المقام خطاب المكذِّبين المشركين، فالنّذارة أعلق بهم من البشارة"[١].

١١٢٥. فيها عناية الله تعالى بنبيِّه ﷺ ومن تبعه بتلقينهم الحجج التي يردُّون بها الباطل والشُّبهات.

١١٢٦. فيها النَّهي عن الغلو في النَّبي ﷺ وإعطائه مرتبة الألوهيَّة لأنَّه لا يملك لنفسه ولا لغيره ضرَّاً ولا نفعاً إلَّا ما شاء الله كما نصَّت الآية، وفي هذا ردّ على أمثال البوصيري الذي يقول مخاطباً رسول الله ﷺ:

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به ... سواك عند حدوث الحادث العمم

فإنَّ من جودك الدُّنيا وضرَّتها ... ومن علومك علم اللَّوح والقلم

١١٢٧. فيها إثبات القدر وأنَّ لكلِّ أمَّة أجل.

١١٢٨. فيها تطمين القلوب أنَّ الأجل لا يتقدَّم ولا يتأخَّر فلا يخاف من وباء ولا يجزع من بلاء.

١١٢٩. تفيد: بطلان ما يدعيَّه البعض من جلب النَّفع ودفع الضُّر عن النَّاس من دون الله.

١١٣٠. تفيد: كمال ربوبيَّة الله وأنَّ الأمر أمره والحكم حكمه.

قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس:٥٠]

١١٣١. مناسبة الآية لما قبلها أنَّه لما سألوا ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ [يونس:٤٨] جاء الجواب تلقينا للنبي ﷺ.

---

(١) التحرير والتنوير ٩/٢٠٩.

١١٣٢. تفيد أنَّ الرسول مأمور بالبلاغ وأنَّ ليس له من الأمر شيء، وأنَّ الأمر كلَّه بيد الله فيما يخص جزاءهم وعذابهم ﴿قُلْ﴾.

١١٣٣. فيها عناية الله بنبيِّه الكريم ودفاعه عنه، لقوله تعالى: ﴿قُلْ﴾.

١١٣٤. تفيد فداحة العذاب وعِظمه؛ بدلالة إضافة العذاب لله ﷻ قال ﷻ: ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ [الحِجر:٥٠].

١١٣٥. يفيد: ورود "إنَّ" بدلاً عن "إذا" أنَّه إن شاء الله أوقع عليهم العذاب في الدنيا، وإن شاء لم يقع، وأخَّرهم إلى الآخرة فهو الحليم الحكيم.

١١٣٦. قدّم الليل على النهار لأنَّ العذاب يكون في الليل أكثر، وفيه المباغتة خاصَّة مع البيات، قال الطيبي: لأنَّ الخطر بالليل أكثر، فإنَّ انبعاث الشَّرّ فيه أكثر والتَّحرُّز منه أصعب، ومنه قولهم: الليل أخفى للويل، وقولهم: أعذر الليل لأنَّه إذا أظلم كثر فيه الغدر لا سيما إذا كان راكباً فإنَّ له خوف وجل المركوب من النُّفور من أدنى شيء والتَّهوّي في الوهدة" (١).

١١٣٧. تفيد أن مبدأ الثَّواب والعقاب مبدأ أقرَّته شرائع السَّماء، وقامت عليه شرائع الأرض؛ وأنَّه سُنَّة كونيَّة جارية في الدُّنيا قبل الآخرة.

١١٣٨. تفيد أنَّ العذاب يكون بغتة، وأنَّه يعلمه الله وحده، وأنَّه قد يكون ليلًا أو نهارًا.

١١٣٩. تفيد انطماس بصائر هؤلاء المجرمين؛ حيث كان الأجدر بهم المسارعة إلى الإيمان، وليس استعجال العذاب، مثلهم مثل كفَّار قريش الذين قالوا للنَّبي ﷺ: ﴿وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال:٣٢]، وكان الأجدر بهم أن يقولوا اللهم إن كان هذا هو الحقّ من عندك فأهدنا إليه، ولكنَّه طمس البصائر.

١١٤٠. فيها والتي قبلها تواضع النَّبي ﷺ، وعدم استعجاله لهم، فكأنَّه يقول لهم: لا أدري إن شاء الله عذَّبكم أو لا، فَلا أدري متى هو.

١١٤١. ويستفاد منها توجيه الدُّعاة إلى الله بعدم الحكم على النَّاس، والجزم بهلاكهم، أو استعجال العذاب لهم، أو الغلظة معهم، أو التطرُّف ومن ثمَّ الإرهاب ودواعيه.

---

(١) شرح المشكاة للطيبي ٨/ ٢٦٧٨.

١١٤٢. تفيد أنَّه لا رادَّ لحكمه، ولا معارض لمشـــيئته، وأنَّه يقتضـــي عدله مع أعدائه وأنَّهم مستحقُّون له.

١١٤٣. تفيد أنَّ على الدَّاعية اختيار الخطاب الدَّعوي الذي يتناســـب مع حال المدعوِّين؛ فالوعيد بعذاب الله اقتضاه حالهم من الإجرام، واقتضاه كذلك سؤالهم واستعجالهم.

١١٤٤. فيها مهارات الحوار والمجادلة: ومنها أســلوب التَّنزُّل مع الخصــم، بافتراض ما طلبوه ثمَّ إلزامهم باللَّوازم، وكذلك قلب السُّؤال عليهم، ووجه ذلك أنَّهم لما سـألوا: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [يونس:٤٨]، فلنفترض أنَّه أتاكم فماذا أنتم فاعلون؟ وقد كان من هديه ﷺ، إرشـــاد السَّائل، وتقويم السُّؤال، فما سأله سائل متى الساعة" أجابه وماذا أعددت لها"(١).

١١٤٥. تفيد التهويل والتخويف من العذاب، واستنكار استعجاله والنفوس مجبولة على الخوف منه واتقائه، لقوله تعالى: ﴿مَّاذَا يَسۡتَعۡجِلُ مِنۡهُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾.

قال تعالى: ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓۚ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ ٥١ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ﴾ [يونس:٥١، ٥٢]

١١٤٦. تدلُّ على عدم جدوى إيمانهم بعد معاينتهم للعذاب كأنَّها توبِّخهم على ضـياع الفرصـة منهم وفواتها.

١١٤٧. تدلُّ على قاعدة (زيادة المبنى الذي يدلُّ على زيادة المعنى) فإنَّ "ما" إذا وقعت بعد "إذا" تكون زائدة مبنى، زائدة معنى، قال النَّاظم:

يا طالبا خذ فائدة "ما" بعد "إذا" زائدة

وبعضهم يتحاشى هذه التَّسمية من باب الأدب مع الله، ويسميها حروف الصِّلة.

١١٤٨. تفيد مكانة الإيمان بالغيب ويدخل فيه الوعد والوعيد ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة:١، ٢، ٣].

(١) أخرجه البخاري ١٢/٥، ومسلم ٢٠٣٢/٤.

١١٤٩. تفيد سُنَّة الله في شرعه، وكونه أنَّه لا ينفع الإيمان حين حلول عذاب الله، فإنَّ سُنَّة الله في عباده أنَّه يعتبهم إذا استعتبوه قبل وقوع العذاب، فإذا وقع العذاب لا ينفع نفسًا إيمانها. قال تعالى: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ﴾ [غافر:٨٥].

١١٥٠. تفيد أنَّ الشَّقي حقًّا من جمع الله له بين عذاب الدُّنيا والآخرة.

١١٥١. تفيد أهميَّة مراجعة النَّفس، وإحسان العمل في دار العمل قبل أن يحلَّ العذاب، وينتقل العبد إلى دار الجزاء.

١١٥٢. تفيد خطورة الظُّلم خاصَّة الظُّلم الذي يتعلَّق بحقِّ الله من الإشراك به والكفر بآياته وغير ذلك.

١١٥٣. تفيد أنَّ عذاب الله تعالى إذا حلَّ بقوم لا يستطيعون دفعه؛ ولذا وقع الاستسلام والإيمان.

١١٥٤. تفيد أنَّ عذاب الآخرة يقع على حسب كسب العبد في الدنيا ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [يونس:٥٢].

١١٥٥. تفيد رحمة الله بتكرار التَّحذير من العذاب، وتعدُّد طرق التَّذكير به والتَّخويف منه.

١١٥٦. تفيد غباء وجهل الكافرين حيث استعجلوا ما لا سبيل لهم بدفعه إذا حلَّ بهم، ولا مصلحة لعاقل في استعجاله.

١١٥٧. تفيد: أهميَّة الاستفادة من الأساليب القرآنيَّة في تدريب الدُّعاة على استخدامها في دعوتهم.

١١٥٨. تفيد: خطورة ترك العمل الصَّالح في وقته، وفعله في غير وقته، فالإيمان له وقت يقبل فيه، وله وقت لا يقبل فيه وكذلك بقيَّة الأعمال الصَّالحة.

١١٥٩. تدلُّ أنَّه بعد انتهاك سِتْرِ الغيب لا يُقْبَلُ تضرعُ المعاذير. ويقال لا حُجَّة بعد إزاحة العلَّة، ولا عذْرَ بعد وضوح الحجَّة" [(١)].

١١٦٠. تفيد عظم العذاب المعنوي الذي يلحق الكافرين يوم القيامة حين تقول لهم الملائكة من خزنة جهنم لقوله تعالى: ﴿ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ﴾.

---

(١) تفسير القشيري ٢/١٠٠.

١١٦١. فيها بلاغة القرآن الكريم في استعمال أسلوب الاستفهام في الآيتين لغرضين مختلفين. والاستفهام من أجمل الأساليب البلاغيَّة.

١١٦٢. يدلُّ بناء الفعل لما لم يسم فاعله في قوله: ﴿ثُمَّ قِيلَ﴾ على تعدُّد من يقول لهم ذلك على سبيل التَّقريع والتَّوبيخ.

١١٦٣. تدلُّ على أنَّ الظُّلم، وأعظمه الشِّرك هو سبب عذابهم وإهانتهم، بدلالة صلة الموصول في قوله: ﴿لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾.

١١٦٤. فيها ردٌّ على الجبريَّة لقوله: ﴿تَكْسِبُونَ﴾ فأعمالهم كسب لهم يحاسبون عليها.

قال تعالى: ﴿وَيَسْتَنْبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [يونس:٥٣]

١١٦٥. فيها من المناسبة أنَّه: لما أخبر سبحانه أنَّ الكفَّار قالوا ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [يونس:٤٨]، وأجابهم عليه، ذكر عنهم سبحانه سؤالهم مرَّة أخرى، وهذا فن من فنونهم ما بين تكذيب وتظاهر.

١١٦٦. فيها: تعنُّت الكافرين، فلم يقل (يسألونك) لأنَّ سؤالهم متضمِّن للاستهزاء والتَّهكُّم.

١١٦٧. وفيها: أنَّهم يعلمون حقيقة الأمر لكنَّهم يجادلون.

١١٦٨. يفيد تقديم الخبر ﴿أَحَقٌّ هُوَ﴾ فلم يقولوا (أهو حق) لبيان ما هو متقرر في أنفسهم من أنه باطل..

١١٦٩. فيها بيان الشك المتغلغل في صدورهم إذ قالوا ﴿أَحَقٌّ﴾ ولم يقولوا (أصدق.. أصحيح..) وهذا لامتلاء صدورهم بالتكذيب.

١١٧٠. فيها أنَّ كلمة ﴿إِى﴾ بمعنى نعم التي تستخدم في اللَّهجات الدَّارجة للإثبات والتَّأكيد أنَّها فصيحة مع إضافة هاء السَّكت.

١١٧١. وفيها: طول النفس في حوارهم وإقناعهم وهذا فن بديع من فنون القرآن.

١١٧٢. وفيها: التَّذكير بقدرة الله.

١١٧٣. وفيها: أنَّ كثرة الحلف والقسم مكروه، ويستحب لمصلحة شرعيَّة.

١١٧٤. وفيها: الجدِّيَّة في الحوار بالأدلَّة والبراهين.

١١٧٥. تفيد خطر وأهميَّة وعظم مكانة يوم القيامة وما فيه من الثَّواب لمن أحســـن، والعقاب لمن أساء وكذَّب وتكبَّر، وتجبَّر أمثالهم، لقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَۖ قُلْ إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾.

١١٧٦. فيها الدّلالة على تكرار الاســـتنباء وتجدُّده واســـتمراره ودليله الإتيان بصـــيغة الفعل المضارع.

١١٧٧. تفيد عظم تكذيبهم وشـــدَّة عنادهم وتعنُّتهم وتهكُّمهم واســـتهزائهم، لا طلبهم للحقِّ والبيان والاسترشاد من رسول الله.

١١٧٨. تفيد فطنة الدَّاعيَّة ودرايته بحال المدعوّين وطبيعة خطابهم واستقصاء مرادهم، والوقوف عند ما يرمون إليه من وراء جدالهم وذلك بدلالة الرَّدّ القوي المفحم عليهم.

١١٧٩. تفيد تناقض ومكر أهل الباطل وظهورهم بمظهر المريد للحقِّ الطَّالب له المتمسِّـــك به وهم أبعد الناس عن ذلك بل باطنهم التَّكذيب والافتراء والتهكُّم والتَّعنُّت.

١١٨٠. تفيد عناية الله برســـوله والدعاة إلى الله، بإلهامهم حجّتهم وإظهار الحقِّ على مقالهم ولسان حالهم.

١١٨١. تفيد الجدال بالتي هي أحســـن والتَّنزُّل في الحوار معهم والرَّدّ عليهم على وجه البيان والإرشاد لما فيه نفعهم وإرادة الخير لهم وإحقاق الحقِّ وإبطال الباطل ﴿قُلْ إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّۖ﴾.

١١٨٢. فيها ترفُّع الدَّاعية عن مجاراة الخصـــم في تهكُّمه وتكذيبه دون دليل ولا برهان بالاكتفاء علي بيان الحقِّ بأوجز عبارة وأبلغ ردٍّ.

١١٨٣. من أســـاليب أعداء الدِّين ودعاة الضَّـــلال، إثارة الأســـئلة بوجه ظاهره البحث والتوثق من المعلومة وإرادة الحقيقة وعدم تسليم العقل وباطنه تشكيك الأتباع وإحباط الدعاة.

١١٨٤. فيها أنَّ: هذه الآية هي إحدى ثلاث آيات أمر الله رسوله بالقسم، في سبأ قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ﴾ [سبأ:٣]، في ســـورة التغابن قال الله تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ﴾ [التغابن:٧]، وهي ثلاث آيات فقط في القرآن كلِّـه، وهو قسم على أمر عظيم جداً.

١١٨٥. فيها تأكيد الرَّدِّ عليهم بأتمّ وجوه التَّأكيد وذلك بالإتيان بـــــ ﴿إِى﴾ لإفادة التَّحقيق والتَّأكيد ثمَّ القسم مع بيان سلطانه وملكه وسطوته مقابل عجزهم عن الهرب من عذابه أو ردِّه أو الخلاص منه.

١١٨٦. تفيد مكانة القرآن وجهاد الكلمة وذلك في مقابلة شـدَّة الإنكار بقوة التأكيد إفحاماً للخصم وبيان ضعفه وقلَّة حيلته من بابٍ وتثبيت المؤمنين ببيان الحقِّ من باب آخر.

١١٨٧. تفيد مكانة الإيمان باليوم الآخر وخطورته في دين وعقيدة المؤمن وأنَّ من لا يؤمن به لا ينتفع بكلام الله ولا حججه وآياته البيِّنات.

١١٨٨. فيها مشروعية القسم لتوكيد الكلام.

١١٨٩. فيها أنَّ القســـم لا يكون إلا بالله ﷻ وحده؛ وفي الحديث: "من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك"(١).

١١٩٠. فيها تأكيد وتحقق وقوع العذاب يوم القيامة.

١١٩١. فيها: تعليم للمسلم، أن يلين للسائل وأن يجيبه؛ لا أن يردَّه ويتعنَّت معه – بل وصل من جميل صنع القرآن، أن أمره أن يحلف على الجواب.. وعليه: فالحلف، لا ينقص ولا يضعف من شأن المتحدث – كما شاع عند البعض.

١١٩٢. يفيد تذييل الآية على أنَّهم لن يؤمنوا ويصـــدقوا ولو حلف لهم بربِّه فإنَّ العذاب سيدركهم ولن يفلتوا منه.

١١٩٣. وفيه أنَّ الجواب من شـــقَّين؛ أولهما: أنَّه حقٌّ، وثانيهما: تقرير أنَّهم ما هم بهاربين أو مفلتين من العذاب.

١١٩٤. وفيها أنَّ العالم يجيب على سؤال السائل ويزيده إن تطلب الأمر.

١١٩٥. تفيد أنَّ اللين في الخطاب الدعوي لا يتعارض مع الوضوح وبيان الحقِّ وأوجه العقاب.

١١٩٦. تفيد أنَّه لا مكان للمجاملة والتملُّق للمخالفين في دين الله.

١١٩٧. فيها أنَّ من أساليب الدعاة وأصحاب الحقِّ عند محاورة ومجادلة أهل الباطل التَّنقُّل بين إثبات الحقِّ إلى التَّحدي والتَّهديد وإظهار القوة ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾

(١) صححه الألباني في صحيح الجامع ١/١١١٥.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ ۗ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ ۖ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [يونس:٥٤]

١١٩٨. فيها مع ما سبق ذكره في الآية قبلها من أنَّهم غير معجزين من العذاب فلمَّا عاينوه على وجه الحقيقة تمنوا لو يفتدوا أنفسهم، ولكن هيهات.

١١٩٩. فيها التَّحذير من الظُّلم وبيان عواقبه الوخيمة.

١٢٠٠. فيها الحثّ على ترك الظُّلم والتَّظالم والافتداء والتَّحلل ممن ظلمهم الآن قبل فوات الأوان وقبل أن لا يقبل منه ولو كان كلّ ما في الأرض؛ وقد قال النبي ﷺ: "مَن كانَتْ له مَظْلَمَةٌ لأخِيهِ مِن عِرْضِهِ أَوْ شيءٍ، فَلْيَتَحَلَّلْهُ منه اليَومَ، قَبْلَ أَنْ لا يَكونَ دِينارٌ وَلا دِرْهَمٌ، إنْ كانَ له عَمَلٌ صالِحٌ أُخِذَ منه بقَدْرِ مَظْلَمَتِهِ، وإنْ لَمْ تَكُنْ له حَسَناتٌ أُخِذَ مِن سَيِّئاتِ صاحِبِهِ فَحُمِلَ عليه"(١).

١٢٠١. تفيد أن لا خِلّ ولا حبيب يشاطرهم آلامهم ومصابهم فأسرُّوها في أنفسهم.

١٢٠٢. أفادت الآية إثبات الظُّلم للنفس المكلَّفة ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ﴾، وخُتمت بنفيه عن الله تعالى ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾؛ ودلَّ ذلك على: أنَّ أفعال الله تعالى تدور بين فضله وعدله ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ [النحل:٩٠] لا ظلم فيها بوجه من الوجوه. وفيها الجمع بين نفي الظُّلم عن الله تعالى وإثبات كمال عدله ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

١٢٠٣. وفيها جمع آخر بين المتضادات فبالإضافة لجمعه بين ظلم النَّفس وعدل الله، جُمع بين السَّعي لفداء النَّفس بما في الأرض الذي كانت مكمن وموطن بلائها، والإسرار في موطن الإشهار.

١٢٠٤. وفيها التَّزهيد في الدُّنيا، وهوانها على الله تعالى ﴿مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ﴾.

١٢٠٥. وفيها أنَّ النَّدم توبة؛ ينفع صاحبه إذا صدر منه في الدُّنيا لا في الآخرة.

١٢٠٦. فيها: عظم عذاب يوم القيامة حتى إنَّ الكافر لَيودّ أن يفتدي منه بما في الأرض جميعاً..

---

(١) أخرجه البخاري ١٢٩/٣.

١٢٠٧. فيها: أنَّ فهوم العلماء تباينت فيما يتعلَّق بالمراد من المقصود بمفردة الظلم هنا، حيث عامَّة المفسرين على تفسيره بالشِّرك والكفر.. وفهمه على عموم اللفظ ومنهم البيضاوي. وعلى التفسير الأول تنسجم الآية مع نظيراتها في إرادة الكافر افتداء نفسه يوم القيامة ولكن على عموم الظُّلم تتضمَّن الآية أعظم الرَّدع عن الظُّلم والتَّظالم من جهة أنَّ الظُّلم ولو كان في اعتقاد الظَّالم يسيراً إلا أنَّه عند الله عظيم، ويُسِرُّ الظَّالمون النَّدامة عند رؤية العذاب فتتضاعف عليهم العقوبة ويفصل الله بينهم وينصر المظلوم فتكتمل العقوبة على الظَّالم.

١٢٠٨. فيها عظيم ما يعانيه المجرمين الظَّالمين من العذاب النَّفسي يوم القيامة، فأشدّ ما يعانيه الإنسان من الألم كبت مشاعره حتى إنَّه لا يستطيع أن يظهر ندامته ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۖ﴾.

١٢٠٩. كمال عدل الله تعالى فلا يُظلم عنده أحد.

١٢١٠. تفيد أنَّ مدار الأمر يوم القيامة نفعاً وضراً ومكسبًا ومغرماً وفوزاً وخسارة إنَّما مداره على ما قدَّم الإنسان من الأعمال الصَّالحة والأعمال الطَّالحة فحسب.

١٢١١. تفيد حقارة الدُّنيا قليلها وكثيرها يوم القيامة.

١٢١٢. تفيد أنَّ أعظم الخسارة خسارة النَّفس التي بين جنبينا، وأنَّ أي خسارة فهي دونها، لذا لها استعداد الفداء بكل ما سواها ممَّا في الأرض.

١٢١٣. فيها أنَّ من تمام النُّصح، ضرورة إيصال هذه الصُّور في الآيات لغير المسلمين، المعنيين الأوائل فيها، وعدم الاقتصار في ذلك على الترجمات للمصحف التي لا يقصدها إلا القلَّة القليلة. واستخدام التَّقنيات الحديثة في الإعلام والتواصل الاجتماعي لإيصالها. فلا تكون حبيسة مصاحفنا لا تصل للمخاطبين بها.

١٢١٤. تفيد التَّنبيه والنَّظر للعواقب لتفادي الغبن يوم التغابن.

١٢١٥. فيها بيان دَّقة الحساب يوم القيامة حيث قضاء الله العادل بالقسط الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها.

١٢١٦. تدلُّ على أنَّ التوحيد لابدَّ فيه من النَّفي والإثبات، وأنَّ من قواعد توحيد الأسماء والصِّفات أنَّ النَّفي لابدَّ أن يتضمَّن كمال الضِّدّ لأنَّ النَّفي وحده سلب، والسَّلب لا مدح فيه؛ فنفي الظُّلم عنه لكمال عدله ونفي السنة والنَّوم لكمال حياته وقيوميَّته وهكذا.

١٢١٧. فيها إشارة إلى الإنفاق قبل أن يأتي وقت لا يقبل فيه ولو أنفق ملأ الأرض، اليوم يقبل مثقال الذَّرة وغدًا لن يقبل ملء الأرض ذهباً.

١٢١٨. تفيد صيغة الجمع عدم انتفاعهم بجمعهم يوم القيامة، ويستفاد من ذلك أنَّ الحساب فردي، وكلّ يحاسب بجريرته، وأن لا تأسي بين المجرمين يوم القيامة وأنَّ كلَّ وشائج الصِّلة ستنقلب عداوات ﴿وَأَسَرُّواْ﴾ و ﴿رَأَوُاْ﴾ ومن ذلك قوله تعالى ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ إِذ ظَّلَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ فِي ٱلۡعَذَابِ مُشۡتَرِكُونَ﴾ [الزُّخرُف:٣٩].

١٢١٩. تشير زيادة الألف والصيغة الاسمية في كلمة ﴿ٱلنَّدَامَةَۖ﴾ إلى استمرارية الحالة والاتسام بها تماماً، والنَّدم: هو الحالة الشعورية المرتبطة بالفعل الخاطئ الذي يقوم به الإنسان والذي كان بإمكانه ألَّا يقوم به، وفي نفس الوقت فإنّ نتائج ذلك الفعل يتضرر منها الإنسان نفسه بصورة أكبر ممَّا كان يتوقع، كما فعل ابن آدم عندما قتل أخاه فأصبح من النَّادمين، وكما فعل الذين عقروا النَّاقة فأصبحوا من النَّادمين. ويختلف النَّدم عن الحزن والغضب والدَّهشة بأنّه: انفعال مرتبط بالوعي الذَّاتي، فالغضب والحزن الدَّهشة من الانفعالات التي تتعلَّق بمصدر خارجي يثير الانفعال، بينما النَّدم يعكس النَّقد الدَّاخلي للذات، وتقييم العمل، ومعرفة النَّتائج السَّيِّئة غير المتوقعة، ولذلك يسعى المجرمون لكي يخفوا هذه النَّدامة بمحاولة إسرارها، ولكنَّهم لن يستطيعوا؛ لأنّ تعبيرات وجوههم تظهر خزيهم وسوء وجوههم.

١٢٢٠. إذا كانت الدنيا كلّها لا تصلح ثمناً للفداء فكيف بمن باع آخرته بعرض منها ؟.

١٢٢١. تشير إلى أنَّ كلّ ما ينفقه الإنسان من مال أو جاه أو جهد و كلّ ما يملك إنَّما هو قليل ﴿فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَۗ﴾ [آل عمران:١٨٥].

١٢٢٢. تفيد أنَّ أشدَّ أنواع النَّدم هو ما يكون على التَّقصير في حقِّ الله تعالى والذي هو التَّوحيد، والوقوع في الشِّرك بالله أعظم الظُّلم.

١٢٢٣. تفيد التَّنبيه للتَّخلُّق بمقتضى صفات الله من كمال العدل، وبسط القسط مع الأعداء، وعدم إلحاق الظُّلم بهم رغم العداوة والبغض.

قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [يونس:٥٥]

١٢٢٤. فيها استعمال كلمات التَّنبيه في لفت الأنظار للأمور العظيمة المهمَّة وهذا ممَّا يحتاجه الدُّعاة والخطباء والمعلِّمون.

١٢٢٥. تفيد أنَّ الله هو المتفرِّد بالملك، وإذا تقرَّر في الأذهان أنَّ الله هو الذي له ملك السماوات والأرض فيتقرَّر أنَّ وعده حقّ فهو المتصرف في ملكه متى ما شاء كيف شاء.

١٢٢٦. تفيد التَّنبيه مع التَّأكيد من الله ﷻ فيصير ما بعده بمثابه البيان الهام فلنرعها سمعاً ﴿أَلَآ إِنَّ﴾.

١٢٢٧. فيها أنَّه ما زالت الآيات تترى بإجابة لسؤالهم ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [يونس:٤٨]، ويدل على أمور منها: طول النفس في الرد على المخالفين و تعليم الجاهل إفراغ ما في الوسع من الأدلة والبراهين إقامة الحجة والبراء الذمة بقدر المستطاع التحلِّي بالصبر والحلم.

١٢٢٨. اشتملت الآية المباركة على أداتي تنبيه لحقيقتين مهمَّتين؛ ثمَّ تذييل لهما ولما تقدّمها من الحقائق التي لا يعلمها أكثر المكلفين من الثقلين؛ وبيانه والله أعلم على النحو التالي:

أمَّا الأداة الأولى للتَّنبيه فهي ﴿أَلَآ﴾ في أول الآية؛ للتنبه على حقيقة ملك الله تعالى لما في السموات والأرض ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾؛ التي يترتَّب عليها الحقيقة الثانية والتي سبقت بأداة التَّنبيه الثانية ﴿أَلَآ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾. ثم خُتمت الآية الكريمة بتذييل لما تقدّمها من الحقائق بقوله تعالى ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ تلك الحقائق المهمَّة.

١٢٢٩. وفيها إشارة للعلماء والدعاة للعمل الحثيث؛ لكي يعلم الناس جميعاً هذه الحقائق التي أودعها الله تعالى في كتابه العظيم.

١٢٣٠. فيها بيان عظيم ملك الله وقوة بطشه وإحاطة علمه وكمال قدرته فالأمر أمره والحكم حكمه والقضاء قضاءه يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا معقّب لحكمه ولا رادّ لقضائه ﷻ.

١٢٣١. فيها الاستعداد للقاء الله ﷻ ﴿أَلَآ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾

١٢٣٢. تفيد بطلان مَن يدَّعون تصريف شؤون الكون مع الله بما يسمُّون أنفسهم بالأوتاد والأقطاب وغيرها.

١٢٣٣. تفيد كثرة جهل الناس بالآخرة وحقائقها وغفلتهم عما ينتظرهم..

١٢٣٤. تفيد أهميَّة العلم ومكانته في ترسيخ أركان الإيمان ومبادي الدين..

١٢٣٥. تفيد أنَّ من بيده ملك السماوات والأرض وحده هو الذي يستحق العبادة دون سواه.

١٢٣٦. تفيد أنَّ كلَّ ما وعد الله به حقّ متحقّق بلا ريب، ومن أعظم ما وعد الله به ما يكون يوم الحساب.

١٢٣٧. فيها التعلُّق بالله ﷻ في حصول المطالب لأنَّ له ما في السماوات والأرض.

١٢٣٨. فيها اليقين بوعد الله تعالى فإنَّه حقّ وإنَّ الله لا يخلف الميعاد.

١٢٣٩. فيها عظيم غفلتهم عن لقائه ﷻ عند كثير من الناس ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾

قال تعالى: ﴿هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يونس:٥٦]

١٢٤٠. . فيها مناسبة لما قبلها؛ فلما بيّن أنَّ له ما في السماوات والأرض وأنَّ وعده حقّ ذكر الدليل على ذلك بقوله: ﴿هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾

١٢٤١. فيها: بيان قدرة الله في الإحياء والإماتة.

١٢٤٢. وفيها: أعظم الآيات الدالة على عظمته سبحانه القدرة على الإحياء والإماتة.

١٢٤٣. وفيها: الأمر كلّه لله ﷻ.

١٢٤٤. وفيها: مهما أوتي المخلوق من القدرة فهي محدودة.

١٢٤٥. وفيها: التنبيه على أنَّ هناك حساباً ووقوفاً صعباً..

١٢٤٦. فيها تذكير وموعظة للمؤمنين بأنَّ مآل النفس البشرية هو الرجوع إلى الله ممَّا يزيد من الوتيرة الإيمانية في نفوس الموحدين.

١٢٤٧. يفيد تقديم الإحياء علي الإماتة كون الأصل العدم.

قال تعالى: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ [الروم:١٩]

١٢٤٨. فيها أنَّ صفتي الإحياء والإماتة هي لله وحده مما يبيّن عظمة الله وقدرته.

١٢٤٩. تفيد كمال قدرة الله على خلق الأشياء المتقابلة، فإنَّه يذكر خلقه الأشياء وأضدادها ليدل على كمال قدرته "والضد يظهر حسنه الضد.

١٢٥٠. تفيد بضميمة ما قبلها من الآيات كمال قدرته؛ أي كما يحيي من العدم ويميت كذلك يحييكم بعد الموت بالبعث.

١٢٥١. وفيها دليل على صحَّه ومشروعية القياس وهذا يدخل في باب قياس الأولى " فمن أحيا وخلق من العدم من باب أولى أن يبعثكم من القبور وهو أيسر عليه " ومصداقًا لذلك قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم:٢٧].

١٢٥٢. وفيها تقديم الإحياء على الإماتة لأنَّ الإعجاز فيه أعظم وأتمّ وأكمل.

١٢٥٣. فيها إقامة الحجَّة علي المنكرين والمكذِّبين بالبعث وذلك استدلالاً بالشاهد على الغائب فالإحياء والإماتة مشاهدة والرجوع إلى الله غيب واستدلال الشاهد على الغائب أحد أقسام الأدلة على الغيب.

١٢٥٤. تفيد بيان توحيد الربوبية للاستدلال به على توحيد الألوهية.

١٢٥٥. تفيد﴿وَإِلَيْهِ﴾إثبات رجوع الناس إلى ربهم ولقاءه.

١٢٥٦. تفيد أنَّ أعظم الخزي والعار أن تعود إلى من أحياك من العدم وهيَّأ لك أسباب الحياة وأرسل إليك الرسل لعبادته أن ترجع إليه مكذّبا جاحداً.

١٢٥٧. تفيد أنَّ ما أخبرت به الرسل من الغيب يعاين في الآخرة بالأبصار وفي الدنيا بالبصائر"[١].

١٢٥٨. تفيد أهميَّة الاستعداد للقاء الله تعالى بعد الموت والقبر ليس آخر المطاف، فيجب التنبيه على مخالفة شرعية لفظيَّة على كافة المستويات إلَّا من قد رحم في قولهم لمن مات (انتقل إلى مثواه الأخير) فالمثوى الأخير إمَّا الجنَّة وإمَّا النَّار، وليس القبر.

١٢٥٩. فيها: الإيجاز في تلخيص حياة الإنسان كاملة: الحياة الدنيا فالموت فالبعث للجزاء.

١٢٦٠. فيها اختصاص الرب جل وعلا بالإحياء والإماتة وحده لا شريك له وهي من أعظم صفاته التي اختص بها؛ دل على ذلك ضمير الفصل ﴿هُوَ﴾ الذي يفيد الاختصاص..

---

(١)كتاب الانتفاع بالقران ص ١٩

١٢٦١. فيها إثبات صفات الأفعال، وأنَّ الإحياء والاماتة من أفعاله المستمرة المتعلقة بمشيئته؛ دل على ذلك صيغة المضارع الذي يفيد الاستمرار والتجدد ﴿يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾.

١٢٦٢. فيها أنَّ الرجوع إلى الله ﷻ وحده لا لغيره ﷻ دلَّ على ذلك الحصر في تقديم الجار والمجرور ﴿وَإِلَيۡهِ﴾.

١٢٦٣. فيها دليل وبرهان عقلي على البعث والنشور لأنَّه الذي يحيي ويميت ويبدئ ويعيد.

١٢٦٤. تفيد بضميمة ما قبلها أنَّ أهل الإيمان يجمعون بين معاينة عالم الشهادة من الإحياء والإماتة بأبصارهم وعالم الغيب من لقاء الله وثوابه وعقابه ببصائرهم بينما يعمي المشركون المكذِّبون عن رؤية وعد الله ووعيده ببصائرهم في الدنيا حتى يبصروا العذاب بأم أعينهم يوم القيامة ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۖ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ [يونس:٥٤]

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [يونس:٥٧]

١٢٦٥. مناسبة الآية لما قبلها: فبعد ذكر دلائل الإيمان بالله تعالى من القدرة على الإحياء، والإماتة، والبعث والنشور؛ ذكر في هذه الآية معالم الطريق الموصل إليه في كتابه المنزل على رسوله ﷺ.

١٢٦٦. فيها تصدير النداء بالتنبيه والتعميم يدل على عالميَّة القرآن وعلى أهميَّة الخبر.

١٢٦٧. فيها تهيئة المخاطبين لإلقاء السمع بأسلوب النداء، قبل إلقاء الخطاب؛ ليعوا ما يرد إليهم من ربهم.

١٢٦٨. فيها منَّة الله ﷻ على خلقه بإيصال هذا القرآن العظيم إليهم وتيسيره عليهم؛ لقوله: ﴿جَآءَتۡكُم﴾ بدون مشقَّة وكلفة.

١٢٦٩. فيها أنَّ القرآن الكريم هو أعظم وأبلغ وأفخم موعظة؛ دلَّ على ذلك التنكير والتنوين في قوله: ﴿مَّوۡعِظَةٞ﴾، وكذا في قوله: ﴿وَشِفَآءٞ﴾ ﴿وَهُدٗى﴾ ﴿وَرَحۡمَةٞ﴾ كلها نكرة ومنوَّنة للتفخيم والتعظيم..

١٢٧٠. فيها امتنان الله ﷻ على خلقه بنزول القرآن العظيم.

١٢٧١. فيها الحث والترغيب والتشـــويق في الأقبال على كتاب الله الكريم للنهل من معينه الصافي والتزود مِّما فيه من المواعظ والعبر.

١٢٧٢. فيها بيان أنَّ القرآن الكريم فيه الشفاء لما في القلوب من الأمراض والعلل.

١٢٧٣. فيها بيان أنَّ كتاب ربنا كتاب هداية وخير وإحسان

١٢٧٤. فيها بيان أنَّ من عمل بالقرآن نجا من عذاب الله ﷻ يوم القيامة وارتقى إلى الدرجات العلى في الجنان.

١٢٧٥. فيها بيان أنَّ من تمسَّك بالقرآن نال سعادة الدارين.

١٢٧٦. فيها وصف القرآن بأربع خصال لا يمكن أن تجتمع في غيره موعظة من الله وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين.

١٢٧٧. فيها الإشـــارة إلى أهميَّة الوعظ وحاجة النفوس إليه والرد على الذين يزدرونه ويزدرون هذه الوظيفة. فالقرآن بكليَّته ﴿مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾.

١٢٧٨. فيها أنَّ القرآن موعظة وهو أجل وأقوى وأبلغ وأفصح موعظة.

١٢٧٩. فيها وجوب أخذ القرآن بقوَّة لأنَّه نزل بقوَّة دلَّ عليه الفعل جاء وليس أتى فهو أقوى في الدلالة على المجيء.

١٢٨٠. بضـــميمة ما قبلها تفيد أنَّ القران كلام الله تعالى منزَّل من عند الله وفي ذلك ردّ على المكذِّبين والمعاندين والقائلين أنَّه من عند محمد ﷺ.

١٢٨١. فيها أنَّ هذا الخصال الأربع للقرآن منها ما هو عام للناس مؤمنهم وكافرهم ولذا صدر الآية بالنداء لكافة الناس: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾.

١٢٨٢. تفيد توجيه الدَّاعية الخطاب الدَّعوي الإصـــلاحي لكلِّ فئة بما يصـــلحها ويراعي خصوصيَّتها فالخطاب الأول موجَّه للأمَّة المحمديَّة جمعاء، والثاني خاصَّة لأهل الاستجابة من المؤمنين المنتفعين بالهدى والرحمة دون غيرهم..

١٢٨٣. كما تفيد أهميَّة دراسة حال المدعوّين قبل دعوتهم وتوجيه الخطاب لهم ومن ذلك قوله ﷺ لمعاذ "إنَّك تأتي قوماً أهل كتاب"(١).

---

(١) أخرجه البخاري ١٢٨/٢.

١٢٨٤. كما تفيد أهميَّة ومكانة التخصيص والتخصصيَّة فيما يلي الدعاة والخطاب الدعوي وفي ذلك ترشيد الجهود وكونه أدعى في التأثير؛ فما يفيد هؤلاء لا ينتفع به أولئك.

١٢٨٥. تفيد: أنَّ القرآن، هو الأصل والعماد في الوعظ؛ فلا ينبغي الانشغال بغيره؛ كما يفعله بعض الوعَّاظ. وقد قال الله: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ﴾ [الزُّمَر:٢٣].

١٢٨٦. ومنها: تصدير الخبر بحرف ﴿قَدۡ﴾ الذي يفيد التحقيق؛ ليقع الخبر موقعه من قلوب المخاطبين.

١٢٨٧. ومنها: تخصيص المخاطبين بالمجيء لهم ﴿جَآءَتۡكُم﴾ زيادة في العناية والاهتمام بهم.

١٢٨٨. وفيها أنَّ أسلوب الموعظة الحسنة أول ما يطرق به الداعية إلى الله قلوب العباد، مع اهتمامه بمواعظ القرآن؛ لأنَّه لا أحسن موعظة من مواعظ مَن خَلَق الإنسان..

١٢٨٩. في إعطاء الموعظة صورة الحركة تأثير كبير على السامع يشعره بفداحة خسارته إن هو فوَّتها بعد تأكُّد مجيئها، فيحفِّزه للحرص عليها، لقوله تعالى: ﴿قَدۡ جَآءَتۡكُم﴾.

١٢٩٠. وفي قوله تعالى من ﴿رَّبِّكُمۡ﴾ أسلوب تحبُّب وتلطُّف بالمدعوِّين.

١٢٩١. وفيه إشارة للدُّعاة بالعمل على نفع الناس ما استطاعوا؛ ليستشعر الناس حرص الداعية على حب الخير لهم، ومن ذلك ما يدعوهم إليه من الإيمان والهدى.

١٢٩٢. ويفيد قوله تعالى: ﴿وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ أنَّ الأمراض نوعان: أمراض أبدان، وأمراض قلوب؛ وهذا الأخير هو أخطرها وأشدّها فتكاً بالمريض؛ وعليه فالطب طبَّان: طب أبدان، وطب قرآن وبه الشفاء الحقيقي للقسمين.

١٢٩٣. تفيد أنَّه إذا شُفِي العبدُ من مرض قلبه أصبح مهيأ ليسير على هدى ونور من ربه على الصراط المستقيم؛ معظِّماً لنعمة الله عليه، ورحمته به؛ لأنَّه لا أحسن موعظة منه.

١٢٩٤. تفيد: أنَّها متضمِّنة أنواع أصناف العباد، فالقرآن موعظة للقاسية قلوبهم، وشفاء لذوي القلوب المريضة، وهدى لمن ضلَّ عن سبيله، ورحمة لمن اهتدى، فالعبد لا يخرج من هذه الأحوال فهو في سائر أحواله يحتاج إليه.

١٢٩٥. فيها أنَّ الوعظ يكون بالقرآن الكريم والسنة المطهَّرة بخلاف بعض الوعاظ؛ قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ﴾ [الأنبياء:٤٥]

١٢٩٦. فيها الحثّ على الانتفاع بالقرآن الكريم في الشفاء من أمراض الشهوات والشبهات فهو الدواء الشَّافي.

١٢٩٧. فيها عظمة القرآن الكريم ومجده لكثرة الأوصاف التي وصف بها وتنوُّعها.

١٢٩٨. فيها عدل الله أنَّ (المجيء) كان للجميع، أمَّا الاختصاص بـــ (الرحمة والهدى) فإكراماً ومكافأة لمن خطا خطوة اتجاه القرآن فاتعظ.

١٢٩٩. فيها: تحميل المسلمين عبء الدعوة وتبليغ القرآن للعالمين على مرِّ العصور، وضمان وقوع ذلك منهم من المولى عز وجل بـ ﴿قَدْ﴾ ومجيء الفعل (ماضياً)..

١٣٠٠. كرامة المؤمنين عند ربهم، إذ شاركوا ﴿ٱلنَّاسُ﴾ بـ (الموعظة) و (الشِّفاء) واختصوا منها بـ (الهدى والرحمة)..

١٣٠١. فيها: دور القرآن وأثره القوي في الدعوة لغير المؤمن به، فكثر من ينطلق من غيره زاعماً ضرورة الانطلاق من نقاط مشتركة بينه وبين الطرف الآخر والقرآن ليس منها كون الطرف الآخر لا يؤمن به أساساً.

١٣٠٢. فيها: أنَّ الله سبحانه قد اختص الموعظة بأنَّها من الرَّب، لا من الإله؛ لأنَّ الإله يريدك عابداً، لكن الرب هو المربِّي والكفيل، وإن كفرت به"[1]

قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس:٥٨]

١٣٠٣. فيها من المناسبة: لما كان القرآن رحمة وهدى للمؤمنين ذكَّرهم هنا أنَّه فضل منه سبحانه.

١٣٠٤. فيها أنَّ الفرح فرحان، المحمود؛ وهو الفرح بفضل الله وبرحمته وأجلَّه القرآن كما في الآية السابقة، والمذموم؛ كما في قوله تعالى عن قوم قارون ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ [القصص:٧٦]

١٣٠٥. فيها أنَّ الفرح المحمود هو بما كان محققاً لسعادة الدارين.

١٣٠٦. وفيها: الفرح الحقيقي بالهداية للإسلام والقرآن.

---

(١) تفسير الشعراوي ١٠/٦٠٠٠.

١٣٠٧. وفيها: التحذير من متاع الدنيا الزائل.

١٣٠٨. وفيها: أنَّ الفرح بمتع الدنيا فرح وهمي لأنَّ أثره مؤقَّت.

١٣٠٩. وفيها: منهج القرآن والإسلام هو الطريق الموصل لرضا الله والجنة.

١٣١٠. وفيها: يجب أن يكون الفرح بالملذَّات على أنَّها من عند الله وليس الفرح لذاتها حتى يكون لها أثر.

١٣١١. تفيد أن هناك جانب تربوي للداعية والعالم أنَّ ما آتاهم الله خير من الدنيا وما عليها.

١٣١٢. فيها: نعمة الدين هي ضمان السعادة في الدارين.

١٣١٣. وفيها: الفرح في الآية يقصد به فرح القلب وهذا من الإيمان الذي يثاب عليه صاحبه.

١٣١٤. وفيها: إن كان شيء يستحق أن يفرح به فهو فضل الله ورحمته.

١٣١٥. فيها مشـــروعية الاحتفال والاحتفاء بحفظة القرآن الكريم، ويؤكد ذلك قوله ﷺ مرغّباً وحاثًّا عليه: "إنَّ من إجلال الله ﷻ إكرام ذي الشيبة المسلم وحامل القرآن غير الجافي فيه ولا الغالي والإمام المقسط" (١) ..

١٣١٦. فيها نســـبة المال وحطام الدنيا إلى جمعهم ﴿يَجۡمَعُونَ﴾ مع أنَّ المال مال الله وذلك للتحقير من شأنه أمام القرآن والإسلام والإيمان الذي نسبه إليه بأفضل الصفات ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ﴾ .

١٣١٧. فيها التنبيه إلى الفرق بين المعايير السماوية للأشياء والمعايير الأرضية.

١٣١٨. الفرح بمكاســـب الدنيا أمر فطري غريزي ولما كانت النفوس ربما التهت بالمفرحات المادية الدنيوية عن المفرحات المعنوية الروحية نبَّه ســبحانه على أشــرفها وهو التوفيق للإســلام والهداية للقرآن بل أمر بالفرح بهما فرحاً متَّســـع المجال بحيث يكون ســـعادة دائمة للمؤمن في حياته الدنيا وآخرته وتقديم الجار والمجرور على الفعل مؤذن بمزيتهما على سائر المفرحات..

١٣١٩. فيها التنبيه إلى أنَّه ليس المقصــود بالعبادات والأوامر المشــقَّة والكلفة، وإن وقع ذلك ضمناً وتبعاً في بعضها، لأسباب اقتضتها لابد منها، بل في القيام بأوامره سبحانه، وحقّه الذي أوجبه على عباده، وشرائعه التي شرعها من لذة القلوب، وقرة العيون ونعيم الأرواح وسرورها، ما

(١) صحيح الأدب المفرد ١/١٤٣، وحسنه الألباني.

لا يوصف، بل لا سرور لها ولا فرح ولا لذة ولا نعيم في الحقيقة إلا بذلك ولذلك قالوا: إنَّ في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنَّة الآخرة. وقال من قال من السلف: نحن في لذَّة لو يعلم بها الملوك وأبناء الملوك لجالدونا عليها بالسيوف.

١٣٢٠. تفيد أنَّ ملذَّات الروح والروحانيَّات أعلى قدرًا وأرفع مقامًا وأطيب لذَّه من ملذَّات الجسد والماديات كما نقل ابن عاشور عن فخر الدين: « والمقصود من الآية الإشارة إلى أنَّ السعادات الروحانية أفضل من السعادات الجسمانية، فيجب أن لا يفرح الإنسان بشيء من الأحوال الجسمانية لأنَّ اللذَّات الجسمانية ليست غير دفع الآلام عند جمع من الحكماء والمعنى العدمي لا يستحق أن يفرح به. وعلى تقدير أن تكون هذه اللذات صفات ثبوتية فإنَّها لا تكون خالصة البتَّة بل تكون ممزوجة بأنواع من المكاره وهي لا تكون باقية، فكلَّما كان الالتذاذ بها أكثر كانت الحسرات الحاصلة من خوف فواتها أكثر وأشد».

١٣٢١. تفيد إيثار الباقي على الفاني فما أورث سعادة الدارين خير ممَّا أورث سعادة الدنيا فحسب قال ابن القيم رحمه الله: (لو رزق العبد الدنيا وما فيها، ثم قال: "الحمد لله" لكان إلهامُ الله له بالحمد أعظمَ نعمةً من إعطائه له الدنيا؛ لأنَّ نعيم الدنيا يزول، وثواب الحمد يبقى"[(١)].

١٣٢٢. فيها مكانة العلم المرتبط بالقرآن والسنة والدين الحق والإيمان وأنَّه من أعظم ما يورث الفرح والسرور والغبطة والحبور وبه تنشرح الصدور وتنبسط النفوس وتنشط ويقابل ذلك ذم من فرح بالعلم الباطل المناقض لما جاءت به الرسل ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾ [غافر:٨٣].

١٣٢٣. تفيد، وبضميمة ما قبلها: أنَّ الفرح بوعظ القرآن، علامة من علامات سلامة القلب..

١٣٢٤. تفيد أنَّ الذي يسخط أو يتذمَّر عندما يوعظ وينصح بالقرآن، ففي قلبه مرض – وكلٌّ بحسبه.

١٣٢٥. تفيد: أنَّ الشريعة الإسلامية جاءت لتفرح وتسعد البشرية؛ فالبعد والصدّ عنها، شقاء في الدارين.

١٣٢٦. فيها: تسلية وتبصرة للمؤمن.

---

(١) ينظر أسرار الصلاة ١/١٣.

١٣٢٧. فيها وبضميمة ما قبلها أنَّ الأمر مداره علي تمام الهداية وذلك لكمال الإتِّباع والعمل بمقتضي دين الله والقرآن من الشرائع والأحكام والحلال والحرام وأنَّ ذلك مصدِّقًا للإيمان.

١٣٢٨. تفيد التزهيد في الدنيا والانشغال بالجمع فيها استزادةً واستكثاراً وأنَّ كلَّ ذلك لهو باطل وظل زائل..

١٣٢٩. تفيد حسن الآدب مع الله ورد الفضل إليه ونسبه الخير إليه ﷻ.

١٣٣٠. تفيد تميّز المنهج القرآني واتزانه بشأن الانفعالات النفسية حكماً وضبطاً وتوجيهاً للأقوم والأكمل فيما يلي الفرح المحمود والمذموم والمباح.

١٣٣١. تفيد واجب شكر الله علي الهداية لنعمة الإسلام والقرآن (فضله ورحمته) فيقابل الفرح بشكر المنعم والمتفضل عن ابن عباس وقيل عن عكرمة: "ليس من أحدٍ إلا وهو يحزن ويفرح، ولكن المؤمن يجعل مصيبتَه صبراً، وغنيمتَه شكراً.

١٣٣٢. تفيد: أنَّ الفرح بالعلم والإيمان والسُنَّة دليل على تعظيمه عند صاحبه، ومحبته له، وإيثاره له على غيره، فإنَّ فرح العبد بالشيء – عند حصوله له – على قَدْر محبته له ورغبته فيه، فمَنْ ليس له رغبة في الشيء، لا يفرحه حصوله له، ولا يحزنه فواته؛ فالفرح تابع للمحبة والرغبة" [١].

١٣٣٣. فيها إثبات صفة الرحمة لله ﷻ والردّ على المعطلة.

١٣٣٤. فيها دليل على فضل القرآن الكريم ورفعته وعظمته دلَّ على ذلك الإشارة إليه باسم الإشارة ﴿فَبِذَٰلِكَ﴾ المستعمل في الإشارة للبعيد.

١٣٣٥. فيها أنَّ الفرح الحقيقي يكون بالقرآن والإيمان؛ قال شيخ الإسلام ابن تيمية: ففضل الله ورحمته القرآن والإيمان، من فرح به فقد فرح بأعظم مفروح به، ومن فرح بغيره فقد ظلم نفسه ووضع الفرح في غير موضعه" [٢].

---

(١) مدارج السالكين ٣/١٥٠.

(٢)مجموع الفتاوى ١٦/٤٩

١٣٣٦. فيها أنَّ الأصل في الفرح الذم ولذلك جاء مطلقاً كما في قوله تعالى: ﴿لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ﴾ [القصص:٧٦] ، والمواضع المشروعة جاءت مقيدة كهذه الآية: ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ﴾.

قال تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزۡقٖ فَجَعَلۡتُم مِّنۡهُ حَرَامٗا وَحَلَٰلٗا قُلۡ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمۡۖ أَمۡ عَلَى ٱللَّهِ تَفۡتَرُونَ﴾ [يونس:٥٩]

١٣٣٧. تفيد دقَّة التناسب وروعة التناسق مع ما قبلها فبعد أن ذكرت الآية السابقة بيان أعظم الرزق وأفضل الغذاء للروح؛ وهو القرآن الكريم؛ ذكرت هذه الآية الكريمة الرزق الذي يكون غذاء للجسد؛ وفي ذكره متأخراً في هذا الموضع إشارة إلى بيان مكانة هذا الرزق والغذاء، وأنَّه يأتي في المرتبة الثانية من حيث الأهميَّة.

١٣٣٨. مناسبة الآية بما قبلها أيضا: أنَّه لما كان المؤمن يفرح بما أتاه الله من الهدى فإنَّ هؤلاء يتخبَّطون في الضلال فيحرِّمون ويحلِّلون بأهوائهم دون دليل أو برهان.

١٣٣٩. تفيد أيضا من المناسبة لما قبلها فبعد أن ذكرت الآيات السابقة افتراء المشركين فيما أنزله الله تعالى من القرآن الكريم الذي هو رزق وغذاء للروح؛ ناسب أن يذكر افتراء المشركين فيما أنزله الله تعالى من رزق وغذاء للجسد.

١٣٤٠. فيها مكانة المياه وقيمتها؛ ولا سيما ماء السماء فهو قوام ومصدر حياة الإنسان والحيوان ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزۡقٖ﴾.

١٣٤١. فيها فضل الله ﷻ وكريم انعامه بإيجاد الرزق بجميع أنواعه وأشكاله وألوانه فله الحمد والمنَّة.

١٣٤٢. فيها تعدِّي أهل الشرك والضَّلال على أوامر الله ﷻ بالتحليل والتحريم بما تسوِّل لهم نفوسهم المريضة وأهوائهم الضالة وآرائهم المنحرفة.

١٣٤٣. فيها توبيخ من الله ﷻ وزجر لأهل الشرك بما فعلوه من تلقاء أنفسهم من التحليل والتحريم حيث لم يأذن به الله.

١٣٤٤. فيها: أنَّهم يفترون على الله وهو رازقهم! وهذا من سوئهم وانحراف فطرتهم. ممَّا يدلُّ أنَّ نفوس هؤلاء مريضة ومضطربة ومنتكسة.

١٣٤٥. فيها أنَّ أوامر الشـــرع ونواهيه وأحكامه كلَّها وفق ما جاء من عند الله لا وفق أهواء البشر وآرائهم.

١٣٤٦. فيها عظم وجرم الكذب على الله ﷻ وأنَّه من أشنع الأقوال وأفظعها.

١٣٤٧. فيها أنَّ الأرزاق كلَّها منزَّلة من عند الله؛ ورزق نكرة تفيد العموم.

١٣٤٨. تفيد أنَّ الأصل في العبادة المنع، قال الناظم:

وليس مشروعاً من العبادة إلا الذي إلى الدليل عاد

وليس مشروعاً من التعبد إلا الذي يعزي لنصٍ مسند

١٣٤٩. فيها أنَّ التشـــريع بغير ما أنزل الله من الافتراء على الله والتَّقوُّل عليه تعالى بغير علم وهذا من أعظم الذنوب والموبقات الشِّركيَّة.

١٣٥٠. تفيد مع ما قبلها أنَّه ينبغي للعبد أن يفرح ويشـــكر الله تعالى على ما أنزله وينزله من الأرزاق، وما يوجده ﷻ ويفتحه له من أسباب وأبواب الرزق في هذه الحياة..

١٣٥١. فيها أنَّ تحريم الحلال أشـدُّ من تحليل الحرام؛ ولذلك قدّم في الآية الكريمة؛ وقد قال الله ﷻ في الحديث القدسي: (إنِّي خلقت عبادي حنفاء كلهم فاجتالتهم الشياطين وحرَّمت عليهم ما أحللت لهم وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانا"[(١)]، والشيطان أحرص ما يكون على إيقاع الناس في الشـرك وتحريم الحلال كما حصـل لمشـركي العرب من الشـرك وتحريم كثير من الطيبات كما تقدَّم في سورة الأنعام.

١٣٥٢. فيها أنَّ الرزق في السـماء فلا يخاف من فواته ولا يطلب بالحرام؛ قال تعالى: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات:٢٢].

١٣٥٣. فيها المحاججة العقلانية المنطقية وربط النتائج بالمقدمات: الرزق رزقه – تعالى – فهو من يملك تقسيمه بين حلال وحرام.

١٣٥٤. فيها أنَّ الأصل في الأشياء الحل والإباحة ولذلك أنكر تحريمه وبدأ به.

---

(١) أخرجه مسلم ٤/٢١٩٧.

١٣٥٥. فيها بلاغة القرآن الكريم في استعمال أسلوب الاستفهام في الإنكار والتوبيخ مع ما فيه من التحفيز والتنبيه؛ وفي هذا إرشاد للدعاة والمعلِّمين في استعمال هذا الأسلوب في التعليم والتفهيم.

١٣٥٦. تفيد أهميَّة مراعاة ظروف وأحوال المدعوّين ومخاطبتهم من خلال ما يعقلونه من واقعهم؛ حيث عبَّر عن إعطاء الرزق بالإنزال؛ وذلك لأنَّ معظم أموال المشركين في ذلك الوقت كانت الثمار والأعناب والحبوب، وكلها من آثار المطر الذي هو نازل من السماء، وكذلك فإنَّ معظم أموالهم كانت الأنعام، وحياة تلك الأنعام قائمة على العشب والكلأ اللذان هما من أثر أمطار السماء.

١٣٥٧. في تكرار ﴿قُلْ﴾ [يونس:٥٩] إشارة إلى الفرق بين ما أتى به رسول الله وكلّه من ربه، وبين ما افتروه من عند أنفسهم.

١٣٥٨. تفيد أنَّ القرآن الكريم يفسِّر بعضه بعضاً؛ حيث إنَّ ما جعله المشركون حراماً هو ما ذكره الله تعالى في قوله: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾ [المائدة:١٠٣] وقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنۡعَٰمٞ وَحَرۡثٌ حِجۡرٞ لَّا يَطۡعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعۡمِهِمۡ وَأَنۡعَٰمٌ حُرِّمَتۡ ظُهُورُهَا﴾ [الأنعام:١٣٨] وقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِنَا﴾ [الأنعام:١٣٩]؛ وغير ذلك من الآيات..

١٣٥٩. وفيها أنَّ التشريع حقٌّ خالص لله وأنَّ اتباع الكبراء والسادة فيما أحلُّوا وحرَّموا من دون الله محض عبادتهم وشرك بالله ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [التوبة:٣١] .

١٣٦٠. تفيد: أنَّ المؤمنين يزدادون فرحاً بأنَّ الله هداهم لما ضل فيه غيرهم لأنَّهم يسيرون على نور من الله يرجون ثواب الله فالحرام بيّن والحلال بيّن لهم.

١٣٦١. فيها عناية الله بعباده أن بيَّن لهم ما حرم عليهم وما أحل لهم.

١٣٦٢. فيها أنَّ من عادة الجهال من الناس التنظير دون علم فوجب على العاقل أن لا يصدق كلّ ما يقال ويجب التَّحرِّي والمطالبة بالدليل القاطع والوقوف عنده.

قال تعالى: ﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَشۡكُرُونَ﴾ [يونس:٦٠]

١٣٦٣. فيها الوعيد الشديد لقوله تعالى: ﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ﴾ فهو وعيد عظيم لجرم عظيم.. وذكر الكذب بعد الافتراء، مع أنَّ الافتراء لا يكون إلا كذباً؛ لتهويل الجرم وتأكيد قبحه.

١٣٦٤. فيها مع ما قبلها أنَّ الله تفضَّل على العباد بأنواع النعيم التي تنفعهم في الدنيا والآخرة؛ والأهم منها بعثة الرسل وإنزال الوحي لتتحقق حياتهم الأكمل والأمثل، وليهتدوا بنور الوحي فيما يتعلَّق بحياتهم ومعادهم، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾.

١٣٦٥. تفيد: أنَّ الشَّاكرين هم القلَّة من الناس، ويشهد لهذه الهداية قوله سبحانه: ﴿وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ:١٣].

١٣٦٦. فيها عظيم فضل الله ورحمته ولطفه بخلقه وبيانه: أنَّه لما قرّع المكذِّبين والمفترين بالاستفهامات الإنكارية ﴿ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمۡ أَمۡ عَلَى ٱللَّهِ تَفۡتَرُونَ﴾ [يونس:٥٩]؟، وقوله تعالى: ﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾؟ ترك الجواب، وكان هناك وقف أولى (قلي). ليتفكَّر السامع ويقلق من المصير الذي مُهّد له بأوصاف بشعة مستحقَّة للعذاب. لينتقل إلى التذكير بسعة رحمته وكمال فضله وعدم القنوط منه، وليتناسب الفضل مع إيراد الرزق في الآية السابقة وليشمل كل الناس لكنه تحذير بعدها في عدم مقابلة ذلك الإحسان والفضل بالشكر.

١٣٦٧. أهميَّة التنويع في مخاطبة المدعوّين بين الترغيب والترهيب.

١٣٦٨. تفيد: عظم الجرم الذي هو الكذب على ربِّ العالمين مع هذه الفضائل الإلهية على العباد، فما أسوأ مقابلة الإحسان بالجحود.

١٣٦٩. تفيد: أنَّ إمهال الله للعاصين في عدم معاقبتهم في الدنيا لفضله سبحانه، ما يوجب الشكر بالاستقامة لا عكسه.

١٣٧٠. فيها أنَّ هناك قاعدة سننيه كبرى وهي أنَّ أكثر الخلق لا يشكرون بل جاحدون منكرون نعم الله عليهم.

١٣٧١. فيها أنَّ تحريم ما أحلَّ الله وتحليل ما حرّم الله، من الافتراء على الله الكذب، لأنَّ تشريع الحلال والحرام حقٌّ خاص لله تعالى.

١٣٧٢. فيها: أنَّ فضل الله علينا يستوجب شكراً لله ﷻ ويستوجب منَّا الارتقاء الإيماني.

١٣٧٣. فيها سعة فضل الله تعالى ومنه الرزق وهذا شامل للناس كافَّة بل حتى الدواب وليس خاصًّا بالمؤمنين.

١٣٧٤. تفيد بضميمة ما قبلها على أنَّ الأصل في جميع الأطعمة الحلُّ، إلَّا ما ورد الشرع بتحريمه، لأنَّ الله أنكر على مَن حرَّم الرزق الذي أنزله لعباده.

١٣٧٥. فيها أنَّ أكثر الناس لا يشكرون فضل الله ونعمه عليهم وعدم الشكر يكون في عدة صور كعدم القيام بحقِّ شكر الله عليها، أو استعمالها في معصية الله وأنَّ التَّدخُّل في التَّصرُّف فيها بالتحريم والتحليل بغير إذن من الله.

١٣٧٦. وفيها ابهامه ﷻ العقاب للتهويل والتعظيم لشناعة جريمتهم.

١٣٧٧. تفيد حض الناس علي شكر الربِّ المتفضِّل والعمل وفق شريعته حلالاً وحراماً قال تعالى: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ:١٣].

١٣٧٨. تفيد أنَّه لا اعتبار للكثرة بل الحقّ أحقّ أن يتَّبع.

١٣٧٩. تفيد أنَّ الله يمهل ولا يهمل.

١٣٨٠. تفيد أن نثبت وننسب الفضل لأهل الفضل فلا ينبغي أن ننسى الفضل لأهله قال الطبري رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ [البقرة:٢٣٧]، ولا تغفلوا -أيها الناس - الأخذ بالفضل بعضكم على بعض فتتركوه"[(١)]، فمن باب أولى في حقِّ الله تعالى.

١٣٨١. تشير إلى: عظم تحريم ما أحلَّ الله.

١٣٨٢. تفيد: أنَّ من الجرم أن يحول أحد بين الناس وبين ما تفضَّل الله به عليهم قال النبي ﷺ: "إنَّ أعظم المسلمين جرماً، من سأل عن شيء لم يحرَّم، فحرِّم من أجل مسألته" [(٢)].

١٣٨٣. تشير إلى: وجوب الشكر، وحرمة ضده.

---

(١) تفسير الطبري ١٦٥/٥.

(٢) رواه البخاري

١٣٨٤. تشير إلى: خسارة الذين يفترون ويكذبون على الله، وأنَّهم لا يفلتون.

١٣٨٥. تشـــير إلى: فتح باب التوبة – مهما عظم الذنب –؛ دلَّ عليه أمران: الأول: أنَّه لم يصرّح بالعذاب؛ كي يثنيهم ويكفهم ولا يوقعهم في اليأس. والثاني: أنَّه عمَّم الفضل؛ فيدخل فيه هؤلاء؛ بقرينة "الناس"، ولعموميات الشريعة.

١٣٨٦. في الاســـتدراك ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَشۡكُرُونَ﴾ بعد ذكر النعمة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ إشارة إلى أنَّ العطاء إنَّما يكون نعمة إذا شُكر..

١٣٨٧. وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ فعلُ الرب تعالى، وفي قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَشۡكُرُونَ﴾ فعل العبد. ففيها الردّ على القدرية والجبرية.

١٣٨٨. في الآية الجمع بين الترغيب والترهيب في مقام واحد.

١٣٨٩. تفيد خطورة موقف من يفترى الكذب على الله تعالى يوم القيامة من الكهان ومدَّعي النبوة وغيرهم.

١٣٩٠. تفيد أنَّ النعم ينبغي أن تحبب إلى المنعم وتقود إلى شكره.

١٣٩١. تفيد كمال ربوبيَّته بجميع خلقه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ المؤمن والكافر بما يستوجب توحيده.

١٣٩٢. تفيد عظمة الله تعالى الذي عمَّ جوده وإحسانه سائر الخلق على امتداد الزمان وتنوُّع أماكن الناس.

١٣٩٣. تفيد هول وشدَّة يوم القيامة بما ينبغي حسن الاستعداد له.

١٣٩٤. تفيد أنَّ افتراء الكذب على الله تعالى من أكبر الكبائر.

١٣٩٥. تفيد التحذير من الاســـتمرار في افتراء الكذب على الله تعالى كما حصـــل من اليهود والنصارى؛ دلَّ على ذلك التعبير بالفعل المضارع ﴿يَفۡتَرُونَ﴾ الذي يفيد الاستمرار والتجدد.

١٣٩٦. تفيد أنَّ إحسان الظنِّ والرجاء في الله ﷻ يستلزم إحسان العمل وترك المعاصي ولذلك أنكر على هؤلاء بقوله: ﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾ هل يظنون أن يغفر لهم؟!.

قال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [يونس:٦١]

١٣٩٧. فيها من المناسبة لما قبلها، أنَّه لما قال في الآية السابقة: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ بيَّن هنا أنَّك يا نبينا لست منهم فإنَّ ربَّك يعلم أنَّك ليس من هؤلاء الناس حيث يعلم كلَّ شؤونك وتلاوتك للقرآن ومن آمن معك فهو دفاع عن نبيِّه الكريم وصحابته الأبرار، كما في قوله تعالى في سورة المزمل: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ ۚ﴾ [المزّمل:٢٠].

١٣٩٨. هذه الآية أصل في بيان العلم التفصيلي لله تعالى، وهي أصل في وجوب مراقبة الله تعالى.

١٣٩٩. فيها تقديم تلاوة القرآن على العمل.

١٤٠٠. استحضار مراقبة الله ﷻ في كلِّ شيء.

١٤٠١. فيها إطلاع الله وحفظه على أعمال العباد وشهادتهم بذلك.

١٤٠٢. فيها تخصيص ذكر القرآن مع أنَّه داخل في ما قبله وما بعده من شأن أو أعمال للتنبيه على فضل تلاوته.

١٤٠٣. فيها أن يشغل الإنسان نفسه ولا يدع مجالاً للفراغ فكلّ ذلك محسوب ومعدود.

١٤٠٤. فيها أنَّ هنالك أجسام أصغر من الذَّرة وإن كان في زمن نزول القرآن لم توجد المجاهر والمكبرات فدلَّ ذلك على صدق نبوته ورسالته ﷺ.

١٤٠٥. يستفاد منها في تهدئة روع الخائف والمظلوم وجبر كلّ قلب مكسور.

١٤٠٦. تفيد ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾ أنَّ هنالك حالات وشؤون يؤجر فيها العبد دون أن يعمل عملاً كالصبر على النوازل وغيرها.

١٤٠٧. تفيد الآيةُ الكريمةُ التفصيلَ في الدعوةِ وإثبات الحجَّةِ حيثُ اقتضى المقامُ التفصيلَ..

١٤٠٨. في الآية الكريمة تحفيز عظيم على عمل الخير؛ لأنَّه سبحانه مطَّلع عليه..

١٤٠٩. في الآية الكريمة حلّ لمشكلة الذنوب ومعاودتها والاستكثار منها، وذلك ببناء اليقين التام بأنَّ كلّ ذلك مشهود لله تعالى، وهو سبحانه شهيد عليه، محاسب لصاحبه.

١٤١٠. وفي الآية الكريمة تذكار جديد وهي أنَّ أساليبَ القرآن والسنة في التربية والتعليم والتوجيه وبناء الإنسان والتنمية هي أكملُ الأساليب؛ فإنَّها مضمونة النتائج، قليلة التكاليف، يسيرة التطبيق.

١٤١١. فيها تأكيد لمحبَّة الله ورجائه بكون كلّ عمل صالح فهو شهيد عليه مثيب لصاحبه.

١٤١٢. فيها الدعوة إلى خشية الله والخوف منه بكون كلّ عمل فاسد فهو شهيد عليه محيط بصاحبه.

١٤١٣. فيها الدعوة إلى بذل الجهد وعدم احتقار الأعمال صغيرها وكبيرها، وربَّما يكون النجاة من عملٍ غير ذي بال، فكم من عمل صغير في عين فاعله كبير عند الله، وكان سبب نجاة صاحبه، دون الأعمال العظام، التي ربما قد تكون مدخولة.

١٤١٤. تفيد الآية أنَّ الإنسان مهما انشغل بشاغل فإنَّه ينبغي أن لا يترك القرآن ولو شيء يسير بدليل ﴿مِن﴾ [يونس:٦١] في قوله تعالى ﴿وَمَا وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ﴾ [يونس:٦١].

١٤١٥. فيها بيان منزلة النبي ﷺ وعلوّ شأنه وسمو مقامه عند ربه ﷻ حيث الخطاب له عليه الصلاة والسلام وأمَّته تبعاً له.

١٤١٦. فيها أنَّ على المسلم أن يكون شديد المراقبة لربه ﷻ حيث أنَّه سبحانه مطَّلع عليه ولا يغيب عن علمه مثقال ذرة.

١٤١٧. فيها أنَّ على المسلم أن يحرص على تأدية عمله على الوجه الصحيح.

١٤١٨. فيها: أنَّ الخطاب الأول خاص برأس النوع الإنساني، وسيِّد المخاطبين – ﷺ–. وقوله ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾ [يونس:٦١] فهو عام يشمل سائر العباد برهم وفاجرهم وقد روعي في كلّ من المقامين ما يليق به، فعبَّر في مقام الخصوص في الأول بالشأن، لأنَّ عمل العظيم عظيم، وفى الثاني بالعمل العام للجليل والحقير" [(١)] . . .

١٤١٩. وفيها بيان لمكانته عليه السلام عند مولاه وارتباط مكانته بمكانة أعماله.

١٤٢٠. فيها: ردّ على الجبرية ﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [يونس:٦١].

---

(١) روح المعاني ٦/١٣٦.

١٤٢١. تفيد أهميَّة التوثيق للأحداث وقد سبقت حضارة المسلمون في كتابة الدواوين والمواثيق والديون حضارة الأمم الحديثة، لقوله تعالى: ﴿فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ [يونس:٦١].

١٤٢٢. تفيد وتدلُّ على أنَّ جَميعَ أمورِه وأعمالِه ﷺ كانت عظيمةً، حتى العاداتِ منها ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٖ﴾ [يونس:٦١].

١٤٢٣. تفيد التوجيه بإتباعه والاقتداء به واتخاذه قُدوةً صالحةً ﷺ طالما كان ذلك حاله وجميع أموره وأعماله.

١٤٢٤. تفيد الربط بين سنَّته الجامعة لعظيم أموره وأعماله والقرآن كيف لا وكلاهما وحي يوحى.

١٤٢٥. فيها جمع الضمير بعد إفراده من قبل مع كون المخاطب هو ﷺ؛ يفيد أنَّ الأُمَّةَ داخِلة مع النبيّ ﷺ فيما خوطِبَ به من قبلُ ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٖ وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٖ وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا إِذۡ تُفِيضُونَ فِيهِۚ﴾ [يونس:٦١] [(١)].

جاء في منظومة المراقي:

وما به قد خوطب النبيُ تعميمه في المذهب السَّنِيُ

١٤٢٦. فيها الجمع بين كمال إتباعه ومراقبة الله ﷻ وهما شرطا قبول أعمال العباد بما يورثاه من صحَّة الأعمال وإخلاصها.

١٤٢٧. يفيد التنكير والتنوين في قوله: ﴿قُرۡءَانٖ﴾ [يونس:٦١] التفخيم والتعظيم، فما أعظم القرآن وما أعظم بركته وما أكثر هداياته.

١٤٢٨. تفيد تعظيم الرب جل وعلا وبيان عظمة صفاته.

١٤٢٩. فيها ردّ على الفلاسفة الذين يقولون إنَّه يعلم الكلِّيَّات فقط دون الجزئيَّات تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً.

١٤٣٠. تفيد إعجاز القرآن بالإشارة إلى أشياء ومخلوقات بالوجود لا ترى بالعين المجرَّدة؛ بل تحتاج للآلات المكبِّرة أضعافًا مضاعفه.

---

(١) قواعد التفسير (٢/٥٧٨).

١٤٣١. فيها الأمر بالإحسان في الأعمال لأنَّ الله ﷻ مطَّلع عليها؛ والإحسان أن تعبد الله كأنَّك تراه وهي منزلة الرغبة، فإن لم تكن فلا أقلَّ من أنَّك تعلم أنَّه يراك؛ وهي منزلة الرَّهبة.

١٤٣٢. فيها إثبات القدر وقد ذكر فيها مرتبتين من مراتب الإيمان بالقدر، وكثيراً ما يقرن بينهما وهي علمه المحيط بكل شيء سبحانه وكتابته لكلِّ شيء في اللوح المحفوظ.

١٤٣٣. تفيد تمام السَّلوةِ والسُّرورِ للمُطيعينَ، وتمامُ الخوفِ والفَزَع للمُذنبينَ، وهو كونُه سُبحانَه عالِمًا بعمَلِ كُلِّ واحدٍ وبما في قَلْبِه من الدَّواعي والصَّوارف؛ فإنَّ الإنسانَ ربَّما أظهَرَ مِن نفسِه نُسُكًا وطاعةً، وزُهدًا وتقوى، ويكونُ باطِنُه مملوءًا من الخَبَث، وربما كان بالعَكسِ مِن ذلك، فإذا كان الحَقُّ سُبحانَه عالِمًا بما في البواطِنِ، كان ذلك من أعظَمِ أنواعِ السُّرورِ للمُطيعينَ، ومن أعظَمِ أنواعِ التَّهديدِ للمُذنِبينَ (١).

١٤٣٤. تفيد عظمة الله تعالى من خلال عظمة علمه المحيط بكلِّ ما يكون ويقع في السماوات والأرض مع شهود وإحصاء وإثبات كلّ ذلك.

١٤٣٥. لما كان المقام مقام تثبيت وتشجيع للنبي ﷺ وصحابته وهم يكابدون مشقَّة الدَّعوة جاءت عبارات التشجيع تتضمَّن ثناءً ومدحاً فبدأت بـ ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾ [يونس:٦١] ثم تلاوة القرآن ثم عموم العمل والله شاهد على ذلك مطَّلع عليه ويلاحظ أنَّه لم ينسب إليهم الأعمال الصغيرة كما في الزلزلة ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة:٧] وإنَّما ذكرها في الجزاء هنا ونسب ذلك إلى علمه وجزائه فهو يجازي خيراً على مثقال الذَّرِّ من الأعمال فضلاً عن أعمالكم وجهودكم العظيمة.

١٤٣٦. فيها رأفة الله تعالى ولطفه بنبيِّه ﷺ وصحابته الكرام.

قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [يونس:٦٢، ٦٣]

١٤٣٧. مناسبة الآية لما قبلها، فإنَّه عندما بيَّن في الآية السابقة شمول علم الله بكلِّ شيء وكتابته ومثل ذلك قد يخلع القلوب خوفاً من شدَّة الحساب أراد الله أن يهدِّئ أولياءه المؤمنين المتقين أنَّهم في عصمة من ذلك.

---

(١) تفسير الرازي ١٧/٢٧٢.

١٤٣٨. تفيد، وبضميمة ما قبلها: أنَّ الله يعلم الولي الحقّ من الدَّعي؛ لقوله قبلها: ﴿وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ [يونس:٦١].

١٤٣٩. افتتحت الآية الكريمة بأداة الاستفتاح ﴿أَلَآ﴾ وبحرف التوكيد ﴿إِنَّ﴾ لتنبيه الناس إلى وجوب الاقتداء بهم.

١٤٤٠. تفيد الآية الاستفتاح لمهمَّات الأمور؛ حتى يقع الكلامُ موقعَه.

١٤٤١. فيها أيضا من المناسبة أنَّ من لا يتَّصف بهاتين الصفتين فهو ممَّن افترى على الله الكذب حيث ادعى الولاية لمن ليس من أهلها.

١٤٤٢. في الآية ردّ على مدَّعي الولاية الذين يتعاملون مع الجنِّ في إظهار خوارق العادات وقد تجرَّدوا عن الإيمان والتقوى.

١٤٤٣. يفهم أنَّ كلَّ من لم يتَّصف بهاتين الصِّفتين سوف يتعرَّض للخوف والحزن في الدنيا والآخرة.

١٤٤٤. تفيد الآية أنَّ الإيمان يزداد بالتقوى والأعمال الصالحة وينقص بالمعاصي وفي ذلك ردّ على المعتزلة.

١٤٤٥. تفيد صلة الموصول العموم، يعني كلّ من اتصف بهاتين الصِّفتين داخل في المذكور؛ لأنَّ صلة الموصول من صيغ العموم كما قال ناظم المراقي:

صيغة كل أو الجميع وقد تلا الذي التي الفروع

١٤٤٦. تفيد الآية شمول لجميع أنواع الأمن لهم، حيث إن نفي الخوف يخص ما استقبل من الاحداث والحزن يخص ما مضى من الاحداث المؤلمة.

١٤٤٧. تفيد أنَّ القرآن يفسِّر بعضه بعضاً حيث بيَّنت من هم أولياء الله على الحقيقة.

١٤٤٨. يفيد تصدير الجملةُ بحَرْفَيِ التَّنبيهِ ﴿أَلَآ﴾ والتَّحقيقِ ﴿إِنَّ﴾؛ لزيادةِ تقريرِ مَضْمونِها وهذا يشمل أنَّ كلَّ من كان مؤمناً تقيًّا كان لله وليًّا وأنَّ أولياءه آمنون فلا يخافون ممَّا هو آت ولا يحزنون ممَّا مضى.

١٤٤٩. يفيد التَّعبيرُ بصيغةِ الماضي ﴿وَكَانُوا﴾ أنَّ التَّقْوى مُلازِمةٌ لهم، كما أنَّ التعبير بصِيغةِ المضارع ﴿يَتَّقُونَ﴾ للدلالة أنَّ التقوى مُتجدِّدةٌ منهم؛ ففي قولِه: ﴿وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ إشعارٌ بمُصاحبَتِهم للتَّقوى مُدَّةَ حياتِهم؛ فحالُهم في المستقبَلِ كحالِهم في الماضي.

١٤٥٠. تفيد أنَّ القرب من الله هو سبب بلوغهم ما بلغوا من الأمن والسعادة؛ فحتى في مقام الخوف أمر ﷻ عباده بالفرار إليه لا الفرار منه.

١٤٥١. فيها: أنَّ الجزاء من جنس العمل فلمَّا كان أولياء الله أهل خشيته وخوف عقابه جازاهم بالأمن والطمأنينة على المستقبل وعدم الحزن والحسرة على الماضي ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ ٢٦ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾ [الطور:٢٦، ٢٧].

١٤٥٢. لما ذكر الجزاء بيَّن الأسباب الموصلة له فالإيمان يضمن عدم الخوف في الآخرة والتقوى تضمَّن عدم الحزن والحسرة على ما مضى من عمر الدنيا.

١٤٥٣. تفيد تأكيد التَّدبر للكلام المستفتح في القرآن أن يُجمعَ ويعتنى به ويُعطى حظًّا عظيمًا من التأمُّل، والوقوف عنده.

١٤٥٤. فيها أنَّ حظّ العبد من الأمن والسرور والطمأنينة على قدر حظّه من ولاية الله له، ولذلك كلّما علا مقام العبد في الإيمان والتقوى كلّما زاد حظّه من الطمأنينة والانشراح.

١٤٥٥. فيها أنَّ من علامات ولاية الله لعبده ثباته وانشراحه، فلا يتزلزل ولا يقلق، ولا تنال الفتن والصوارف من عزماته.

١٤٥٦. تفيد الآية الثانية قطع الطريق على كلِّ مدَّع للولاية، فالولاية إيمان وتقوى، لا انتحال ودعوى.

١٤٥٧. تفيد: بضميمة ما قبلها أنَّ الرسول ﷺ وصحابته الكرام هم سادات الأولياء وأئمَّة المؤمنين والتقاة فهم مَن تنزَّلت عليهم الآيات وأوَّل من سمُّوا بهذه المسمَّيَّات والأمَّة من بعدهم عاله عليهم.

١٤٥٨. تفيد: أنَّه بقدر صلاح الإنسان وتقواه تكون ولايته لله تعالى والقرب منه جلّ وعلا، وقد قال الله تعالى في آية أخرى: ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الأعراف:١٩٦]

١٤٥٩. فيها أنَّ على المسلم أن يسعى في إصلاح نفسه وتزكيتها وبعدها عن المعاصي والذنوب حتى يصل بها إلى مراضي الله ﷻ فتنال القرب منه ويحصل لها ولاية الله ﷻ.

١٤٦٠. تفيد: أنَّ التقوى، أمن، وقول الله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ﴾ [الأنعام:٨٢].

١٤٦١. فيها: الجمع بين زوال الخوف والحزن معاً، وهذا تمام الأمن والفرح وكما في قوله: ﴿وَقَالُواْ لَا تَخَفۡ وَلَا تَحۡزَنۡۖ﴾ [العنكبوت:٣٣].

١٤٦٢. تفيد: أنَّ الخوف مصبوب على أعداء الله وأوليائه.

١٤٦٣. فيها، وبضميمة ما قبلها: أنَّ ولاية الله وضدها، تنال بالعمل.

١٤٦٤. فيها: عدم ذكر وتعيين ما يجب الإيمان به، للدلالة على عموم وكلّ ما يجب الإيمان به.

١٤٦٥. تفيد أنَّ الدين كامل لا يحتاج إلى الزيادة، واضح لا غموض فيه حيث بيَّن من هم أولياءه.

١٤٦٦. فيها أنَّ ولاية الله ﷻ هي بالإيمان والتقوى وكلاهما في القلب فلا تعلم ولاية إنسان إلَّا بنصّ وفي هذا ردّ على المتصوِّفة ونحوهم ممَّن حصر الولاية في أناس معيَّنين من أصحاب الطُّرق والأضرحة والمزارات، وأكثر هؤلاء من أولياء الشيطان لا من أولياء الرحمن.

١٤٦٧. تفيد الحرص على أن يكون الإنسان من أولياء الرحمن لينال هذه الخصال العظيمة وذلك بتحقيق الإيمان والتقوى.

قال تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [يونس: ٦٤]

١٤٦٨. مناسبة الآية لما قبلها، أنَّه سبحانه لما أثبت الولاية للمؤمنين الأتقياء خلافاً لمن أنكرها ثمَّ أضافهم إليه؛ وما فيها من التشريف لهم إذ هو تعالى وليّهم وهم أولياؤه وهذا مقتضٍ للقرب والمحبَّة فولي الله من والى الله بموافقته في محبوباته والتَّقرُّب إليه بمرضاته وبيَّن أنَّها منزلة رفيعة شريفة تشتاق إليها النفوس ويكثر الأدعياء لها، ثمَّ بيَّن تعالى حقيقتها بأبرز وصفين من حقَّقهما تحقَّقت ولايته حتى ينقطع الادعاء، وبيَّن تعالى كرامته الشاملة للكرامة الدنيوية والأخروية لأوليائه ﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾.

١٤٦٩. تفيد أنَّ أهل الإيمان والتقوى هم الأحقّ بالبشائر الدنيوية والأخروية.

١٤٧٠. تفيد أهميَّة إشاعة جوٍّ من الشحنات الإيجابية من التبشير والتفاؤل وسط أمَّة الإجابة.

١٤٧١. يفيد تقديم الجار والمجرور في: ﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ﴾ انحصار البشرى فيهم دون غيرهم.

١٤٧٢. فيها دليل على أنَّ في الدنيا جنَّة وبشرى من لم يدخلها لم يدخل جنَّة الآخرة ﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾.

١٤٧٣. وفيها تقديم الدنيا للسبق الزمني بالإضافة إلى كون الدنيا مزرعة الآخرة.

١٤٧٤. فيها أنَّ النعيم الحقّ في الدنيا هو لأولياء الله، بغضِّ النظر عن كثرته واستمراره، أمَّا نعيم غيرهم فهو منغِصٌ في الحال، معذِّبٌ في المآل. قال ابن تيمية: في الدنيا جنَّة من لم يدخلها لم يدخل جنَّة الآخرة"[1].

١٤٧٥. تفيد بسابقتها وضع القبول لأوليائه أهل الإيمان والتقوى في الدنيا والثناء عليهم ومحبَّتهم وذلك عاجل بشرى المؤمن.

١٤٧٦. تفيد بيان أسلوب المكافأة المحفِّز؛ فالعاجلة (أثناء العمل)، الآجلة بعد الفراغ منه، طريقة التبليغ بها ﴿ٱلۡبُشۡرَىٰ﴾ ضمان تأديتها لا محالة ﴿لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ﴾ إظهار عظمتها وتبيان حجمها ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾..

١٤٧٧. فيها: إثبات صفة الكلام لله، وفيها ردّ على المعطلة الذين نفوها عنه جل وعلا: قال ابن القيم رحمه الله:

وإذا انتفت صفة الكلام فضدها ... خرس وذلك غاية النقصان

فلئن زعمتم أنَّ ذلك في الذي ... هو قابل من أمَّة الحيوان

والرب ليس بقابل صفة الكلا ... م فنفيها ما فيه من نقصان

فيقال سلب كلامه وقبوله ... صفة الكلام أتمّ للنقصان

إذ أخرس الإنسان أكمل حالة ... من ذا الجماد بأوضح البرهان

فجحدت أوصاف الكمال مخافة ... التشبيه والتجسيم بالإنسان

ووقعت في تشبيهه بالناقصات ... الجامدات وذا من الخذلان

الله أكبر هتكت أستاركم ... حتى غدوتم ضحكة الصبيان

(١) الوابل الصيب من الكلم الطيب ١/٤٨، نقله عنه تلميذه ابن القيم رحمهما الله تعالى.

١٤٧٨. تفيد بشارة الملائكة لأولياء الله عند قبض الروح وهذا بمثابة أوّل منازل الآخرة.

١٤٧٩. فيها: الإنسان مجبول على حبِّ العاجل فجاء التقديم والتأكيد على البشرى بكلمة ﴿ٱلۡحَيَوٰةِ﴾ الدنيا لتقابل الحب الفطري في الإنسان.

١٤٨٠. تفيد بأسلوب المخالفة إسقاط معايير ومقاييس الجاهليَّة من القبليَّات والعنصريَّات والجهويَّات والمال والحسب والنسب لنيل هذه المنزلة الرفيعة الشريفة (ولاية الله).

١٤٨١. فيها الوعد الصادق من الربِّ الكريم الذي له الخلق والأمر فوعده حقّ لا يتخلَّف ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا﴾ [النساء:١٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا﴾ [النساء:٨٧].

١٤٨٢. فيها بيان ما ينتظر أولياءه من الفوز العظيم والظَّفر بكلِّ مطلوب والحصول على كلِّ مرغوب، والنَّجاة من كلِّ مرهوب.

١٤٨٣. تفيد الدعوة إلى جمال اختيار الألفاظ وإحسان القول للناس والهداية للوعد بالخير حصل أو سيحصل مستقبلًا. وأصل البشرى والبشارة (الخبر بما يُسَرُّ به المخبَر وتتهلَّل به تباشير وجهه).

١٤٨٤. تفيد أنَّ نجعل طريقنا دائمًا البشارة، فنبشِّر أنفسنا ونبشِّر غيرنا؛ فإذا أحسنَّا فلنبشر بالقبول وإذا دعونا فلنبشر بالإجابة قال بعض السلف: مَن وُفِّق للدعاء، فليُبشر بالإجابة.

١٤٨٥. دلَّت الآية المباركة على اكتمال أركان البشارة لأولياء الله تعالى من خلال التَّخصيص والتَّعيين بالبشرى في ﴿لَهُمُ﴾ وأيضا في الألف واللام التي تدلُّ على استغراق وشمول جنس ما يُبشَّر به في قوله ﴿ٱلۡبُشۡرَىٰ﴾ واكتمالها يأتي في إحاطة البشرى للحياتين: الدنيا والأخرى، وتتم الفرحة بالبشرى عندما يعلموا أنَّ هذه البشارة لا تبدَّل ولا تتغيَّر قال تعالى: ﴿لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ﴾ ثمَّ تذيل الآية الكريمة بتسمية كلّ ما تقدَّم من البشارات بالفوز العظيم ﴿هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾.

١٤٨٦. فيها أنَّ الدخول في ولاية الله من خلال تحقيق التوحيد والتقوى هو أعظم فوز يحقِّقه العبد.

١٤٨٧. فيها: تعميم: هذه البشارة لكثرتها ولتنوُّعها؛ لأنَّه لم يسم ويخص شيئاً دون شيء.

١٤٨٨. فيها، وبضميمة ما قبلها: سعة فضل الله وإحسانه؛ فهو تعالى لا يجزيهم على أعمالهم فحسب، بل يزدهم ويفضل عليهم؛ قال الله: ﴿فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ [النساء:١٧٣]، وقال: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾[النور:٣٨].

قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [يونس:٦٥] .

١٤٨٩. فيها مناسبة ظاهرة لما قبلها من الآيات فإنَّهم لما كذَّبوا وقالوا للنبي ﷺ أنَّه افتراه واتنا بغيره، جاءت التسلية من عند الله تعالى بأن لا يحزنك قولهم، فلن يضروك شيئاً فإنَّك مرسل من عزيز، لا يرام جنابه، سميع لما يقولون، عليم بأفعالهم.

١٤٩٠. فيها أنَّ على الدَّاعية أن يستمر في دعوته ولا يأبه لأقوال الجاهلين والمستهزئين وأن يكون واثقاً من توفيق الله له ونصره وتمكينه.

١٤٩١. فيها تسلية للرسول ﷺ عمَّا كان يناله من سيء الأقوال وسوء الفعال ممَّن هم في ضلالهم يعمهون.

١٤٩٢. فيها أنَّ من البشرى له ﷺ أن يسلِّيه الله ﷻ بهذه الكلمات.

١٤٩٣. فيها تحقير لشأنهم وتسفيه لقولهم.

١٤٩٤. تفيد الدعوة إلى علوِّ الهمَّة وترك صغار الأمور وسفاسفها.

١٤٩٥. فيها أن لا يضيّع الداعية والقائد وقته في الردِّ على البطالين ويتَّجه نحو الإنجاز وما ينفع من الأعمال.

١٤٩٦. يفيد الوقف اللازم عدم إضاعة الوقت معهم وتغير الموضوع والانتقال إلى ما هو أهم.

١٤٩٧. تفيد تقرير أنَّ العزَّة لله لا لأحد غيره.

١٤٩٨. تفيد تثبيت وتسلية للدعاة الذين يواجهونَ مكابرة وعناد واضطهاد المجرمين.

١٤٩٩. تفيد أنَّ الأصل النهي عن الحزن قاطبة وإن تعلَّق بأمر الدين وذلك لأنَّه لا فائدة منه ولا طائل، فإنَّه لا يجلب منفعة ولا يدفع مضرَّة وليس بمطلوب ولا مقصود بل ولا مصلحة فيه للقلب بل يضعفه بل يعيق العبد عن السير إلى الله ومفتِّر للعزم مثبِّط للهمم.

١٥٠٠. تفيد صرف الدعاة إلى الله عن أن يكونوا حبيسي الماضي وذلك لأنَّ الحزن يكون لما يتصوَّره العقل ويرد على القلب لما وقع في الماضي بل الأولى أن يكون الدَّاعية ابن يومه ويمضي في دعوته متوكِّلاً على الله موقناً بأنَّ الله ناصره ومؤيِّده وأنَّ له العزة جميعاً.

١٥٠١. تفيد القاعدة الشرعية {لا ضرر ولا ضرار؛ الضرر يزال} بشواهد النهي عن الحزن لما له من أضرار جلية كونه من الشيطان، ودليل خوار وضعف ومثبِّط للهمم ومفتِّر للعزائم وقاطع للعمل الصالح وفيه إهلاك للنفس دون طائل وأضراره علي البدن والعقل مشهودة كما في كتب الطب وقد استعاذ منه النبي ﷺ فقال: "اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الهَمِّ وَالحَزَنِ"(١) ودلَّنا على الدعاء الذي يذهب الله به الحزن وأمر بالتداوي منه قال ابن القيم رحمه الله: "ولم يأت الحزن في القرآن إلَّا منهيًّا عنه، أو منفيًّا"(٢).

١٥٠٢. تفيد أثر الكلمة في حياة المؤمن عامّة والداعية بصفة خاصَّة سواء أكانت مسموعة كما في هذه الآيات أو منطوقة.

١٥٠٣. تفيد التسلية للمصلحين فطالما أنَّه السميع لقول من يؤذيك العليم بمن في الحزن ود أن يرديك، فحري بك أن تطمئن ولا تحزن.

١٥٠٤. فيها أنَّ النهي عن الحزن – وهو أمر نفسي لا اختيار للإنسان فيه – المراد به هنا النهي عن لوازمه، كالإكثار من محاولة تجديد شأن المصائب، وتعظيم أمرها، وبذلك تتجدَّد الآلام، ويصعب نسيانها.

١٥٠٥. تفيد: أنَّ علاج الحزن والألم من أذى الغير خاصَّة في ديننا يكون بالتفكُّر في قوَّة الله تعالى وعزَّته.

١٥٠٦. دور الوضع النفسي وأثره في حياة الداعية، وضرورة مراعاته والاهتمام به لضمان المسيرة السليمة.

١٥٠٧. تفيد: أن علاج مشاكلنا يبدأ من عندنا ﴿وَلَا يَحۡزُنكَ﴾، لا من عندهم، بإيقافهم ومنعهم.

---

(١) أخرجه البخاري ٤/٣٦.

(٢) مدارج السالكين ١/٥٠٠.

١٥٠٨. فيها: أنَّ من الأساليب القرآنيَّة في المعالجة: ذكر المزايا والحسنات قبل الولوج إلى معالجة المشكلات فهنا ذكر منزلة الولاية ومالها من النعيم والبشرى، ثم عرّج على المشكلة وحلّها ﴿وَلَا يَحۡزُنكَ﴾.

١٥٠٩. فيها تحقيق وتقرير لقاعدة الجزاء من جنس العمل فلمَّا كان أولياء الله يقاومون الحزن في الدنيا جازاهم ربهم بعدم الحزن والبشرى في الدنيا وفي الآخرة.

١٥١٠. فيها: أثر غرس مفاهيم الاعتزاز بالله والدين والتربية عليها في مواجهة الحزن والضغوط.

١٥١١. في الآية وما قبلها ترسيخ المعاني الإيمانية في القلب بقوَّة راسخة رسوخ الجبال تفيض على صاحبها يقيناً وثباتاً وعزَّة وشموخاً إلى السماء.

١٥١٢. فيها: مناسبة الاسمين العظيمين لموضوع الآية فالله سميع لكلِّ ما يقال لك عليم بما في نفسك من حزن، وعليم بمآلهم ومآلك في الدنيا والآخرة فهل بعد هذا حزن؟!.

١٥١٣. تشير إلى: حتمية الابتلاء لمن تصدَّر للدعوة وخدمة الدين؛ بقرينة: ﴿إِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾. ووجهه: أنَّه – تعالى – لو شاء أن لا يقع لنبيِّه هذا الحزن لفعل؛ لأنَّ العزة له جميعا – جل ذكره؛ لكن كما قال الله: "إنَّما بعثتك لأبتليك، وأبتلي بك"(١).

١٥١٤. تشير إلى: أنَّ الله يتولَّى من ابتلي فيه، وأنَّه يستجيب لهم، وأنَّه يحبّ منهم الدعاء؛ لقوله – في تذييلها –: ﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾.

١٥١٥. تشير إلى: تعظيم الله والتأمُّل في فضله وكرمه وإحسانه؛ فهو – جلَّ ذكره – مع أنَّ القوَّة جميعها إليه، يستجيب ويرحم ويسمع لعباده.

١٥١٦. تشير إلى: أنَّ الإنسان يحزن لما يقال فيه وعنه؛ لكن في الوقت عينه، يقدر على دفعه مستعيناً بالله؛ لقوله: ﴿وَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡ﴾.

١٥١٧. في تربية الناس أهميَّة ربطهم بالقواعد الإيمانية الكليَّة ﴿إِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾.

١٥١٨. فيها بيان أنَّ القرآن ينزل على النبي ﷺ حسب ما يقتضيه المقام فبيَّن قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡۘ إِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ المكيَّة، وقوله: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعۡنَآ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ لَيُخۡرِجَنَّ

(١) أخرجه البخاري ٤/ ٢١٩٧.

﴿ٱلۡأَعَزُّ مِنۡهَا ٱلۡأَذَلَّۚ وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [المنافقون:٨] تفرَّد بالعزة في المكيَّة طور زرع العقيدة ونبذ الشرك بكلِّ أنواعه لقوم حديثي عهد بالإيمان، وأُضيفت العزَّة للرسول ﷺ وللمؤمنين في المدنية بعد ثبات عقيدتهم وتمكُّن معرفتهم بربهم... في الأولى تربية للنبي ومن وراءه المؤمنين، في الثانية رسالة للمنافقين الذين لا يعلمون فناسب في الأولى إفراده تعالى، وفي الثانية إظهار العزَّة لرسوله والمؤمنين أمام المنافقين نفياً لما اتهموهم به من الذِّلة.

١٥١٩. تفيد بضميمة ما قبلها من الآيات أنَّه بقدر إيمان العبد وتقواه ينال من العزَّة التي رب العزَّة والجلالة مصدرها الحصري.

١٥٢٠. فيها: تسلية للمؤمن، بأن يستحضر أنَّ الله قد أحاط علماً بمن خاض فيه واتهمه ووقع في عرضه؛ لقوله: ﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾. قال السعدي "وهو تعالى يسمع قولك، وقول أعدائك فيك، ويعلم ذلك تفصيلاً، فاكتف بعلم الله وكفايته، فمن يتق الله، فهو حسبه"(١).

١٥٢١. تفيد أنَّ من طلب العزَّة من غير الله أذلَّه الله ولا شك ومن ذلك قول الفاروق (نحن قوم اعزنا الله) وقول ابن أبي لبابة: من طلب عِزًّا بباطل أورثه الله ذُلًّا بحقٍّ"(٢).

١٥٢٢. تفيد: بعث الطمأنينة في نفوس المؤمنين إذ أن ربهم هو العزيز الذي لا يضام كما قال ابن القيم رحمه الله في الكافية في معاني اسم الله العزيز ووصفه بالعزة:

وهو العزيز فلن يرام جنابه ... أنى يرام جناب ذي السلطان
وهو العزيز القاهر الغلاب لم ... يغلبه شيء هذه صفتان
وهو العزيز بقوة هي وصفه ... فالعز حينئذ ثلاث معان
وهي التي كملت له سبحانه ... من كل وجه عادم النقصان

قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ﴾ [يونس:٦٦]

١٥٢٣. فيها من المناسبة أنَّه لما ذكر أنَّ العزَّ والغلبة والقهر له سبحانه ذكر هنا ما يناسب ذلك وهو كون المخلوقات ملكاً له.

(١) تفسير السعدي ١٤/٣٦٨.

(٢) ربيع الأبرار ونصوص الأخيار ٤/٥.

١٥٢٤. فيها: مناسبة لما قبلها؛ فإنَّ من له من في السماوات ومن في الأرض، له العزة جميعاً.

١٥٢٥. فيها اليقين في الله، وعدم طلب العزَّة من غيره. قال الله: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [آل عمران:٢٦]

١٥٢٦. وفيها: المتصرف في الملك هو الله وحده لأنه ملكه.

١٥٢٧. فيها أنَّه: لا توجد عندهم براهين في قولهم إن لله شركاء. بل الظن والكذب فقط.

١٥٢٨. فيها: الكبر هلاك ودمار لصاحبه.

١٥٢٩. فيها أنَّ هذه الآية المباركة تدلُّ على الاهتمام بمفهوم توحيد الربوبية وما أحوجنا إليه الآن في زماننا مع تعظيم الماديات والتعلق بها.

١٥٣٠. فيها أن كل من في السماوات الأرض مسخر بأمر الله لا يعزب عنه شيء.

١٥٣١. تفيد بطلان من يدَّعي التَّصرُّف في شيء من الكون كما في معتقد الصوفية من الأقطاب والأوتاد وغيرهم.

١٥٣٢. فيها عظم شأن التوحيد والتحذير من الشرك.

١٥٣٣. فيها إشارة إلى عظم شأن القدوة الحسنة، وأثره على تابعيه والتحذير من القدوة السيئة.

١٥٣٤. فيها إشارة إلى عظمة العلم الحق وقوَّة حجَّته وثباته، وضعف حجج الباطل وتهافتها.

١٥٣٥. تفيد تنبيه المخاطبين بأهمية مضمون الآية وتقرير المعاندين وإقامة الحجَّة عليهم بالمتَّفق عليه وهو توحيد الربوبية للوصول لتوحيد الألوهية فاستفتح بحرف التنبيه وثنى بالتأكيد وقدم الخبر على المبتدأ ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ﴾.

١٥٣٦. تفيد التعريض بالمشركين المعاندين المكذبين وتسفيه عقولهم فجاء ببيان ملكية الله للعقلاء لإظهار دخول الجمادات من خلقه من باب أولى ويدخل في ذلك أوثانهم وأحجارهم التي تعبد من دون الله.

١٥٣٧. تفيد مكانة العقل مناط التكليف وأنَّ هذا القرآن جاء ليخاطب العقول وأنَّ النقل الصحيح لا يتعارض مع العقل الصريح.

١٥٣٨. تفيد توجيه العقول للتفكُّر في آيات الله العظيمة كخلق السماوات والأرض ويتكرَّر هذا في كتاب الله لمن تدبر.

١٥٣٩. تفيد التعريض بالتبعيَّة العمياء القائمة على التقليد وترك النظر وإلغاء العقل والتدبر، لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ﴾.

١٥٤٠. فيها: تنزيه الله، وغناه عن الشريك.

١٥٤١. فيها: أنَّ الله حقٌّ؛ لقوله: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾؛ فهو تعالى حقٌّ، ومعبود بحقٍّ.

١٥٤٢. فيها أنَّ الشـــرك ليس عليه حجَّة ولا برهان وإنَّما هي ظنون وأوهام، وأنَّ ﴿وَمَا﴾ في الآية استفهامية؛ قال شيخ الإسلام ابن تيمية: ظنَّ طائفة أنَّ ﴿وَمَا﴾ نافية، وقالوا: ما يدعون من دون الله شـــركاء في الحقيقة، بل هم غير شـــركاء. وهذا خطأ، ولكن ﴿وَمَا﴾ هنا حرف استفهام. والمعنى: وأي شـيء يتبع الذين يدعون من دون الله شـركاء؟ ما يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون.

١٥٤٣. تفيد أنَّه لا يجوز دعاء غير الله تعالى كائناً من كان لا ملك ولا نبي ولا ولي لأنَّ هؤلاء جميعاً من دون الله.

١٥٤٤. تفيد النهي عن اتباع الظن وإنَّ الظن لا يغني من الحقِّ شيئاً..

١٥٤٥. فيها جهل المشـركين واتِّباعهم للظَّنِّ وهذا من أسـباب وقوعهم في الشـرك، وقد قال تعالى بعد ذكر الأصـــنام: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّآ أَسۡمَآءٌ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهۡوَى ٱلۡأَنفُسُۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلۡهُدَىٰٓ﴾ [النجم:٢٣]

١٥٤٦. تفيد: أنَّهم يعبدون آلهة شتى. وذكر الظن، إشارة إلى التخبُّط.

١٥٤٧. تفيد بيان سعة ملك الله ﷻ واشتماله واستيعابه لجميع الموجودات.

١٥٤٨. يفيد تقديم ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وهم الملائكة الكرام الذين مدحهم الله ووصـــفهم في كتابه لانقيادهم لأمر الله، وطاعتهم له في كلِّ ما أمرهم به.

١٥٤٩. تفيد أنَّ العبادة تحتاج لدليل تقوم عليه وذلك لبيانه ﷻ أنَّه لا دليل للمشـــركين على عبادة آلهتهم، بل إنَّما يتَّبعون في ذلك ظنونهم وتخرُّصهم وكذبهم وإفكهم.

١٥٥٠. هذه الجملة بمثابة قاعدة كلية تنسف كلّ أشكال الاعتزاز بالنَّسب على جهة الفَخْر، أو القبيلة أو القومية أو اللون أو الشـــكل والجمال أو الاعْتِزَاز بالوطن والمال ونحوها، فكلُّ هذه مذمومة.

١٥٥١. تفيد: أنَّ من ابتغى العزَّة من غير الله، خاب وذلَّ.

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ﴾ [يونس:٦٧]

١٥٥٢. فيها مناسبة لما قبلها فبعد أن ذكر بطلان الشرك ذكر دلائل التوحيد ومن أظهرها الليل والنهار.

١٥٥٣. فيها أنَّ سكون الليل وظلامه وما فيه من الراحة والسكن من أعظم النعم التي تستوجب الشكر وإفراد الله تعالى بالعبادة؛ ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِلَيۡلٖ تَسۡكُنُونَ فِيهِۖ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ [القصص:٧٢]

١٥٥٤. فيها من جهة البلاغة ما يسمَّى عندهم بـــ "الاحتباك" لأنَّ تقدير الآية: أي الليل مظلماً لتسكنوا فيه والنهار مبصراً لتتحرَّكوا فيه. والاحتباك أسلوب ذكره العلماء ومثَّلوا له بأمثلة عديدة.

١٥٥٥. تفيد تقدُّم الليل على النهار ولذلك قُدِّم في الآية الكريمة.

١٥٥٦. فيها بيان قدرة الله تعالى وتصحُّ مثالاً للآيات الكونية لمن تأمَّلها فهي شاهدة بقدرة خالقها، تبارك وتعالى، إذ أخرج الضِّد من ضده، وتلك من أخص أوصاف الربوبية، فأخرج الحي من الميت، وأخرج النور من الظلمة، وأخرج الأنثى من الذكر.

١٥٥٧. فيها: أهميَّة السَّكن في حياة الإنسان واستقراره وجعل له الليل بظلامه مكاناً له وأي تبديل لهذا النظام له آثار سالبة على صحَّة الإنسان تجد تحليلها باستفاضة عند الأطباء، والنهار مكان الحركة والنشاط حاجة الإنسان للراحة ولا يلتمسها إلا باتباع هذا النظام الرباني.

١٥٥٨. فيها: رحمة الله وعنايته بخلقه جميعاً مؤمنهم وكافرهم وأنَّ الليل والنهار من نعمه العظيمة التي تستحقّ الشكر لقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ﴾.

١٥٥٩. تفيد: بيان ضعف الإنسان وحاجته للراحة ممَّا جعل الاستحالة ملازمة له أن يكون ربًّا أو مدبِّراً أو شريكاً في هذا الكون فسبحان الحي القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم.

١٥٦٠. فيها أنَّ النهار وما فيه من ضياء وسهولة إبصار ليسعى الناس في معايشهم من أعظم النعم التي تستوجب الشكر وإفراد الله تعالى بالعبادة؛ ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ [القصص:٧١].

١٥٦١. فيها حث على سماع الاعتبار والقبول الذي يكون معه الانقياد فلا يكون فيه الإنسان كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون..

١٥٦٢. فيها أنَّ الانتفاع بالآيات يكون بالسماع الذي يتجرَّد صاحبه للحقِّ.

قال تعالى: ﴿قَالُوا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ هُوَ ٱلْغَنِىُّ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يونس:٦٨].

١٥٦٣. فيها تثبيت وتسلية للنبي ﷺ في تناسق عجيب مع الآيات التي قبلها (ولا يحزنك قولهم) فإنَّهم يقولون على الله أعظم من ذلك ﴿قَالُوا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ فاصبر واستمر في دعوتك (قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ قَيْسٍ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: مَا أَحَدٌ أَصْبَرَ عَلَى أَذًى يَسْمَعُهُ مِنَ اللهِ تَعَالَى، إِنَّهُمْ يَجْعَلُونَ لَهُ نِدًّا وَيَجْعَلُونَ لَهُ وَلَدًا وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ يَرْزُقُهُمْ وَيُعَافِيهِمْ وَيُعْطِيهِمْ"[(١)].

١٥٦٤. تفيد وتدلُّ دلالةً واضحة على مشروعيَّة إيراد الشبهات والردِّ عليها وأهميَّة ذلك في الدعوة إلى الله ﷻ.

١٥٦٥. فيها أنَّ من أعظم الكفر وأشنعه نسبة الولد إلى الله تعالى.

١٥٦٦. وفيها أنَّ نسبة الولد إلى الله صفة نقص لا تليق بجلاله وعظيم سلطانه.

١٥٦٧. وفيها الإشارة إلى فقر المخلوقين وحاجتهم إلى المعين من ولد ونحوه.

١٥٦٨. وفيها بيان كمال غنى الله تعالى عن خلقه وسعة ملكه وسلطانه.

١٥٦٩. وفيها أنَّ الدعاوى التي لا تدعمها البراهين والشواهد الصادقة هي دعاوى باطلة وتقوُّل بلا علم.

إنَّ الدعاوى إذا لم يقم عليها ... بيِّنات فأصحابها ادعياء

١٥٧٠. وفيها أنَّ من أشنع الجرم افتراء الكذب على الله.

---

(١) أخرجه مسلم ٤/٢١٦٠.

١٥٧١. في الآية خطورة القول على الله بلا علم وأنَّه من الكبائر كما قال ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:٣٣].

١٥٧٢. وفيها شناعة جرمهم وعظيم بهتانهم بدلالة الالتفات من الغيبة إلى الخطاب في قوله: ﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

١٥٧٣. فيها الرد على هذه الشبهة الشنيعة من خمسة أوجه:-

أوَّلها: تنزيه الله تعالى عن ذلك فهو لا يليق بجلاله وعظمته.

ثانيها: إثبات غناه المطلق ﷻ فلا يحتاج إلى اتخاذ الصاحبة والولد.

ثالثا: إثبات ملكه تعالى الشامل وهذا إثبات لغناه المطلق تعالى.

رابعاً: إفلاسهم من أي دليل أو برهان على هذه الدعوى.

خامساً: تأكيد ذلك بأنَّ هذه الدعوى إنَّما هي من التقوُّل على الله بلا علم.

١٥٧٤. وفيها أنَّ أمر العقائد الأصل فيه التوقُّف إلا بدليل وأنَّ الله ﷻ لا يوصف إلا بما وصف الله به نفسه في كتابه أو وصفه به نبيه ﷺ، لا يُتجاوز بذلك الكتاب والسنة.

١٥٧٥. وفي الآية دليل على أنَّ كلَّ قول لا دليل عليه فهو جهالة، وأنَّ العقائد لا بد لها من قاطع، وأنَّ التقليد بمعزل من الاهتداء"[١] .

١٥٧٦. فيها: مشروعية تسبيح الله ﷻ عند سماع أي خبر فيه اتهام في جنب الله وكذلك شرع الله لنبيِّه ﷺ التسبيح عند سماع أي اتهام يتهم (بالبناء على المجهول) به فإنَّ من أعظم ما يدفع الهم والغم عن الدعاة إلى الله بسبب سماعهم لاتهام الناس لهم بأمور باطلة: أن يسبِّحوا الله ﷻ يقول جل شأنه موجِّهاً نبيَّه ﷺ: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الحجر:٩٧، ٩٨].

---

(١) روح المعاني ١٤٧/٦.

١٥٧٧. تفيد مشروعية طلب الدليل على الحكم فهم لما قالوا ﴿ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ هذا حكم.. حكموا بأنَّ لله ولد.[سبحانه وتعالى] أتى بعده قوله ﴿إِنۡ عِندَكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭ بِهَٰذَآۚ﴾ طلب الله منهم الدليل على حكمهم فالحكم العاري من الدليل لا اعتبار له.

١٥٧٨. تفيد منهج القرآن في الردِّ على الشبهات؛ فإن صدرت عن جاهل لزم الأمر تعليماً وردَّاً علميَّاً مفحماً بإيراد الحجج شرعيَّتها وعقليَّتها ﴿سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱلۡغَنِيُّۖ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ وإن صدرت عن حاقد كافر لزم الأمر قرعاً وتأديباً وتوبيخا. فالاستفهام مستعمل في التوبيخ حتى لا يتجرأ أحد على الدين ويتخذه مطيَّة ﴿إِنۡ عِندَكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭ بِهَٰذَآۚ﴾.

١٥٧٩. تفيد أن يوطِّن الداعية نفسه وأنَّه لن يسلم من إيراد المخالفين للشبهات والتشكيك والطعن في دعوته وفي ذاته وعرضه طالما لم يسلم منهم الرب ﷻ ولا رسوله ﷺ.

١٥٨٠. تفيد: أنَّ المتحدث إذا تحدَّث عن باطل، أن يتبرأ منه ويأتي بما يدلُّ على عدم رضاه به؛ فليصرح بعقيدته، وليكن له موقف من أعداء الله؛ ولأنَّه لا حياد في العقيدة؛ لقوله: ﴿قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾، ثم قال: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥۖ﴾.

١٥٨١. تشير إلى: حاجة الإنسان وافتقاره للزوجة والولد؛ لقوله: ﴿هُوَ ٱلۡغَنِيُّۖ﴾ عن الولد والزوجة؛ فدلَّ أنَّ غيره مفتقر إليهما..

١٥٨٢. فيها: عفَّة القرآن وما ينبغي أن يكون عليه المسلم عند ردّه وتعقيبه على المخالف؛ لقوله – ردًّا وتعقيباً على مقالتهم –: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱلۡغَنِيُّۖ﴾، ففيها من الفوائد: الاختصار عند الردِّ ونفي التهمة عن النفس.

١٥٨٣. تفيد إثبات اسم الغني لله ﷻ وإثبات صفة الغنى فالله ﷻ هو الغني الحميد وكل من سواه مفتقر إليه وهو الغني بالذات وغيره فقير بالذات.

قال ابن القيم في الكافية الشافية:

وهو الغني بذاته فغناه ذاتي له كالجود والإحسان

١٥٨٤. تفيد اختصاص الله ﷻ بالغنى وحده لا شريك له؛ دلَّ على ذلك ضمير الفصل في قوله: ﴿هُوَ ٱلۡغَنِيُّ﴾ فله الغنى المطلق، والخلق فقراء إليه؛ ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ

﴿ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر:١٥]، وذلك أنَّ فائدة ضمير الفصل التخصيص، إن لم يكن ما يفيد ذلك، فإن كان فهو لتأكيد التخصيص.

١٥٨٥. فيها إلزام الخصم بالحجة بالسؤال الإنكاري الذي لا جواب له عنده: ﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍ بِهَٰذَآ﴾.

١٥٨٦. تفيد: أنَّه لا حجَّة لكافر على كفره. قال الله: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المؤمنون:١١٧].

١٥٨٧. فيها أنَّ العلم والبرهان سلطان لما له من تسلُّط على النفوس بالإقناع.

١٥٨٨. تفيد: عدم التحدُّث عن الله إلا بعلم.

١٥٨٩. فيها: تسلية للمؤمن؛ فإنَّ المسلم إذا أيقن أنَّ لله ما في السماوات والأرض، خفَّف عنه ما يجده من سبٍّ لله ومحاربة لدينه وظلم للعباد. قال الله: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام:١١٢].

١٥٩٠. تفيد: أنَّ العقيدة الإسلامية، مبناها على البرهان؛ لقوله مبرهناً على غناه: ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ؛ ثم قال محتجًّا عليهم: ﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍ بِهَٰذَآ﴾ يريد: ما عندكم..

١٥٩١. تفيد خطورة اللسان وإلقاء الكلام على من غير تثبت ولا تروي.

١٥٩٢. فيها نسف الشبهة من جذورها فلم يكن الرد مجرد نفي الولد وإنَّما كان الردُّ نفي أصل الحاجة للولد ﴿سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

١٥٩٣. تفيد الجملة: ﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍ بِهَٰذَآ﴾ توجيه الأسئلة (المباغتة) للخصم أثناء الردِّ عليه أو بحسب ما تقتضيه الحاجة.

١٥٩٤. فيها أفضل الكلام وأحبّه إليه مقابل أشنع الكلام وأبغضه اليه" ودمغ الباطل بالحقِّ عن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنه أنَّ النبي ﷺ قال: " أفضل الكلام أربع: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر" [١] ...

---

(١) أخرجه البخاري ٨/١٣٨.

١٥٩٥. تفيد أنَّ التسبيح ترياق وهن النّفس ورفع الهمّة، وتقوية العزيمة واليقين وصد ودحض الشبهات والتكذيب والتعنُّت من الأعداء لذا أوصى الله تعالى نبيّه أن يسبّح الله تعالى بعد كلّ التّكذيب الذي عايشه من قومه؛ وذلك لرفع همّته وإزالة الوهن والضّعف الذي صار إليه، قال تعالى: ﴿ فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ غُرُوبِهَاۖ وَمِنۡ ءَانَآيِٕ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡ وَأَطۡرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرۡضَىٰ ﴾ [طه:١٣٠]

قال تعالى: ﴿ قُلۡ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ﴾ [يونس:٦٩]

١٥٩٦. ﴿ قُلۡ ﴾ تفيد التلقين الدال على أن الكلام ليس من عنده ﷺ.

١٥٩٧. فيها مع ما قبلها أنَّ أعظم الافتراء على الله ﷻ الزعم بأنَّ له ولداً.

١٥٩٨. تفيد الآية قاعدة قرآنية نورانية مضطردة ومحكمة تعالج الأخلاق مع رب البرية ورسول الوحي والناس قاطبة وهي قوله تعالى: ﴿وَقَدۡ خَابَ مَنِ ٱفۡتَرَىٰ ﴾ [طه:٦١]، يقول ابن القيم مؤكداً اطِّراد هذه القاعدة: (وقد ضمن سبحانه أنه لا بد أن يخيب أهل الافتراء ولا يهديهم وأنه يسحتهم بعذابه أي يستأصلهم"[١] .

١٥٩٩. حذف المعمول يدل أن عدم فلاحهم عام في الدنيا والآخرة.

١٦٠٠. تفيد تحريم الافتراء وأنه كبيرة من أعظم الكبائر.

١٦٠١. تفيد الرد على من قالوا﴿ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُۚ ﴾ [يونس:١٥]، فكيف يفعل ذلك وهو من تتنزل عليه هذا الآيات.

١٦٠٢. تفيد التفريق بين الافتراء والكذب. فالكذب هو عدم مطابقة الخبر للواقع وقد يكون في حق الغير أو حق المتكلم نفسه والافتراء: أخص منه، لأنه الكذب في حق الغير بما لا يرتضيه

١٦٠٣. تفيد أن للفلاح أسبابا وللخسران أسبابا، فالصدق سبب فلاح والافتراء والكذب سبب خسران.

١٦٠٤. تفيد أن الكافرين لا يعظمون الله ولا يعرفون قدره ولذلك يفترون عليه الكذب.

١٦٠٥. تفيد أعظم فساد وانحراف فساد وانحراف المعتقد.

١٦٠٦. تفيد خطورة القول على الله بغير علم وهدى..

---

(١) الصواعق المرسلة ١٢١٢/٤.

١٦٠٧. فيها دليل من أدلة إثبات النبوة. فالدعي الكذاب لا يفلح أبداً ويفضحه الله أما النبي الصادق فيظهر الله صدقه وفلاحه وتبقى دعوته.

قال تعالى: ﴿مَتَٰعٌ فِي ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلۡعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ﴾ [يونس:٧٠]

١٦٠٨. مناسبة الآية لما قبلها أنه لما كان الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون في الآخرة وأما في الدنيا وإن ظهر حظهم فيها فهو متاع قليل ومنقطع.

١٦٠٩. تفيد سرعة انقضاء الدنيا. فالدنيا دنية فانية سريعة الزوال ثم المنقلب إلى الله وذلك مقابل الخيرية والبقاء لما عند الله في الآخرة.

١٦١٠. تفيد حقارة متاع الدنيا بالنسبة للآخرة.

١٦١١. تنكير ﴿مَتَٰعٌ﴾ يفيد أن متاع الدنيا لا قيمة له "نكرة".

١٦١٢. الحصر في إلينا ﴿مَرۡجِعُهُمۡ﴾ يفيد أن الكل معروض على الله لا محالة.

١٦١٣. تستلزم وجوب الخوف لمن عصاه والرجاء لمن اطاعه.

١٦١٤. تفيد أنهم استحقوا العذاب الشديد بسبب كفرهم وهذا يستفيد منه المرء بالأخص الداعية والقائد في تعليل تصرفاته وإزالة اللبس على الآخرين مما يقلل سوء الظن ويوضح القصد.

١٦١٥. تفيد أن الله مالك يوم الدين وأنه هو الديان الذي يحاسب الناس يوم القيامة ﴿إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ﴾.

١٦١٦. تفيد بضميمة سابقاتها أن الإخلاد إلى الدنيا رأس كل شر، وهذا ما حملهم الي التكذيب والشرك والافتراء علي الله من تحريم الحلال وتحليل الحرام ونسبة الولد إليه عز وجل لذا افتتح بذم الدنيا وتصغير شأنها وأنها تمتع يسير؛ لسرعة زوالها.

١٦١٧. فيها التزهيد في الدنيا لأنها متاع وعرض زائل واسمها يدل على ذلك فهو إما من الدناءة أو القرب.

١٦١٨. فيها: عدل الله؛ لقوله: ﴿بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ﴾، أي: بسبب كفرهم، قال تعالى﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٠].

١٦١٩. فيها خطورة الإصـــرار على الكفر والإقامة عليه؛ دل على ذلك قوله: ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾.

قـال تعـالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ [يونس: ٧١].

١٦٢٠. فيها التناسب والتناسق مع الآيات السابقة في تثبيت النبي صلى الله عليه وسلم وأنه في حماية الله ورعايته.

١٦٢١. تفيد الآية أن المواقف العظيمة تستحق التسجيل والتدوين لأنها عبر ومنارات طريق، قال تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ﴾.

١٦٢٢. تفيد هداية الدعاة لأهمية القصة وسرد أخبار من سبق في الخطاب الدعوي لما في ذلك من فوائد جمة مبسوطة في القرآن.

١٦٢٣. فيها فقه الجمع بين اتخاذ الأســـباب ﴿مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى﴾ والتوكل علي الله ﴿فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾.

١٦٢٤. فيها تعريض وسخرية من آلهتهم الباطلة، لقوله تعالى: ﴿فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ﴾.

١٦٢٥. فيها أهمية التوحد ولم الشمل لمن أراد أن يواجه عدوا.

١٦٢٦. تفيد عناية الله عز وجل برسـوله بأمره بإخبار قومه بما يبين صـدقه ويثبت قلبه ويكون سلوي له.

١٦٢٧. تفيد أهمية التربية بالقدوة والأسوة الحسنة وفق المنهج الرباني لإصلاح البشرية.

١٦٢٨. تفيد الهدي الرباني في التربية على علو الهمة باختيار الأمثل من القدوات للوصـــول لأعلى المقامات فجاء اختيار أحد (أولي العزم من الرسل) نوح عليه السلام.

١٦٢٩. كما أن على الداعية استخدام اسلوب التودد واللين، وعليه كذلك استخدام أسلوب القوة والتحدي في أحوال أخرى.

١٦٣٠. أن اليقين بالله والتوكل عليه هو القوة التي لا تغلب من أي عداوات مجتمعة.

١٦٣١. تؤكد الآية: نظرة المجتمع لاحتقار ومبارزة من تصدى للدعوة، واعتبار أي تذكير بآيات الله هو وقوف في مقام لا ينبغي أن يكون، إنما هو ابتلاء لا يصـــبر عليه إلا المتوكلون من عباد الله الصالحين.

١٦٣٢. يجب أن يعلم الأطفال في المدارس، والعوام في المســـاجد، وأهل البيوت في دورهم، ويتواصى العلماء بتدريس أعمال القلوب، ونشر الكتب التي ألفت في ذلك، ومن ذلك التوكل على الله؛ لأنه رأس قائم من أعمال القلوب، ليس فيه ركوع ولا ســـجود ولا مال يدفع ولا أي مقياس ظاهر أصالة، ويفهم بمثل موقف نوح عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام..

١٦٣٣. فيها الحكمة في اختيار ما يناســـب حال المدعوين والجامع أن قوم نوح كانوا عبّاد أصنام كما كانت قريش.

١٦٣٤. تفيد أهمية كتابة ودراســة التاريخ عامة وتاريخ الأنبياء بصـفة خاصــة والاســتفادة من دروس الماضي ومعالجة الحاضر واستشراف المستقبل.

١٦٣٥. تفيد أدبا في عرض ما عندك من الخير فلا تجعل حاجزا بينك وبين من معك في النداء للخير والحق، سنة الأنبياء(ياقوم، ياأهلي، ياأولادي، ياجيراني) ولو كانوا مخالفين.

١٦٣٦. فيها الدعوة للاســتفادة من دراســة الســنن الربانية المبثوثة في القرآن والتي لا تتغير ولا تتبدل ولا تحابي أحدا ومنها هنا المدافعة والمداولة والتمحيص والنصـــر والاعتبار ومعرفه عواقب الأمور والأحداث بمقدماتها وغير ذلك.

١٦٣٧. تفيد أن أنفع الموعظة وأبلغها ما اشتملت علي آيات الله.

١٦٣٨. تفيد اختصاص الله عز وجل وحده بالتوكل دون سواه ﴿فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾.

١٦٣٩. فيها أهمية وشــرف القيام بواجب الدعوة الي الله أمرا بالمعروف ونهياً عن المنكر تأســيا بأولي العزم من صفوة خلقه عز وجل.

١٦٤٠. وفيها أنه بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين.

قــال تعــالى: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس:٧٢]

١٦٤١. في قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ ـ وهم قد تولوا ـ أسلوب الافتراض لتوليهم إلى آخر لحظة، دليل على أن الكافر والعاصي قد يتوب ولو في آخر الأمر، وأن على الداعية أن لا يواجه الناس بالإبعاد المباشر كقوله لهم:(أنتم توليتم، أنتم كفرتم...).

١٦٤٢. تفيد أن من أعظم ما يصرف ويبعد الآخرين عنك هو طلب ما في أيديهم من المال؛ ولهذا كثيرا ما نجد الآخرين يتباعدون عن غيرهم حال مطالبتهم لهم بما في أيديهم. وعليه؛ فإن في هذا دعوة للدعاة والمصلحين إلى القناعة وتعليق القلب بالله والزهد عما في أيدي الناس؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾.

١٦٤٣. فيها: أن الآية امتداد لمقارعة نوح عليه السلام لقومه.

١٦٤٤. استغناء صاحب الدعوة في مسيرته عن الناس وعما في أيديهم يكسبه عزة ورفعة، ويجعل دعوته أكثر إقناعاً و تأثيراً.

١٦٤٥. فيها: كذلك الأنبياء لا يرجون ثوابا من أحد وإنما من الله وهذا هو الإخلاص والأساس لقبول دعوتهم.

١٦٤٦. فيها: أن دعوة الأنبياء كلهم دعوة توحيد، وليس دنيا أو مال.

١٦٤٧. فيها: كل من أراد الدعوة والنصح والعلم يجب أن يكون لوجه الله.

١٦٤٨. فيها: الأنبياء كلهم دينهم واحد وهو الاسلام. وكلهم بعثوا به.

١٦٤٩. فيها: كلما كان قلب الداعية فارغا من مطامع الدنيا كان أقوى تأثيرا.

١٦٥٠. الدعوة إلى الله ليس لها أجور دنيوية تبذل لأجلها، لأنها أغلى وأعلى من كل أجر وثمن.

١٦٥١. حرص الرسول صلى الله عليه وسلم على إنقاذ أمته وحرصه على منفعتهم والحرص على كل وسيله تكون سببا لالتماسهم الأجر والثواب على الدعاة الاقتداء به عليه الصلاة والسلام وان لا يأخذوا أجرا على تقديم النصح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

١٦٥٢. أسلوب التنزل في الخطاب الجدلي في عرض المواقف في الدعوة.

١٦٥٣. فيها أن الأنبياء عليهم السلام ما هم إلا متبعون منفذون لأمر الله تعالى ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾..

١٦٥٤. فيها التواضع وعدم تمييز النفس بشي سوى الإسلام ففيها شرف النسبة الى الإسلام.

١٦٥٥. تفيد فضل ومكانة الاستسلام لله تعالى والسير على منهج الإسلام.

١٦٥٦. كل عامل يريد أجرا، ولكن الفرق كبير بين من يريد الأجر من الله ومن يريد الأجر من الناس، فمن عرف الله أخلص عمله إليه ليكون أجره عليه، ومن ضعف إيمانه وقع في مكدرات الإخلاص لينال أجره من الناس.

١٦٥٧. تفيد أن التجرد من حظوظ النفس من أعظم مقومات نجاح الداعية.

١٦٥٨. تفيد أن النبي يؤمر وينفذ، فلا مجال لإخراجه من دائرة العبودية التي لا تكون إلا لله كمال يفعل بعض الجهلاء اليوم.. فلا مجال للغلو في البشر ولو كانوا أنبياء.

١٦٥٩. تفيد شرف ومكانة الانتماء لمسيرة العبودية لله تعالى وأنه سبيل من اصطفاهم الله تعالى عبر التاريخ.

١٦٦٠. فيها خطورة التفات الداعية إلى ما في أيدي الناس ومَتى كانَ الداعية متعففا عما في أيدي الناس كانَ قَوْلُهُ أقْوى تَأْثِيرًا في القَلْبِ وأدعى لقبول دعوته.

١٦٦١. فيها أن الداعية لا يصده عن دعوته تولي المدعويين فلا يستوحش من قلة السالكين بل يثبت على الحق ولو بقي وحده لأن أجره على الله لا على الأتباع... ولأنه مادام على الحق فليس وحده على الطريق وإنما قد انضم إلى المسلمين من الأنبياء والمرسلين وأتباعهم وحسن أولئك رفيقا.

١٦٦٢. فيها تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم وللدعاة من بعده، عند تولي المدعوين وعدم استجابتهم فهذه سنة الأنبياء والمرسلين من أبيهم نوح عليه السلام.

١٦٦٣. تفيد مدى حرص الداعية على هداية الناس امتثالًا لأمر الله وطلبا لما عند الله من الأجر.

١٦٦٤. فيها تحفيز كبير للدعاة بأن أجرهم على الله الذي يعطي عطاء لا يقدر قدره غيره، عطاء من بيده خزائن السماوات والأرض، عطاء لا ينفد ولا يحد.

١٦٦٥. استباق الداعية للأحداث، وبيان ما يترتب على توليهم وعدم أحقيتهم في ذلك وبيان السبب فيه، في محاولة لردهم عن ذلك.

١٦٦٦. فيها قوة يقين الداعية بدعوته وعدم تأثره بمواقف المدعوين؛ استجابوا أم لم يستجيبوا.

١٦٦٧. نجاح الداعية يتمثل في كونه قدوة، لذا ناسب تذييل الآية: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾؛ لأن الاقتداء يكون بما يظهر عنه.

١٦٦٨. في الآية الاقتداء بعبارات الأنبياء التي تجري مجرى المثل المرسل ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾، ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾.، ويمكن تلقينها للشباب والأطفال، لتكون دارجة على ألسنتهم.

١٦٦٩. تفيد وضوح معالم الطريق مما يبعث في النفس الثقة والطمأنينة وعدم التلجلج.

١٦٧٠. تفيد تجذر الدعوة وعمقها التاريخي لقوله تعالى: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾.

١٦٧١. وفيها أن الرسول صلي الله عليه وسلم لم يكن بدعا من الرسل بل كان له سلف فحق أن يفخر بهم ويتأسى بهم ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ ٱلرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [الأحقاف:٩].

١٦٧٢. تفيد أن عز المؤمن استغناؤه عن الناس يقول جبريل عليه السلام مخاطبا النبي" واعلم أن شرف المؤمن قيام الليل، وعزه استغناؤه عن الناس"(١).؛ وبايع النبي أصحابه علي " على أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا، والصلوات الخمس، وتطيعوا – وأَسَرَّ كلمةً خفية – ولا تسألوا الناس شيئا" فلقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط سوط أحدهم فما يسأل أحدا يناوله إياه"(٢).

١٦٧٣. فيها إشارة إلى أن نوحا عليه السلام هو أول الرسل ولذلك بدئ بقصته العظيمة، ويدل على ذلك أيضا قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [النساء:١٦٣]، وفي حديث الشفاعة الطويل أن الناس يقولون: يا نوح أنت أول رسول إلى أهل الأرض... الحديث"(٣) .

١٦٧٤. فيها أن قصة نوح عليه السلام مع قومه من أعظم القصص ولذلك عبّر عنها بالنبأ.

١٦٧٥. فيها تلطف الداعية بالناس ورفقه بهم فقد خاطبهم نوح عليه السلام بقوله: ﴿يَٰقَوْمِ﴾

---

(١) المستدرك على الصحيحين للحاكم ٣٦٠/٤، وافقه الذهبي.

(٢) أخرجه مسلم٧٢١/٢.

(٣) أخرجه البخاري ١٧/٦،ومسلم ١٨٠/١.

١٦٧٦. فيها أهمية الصبر والرفق في الدعوة وعدم الاستعجال؛ لقوله: ﴿إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي﴾ .

١٦٧٧. فيها تحدي أهل الباطل في مقام الدعوة إلى الله عز وجل وهذا له آثاره في هداية من أراد الله تعالى له الهداية والفلاح.

١٦٧٨. فيها أن الدعاة إذا صدقوا في التوكل على الله عز وجل كفاهم شر الكفار وكيد الفجار.

١٦٧٩. أن سؤال الناس، سبب في إعراضهم عنه والنفور منه؛ لا سيما إذا ألح في المسألة..

١٦٨٠. تفيد: أن الداعي الصادق، لا يسأل ولا يتحرى العوض بمال أو جاه.

١٦٨١. فيها حث الدعاة بتوفير ما يكفيهم من المصادر الاقتصادية التي يوفرون منها معاشهم حتى لا يكونوا عالة على الآخرين ولا يتاجرون ويداهنون بدينهم طلبا للتكسب من الآخرين.

١٦٨٢. فيها الثقة العالية والترفع عن المطالب الدنيوية.

١٦٨٣. تفيد: أهمية نشر (ثقافة) الاحتساب في الأعمال الدعوية و الخيرية ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ﴾ [الإنسان:٩].

١٦٨٤. فيها أن العمل في الدعوة من المطالب العالية التي تحتاج تضحيات كبيرة.

١٦٨٥. فيها أن المتوقع منهم قبول دعوته لا الإعراض عنها ولذلك خاطبهم ب ﴿فَإِن﴾التي تستعمل للشك. وهذا يفيد أن الداعية يحسن الظن بالناس ويتعامل معهم بإيجابية وحرص عليهم وهذا مما يقوي دعوته ويكسبه القبول عند الناس.

١٦٨٦. تفيد أن الدعاة يزهدون في حظوظ الدنيا ولو كانت قليلة؛ لقوله: ﴿مِّنْ أَجْرٍ﴾لأن ﴿أَجْرٍ﴾نكرة في سياق النفي تفيد العموم ودخلت عليها ﴿مِّنْ﴾فكانت نصا في العموم..

١٦٨٧. فيها بيان عفة النبي – صلى الله عليه وسلم – وما ينبغي أن يكون عليه أهل العلم.

١٦٨٨. فيها: دقة التعبير؛ لقوله: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾، وعليه: ففيها: مراعاة الشريعة للنفس وما فطرت عليها من كونها لا تبذل ولا تضحي إلا لمقابل؛ فبين لهم أن المقابل ينتظر ويترقب

من الله وحده. وتصديقه: ما رواه الشيخان: أن رجلا قال للنبي صلى الله عليه وسلم، يوم أحد: أرأيت إن قتلت فأين أنا قال: في الجنة فألقى تمرات في يده، ثم قاتل حتى قتل"(١)

١٦٨٩. تفيد أهمية الأخذ بجميع عرى الإسلام وشرائعه، والعمل بجميع أوامره، وترك جميع زواجره ما استطاع الي ذلك سبيلا. ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾.

١٦٩٠. تفيد موالاة المسلمين ومحبتهم والذود عن بيضتهم ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ الْمُؤْمِنُونَ تَكَافَأُ دِمَاؤُهُمْ، وَهُمْ يَدٌ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ، وَيَسْعَى بِذِمَّتِهِمْ أَدْنَاهُمْ"(٢) .

١٦٩١. فيها: الولاء للمسلمين عامة؛ مهما بدر منهم ولو كانوا أصحاب كبائر.

١٦٩٢. تفيد: أن المسلم، مهما صدر منه من الذنوب والمعاصي، فهو ولي وأقرب من الكافر وإن تظاهر بالنقاء..

١٦٩٣. فيها: تحدي لهم وأنه استغنى عنهم كافة؛ لقوله: ﴿فَمَا سَأَلْتُكُمْ﴾ جميعا. وعليه: فالبراءة والنزاهة، تدفع صاحبها وتقوي حجته. والعكس..

١٦٩٤. فيها الأمر بالجماعة وتوحيد الكلمة ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ ولم يقل : أن أكون مسلما.

١٦٩٥. طريقة الرد للجهة العليا في حسم المواقف، وإنهاء الجدال العقيم ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ فالله الذي أمر، وقرر التوحيد، وافترض على العالمين الاسلام، وهم في ملكه وأرضه وتحت سلطانه.

١٦٩٦. فيها أن الداعية يجب أن يكون أول المنفذين لما يأمر به، وهذا أدعى لقبول دعوته، فنوح عليه السلام أمر بتنفيذ ما دعاهم إليه ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾.

١٦٩٧. تفيد: أن الفخر الحقيقي الانتماء للإسلام فهذا نوح الذي غرق أهل الأرض بدعوته وجعل جميع الآدميين من ذريته يذكر أنه أمر أن يكون من المسلمين.

قال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ [يونس:٧٣].

---

(١) أخرجه البخاري ٩٥/٥، ومسلم ١٥٠٩/٣.

(٢) أخرجه أحمد ١١٩/١، والنسائي ١٩/٨، وصححه الألباني في الإرواء ٢٦٥/٧.

١٦٩٨. تفيد أن تصديق الرسل وكمال إتباعهم والتأسي بهم نجاة ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ﴾ قال مالك بن أنس رحمه الله: «السَّنَّةُ سفينةُ نوحٍ مَن ركبها نجا ومن تخلَّف عنها غرق"[١] .

١٦٩٩. فيها استمرار الداعية في دعوته الى آخر لحظة مهما كانت ردود فعل المدعوين ومهما طالت المدة، لا ينصرف الداعي عن الدعوة ولا يستسلم لليأس من هداية وصلاح مدعويه.

١٧٠٠. فيها: سرعة تكذيبهم، الذي يدل على جهلهم وتسرعهم، وما أسرع نصرت الله تعالى لرسوله الكريم ومن معه من المتقين.

١٧٠١. تفيد أن سنن الله تجري في الخلق بربط الأسباب بمسبباتها ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ وكذلك في الإغراق بسبب التكذيب ﴿وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾.

١٧٠٢. فيها: الأخذ بالأسباب؛ لقوله: ﴿فِى ٱلْفُلْكِ﴾، فنص على الوسيلة وما جعله سببا في النجاة؛ وكان يكفي أن يقول: "فنجيناه"؛ ولما فيه من التلميح بالذي كان يستهزئ به المشركون من قبل. وقول الله: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ [هود:٣٨]

١٧٠٣. تفيد الآثار المحمودة والفوائد المعهودة لصحبه الأخيار﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ﴾، فصحبة الكبار نجاة، وقد قالت جارية لسيدها لنا فولا فطحناه فخرج السوس حيا، ولنا قمحا طحناه فخرج السوس ميتا، فقال كذلك صحبة الكبار نجاة.

١٧٠٤. تفيد إرادة الله عز وجل من وراء بعثة نوح عليه السلام وذلك بنجاة الصّالحين الذين قبلوا الهدى تجديداً لصلاح البشر وانتخاباً للأصْلَح ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ﴾ [٢] .

١٧٠٥. فيها أن الأرض لا تخلو من قائم لله بحجة. ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ﴾.

١٧٠٦. تفيد تعظيم الرب جل وعلا؛ لقوله: ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ﴾... ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ﴾ ... ﴿وَأَغْرَقْنَا﴾... ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ بصيغة الجمع التي تدل على التعظيم والإجلال.

١٧٠٧. فيها تقديم خبر نجاة أولياءه على خبر هلاك أعدائه.

١٧٠٨. أهمية نجاة الأولياء علي إهلاك الاعداء.

---

(١)ذم الكلام للهروي (٤/١٢٤).

(٢) التحرير والتنوير ٨/١٩٩.

١٧٠٩. فيها: تهديد للمشركين من كفار قريش مغبة أن يصيبهم ما أصاب قوم نوح.

١٧١٠. فيها بيان العاقبة الحميدة لمن أطاع الله وصدق رسله.

قال ابن القيم رحمه الله في الكافية الشافية:

لكنما العقبى لأهل الحق إن ... فاتت هنا كان لدى الديان

١٧١١. فيها التحذير لكل مكذب بآيات الله ورسله أن يحل به ما حل بأولئك الأقوام المكذبين من الهلاك والدمار.

١٧١٢. فيه دعوة إلى إعمال العقل بالنظر الصحيح إلى مآل السابقين فمن نجا كيف نجا؟ ومن هلك كيف هلك؟ والعاقل من اتعظ بغيره حتى لا يأتي يوم يقول فيه المرء كما يحكي الله عن أهل النار: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك:١٠].

١٧١٣. فيها أن هذه الآية آية جلال وهيبة ووقار، تظهر فيها آثار صفات الرب من القوة والعزة والسلطان والملك والعلم والحكمة والإحياء والاماتة، بذكر الانجاء وجعل الخلائف في الأرض وذكر الإهلاك والأمر بالنظر والاعتبار، ولا تخبر عن هلاك الهالكين حتى تقدم عليه الإخبار عن ذوي العافية من المسلمين.

١٧١٤. الخليفة في الأرض هم أولياء الله الصالحين؛ لأن الله جعلهم كذلك شرعا وقدرا.

١٧١٥. فيها البشرى للمحزونين والغرباء من المسلمين، فالخلافة لهم..

١٧١٦. فيها: أن على العاقل أن ينظر ويتدبر دائما في عواقب الأمور ونتائجها في كل قول يقوله أو عمل يعمله، وأن لا يتحمس للمقدمات فحسب، ولا يبني الأمور دون معرفة ولا توقع للعواقب والنتائج.

١٧١٧. فيها تسلية للدعاة فإن كذبتم فقد كذب من هو خير منكم، لقوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾

١٧١٨. في الآية التأمل لصبر الأنبياء فبعد دعوة طويلة استمرت قرابة الف سنة كانت ثمرتها أناس قليل حملوا علي فلك فعلي الدعاة البلاغ و النتائج و هداية التوفيق من الله فلا تحزنوا، كما قال تعالى ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود:٤٠].

١٧١٩. فيها أن نجاح الرسالة وتقبل الناس لها ليس من شأن الرسول ولا يؤخذ به فعاقبة الدعوة أمرها الى الله وبالتالي فلا يصح وصف نبي أو رسول بالفشل أو الإخفاق في دعوته لأنه أدى رسالته بالبلاغ وهذا ينسحب على الدعاة والعلماء من أمة محمد صلى الله عليه وسلم.

١٧٢٠. فيها أن الماء قد يكون نعمة وخير وبركة علي العباد وقد يكون نقمة وإغراق وهلاك كل ذلك بتقدير العزيز العليم، لقوله: ﴿وَأَغۡرَقۡنَا﴾.

١٧٢١. فيها عمل الأسباب للنجاة ولذلك أمره الله تعالى بصناعة الفلك مع أن الله تعالى قادر على انجائهم بدونه.

١٧٢٢. فيها أن التكذيب من أسباب التعذيب.

١٧٢٣. فيها أن تكذيب الرسل إنما هو في حقيقته تكذيب بالآيات المؤيدة لهم والدالة على صدقهم من قبل الله عز وجل.

١٧٢٤. فيها أن تكذيب الرسل ليس بتكذيب لهم علي وجه الحقيقة وإنما من باب الجحود والإنكار وإلا فسيرتهم محمودة وعلامات صدقهم مشهودة.

١٧٢٥. وفيها دور الأسر كمحاضن تربوية يحفظ بها دين الله عز وجل.

١٧٢٦. فيها: ذكر العاقبة وأنها هي محل النظر ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ فَجَآءُوهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبۡلُۚ كَذَٰلِكَ نَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ [يونس:٧٤]

١٧٢٧. فيها: عظمة المرسل والرسالة والرسول حيث نسبها الله إليه.

١٧٢٨. فيها: أن نوح عليه السلام أول الرسل لقوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾.

١٧٢٩. تفيد الآية أن نبي الله نوحا عليه السلام هو أول رسول مبعوث إلى أهل الأرض كما ثبت ذلك في الحديث بدليل قوله ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ رُسُلًا﴾.

١٧٣٠. فيها: رحمة الله بإرسال الرسل، وأن من رحمته أن الرسل تبعث من أقوامها، ليكون أقرب للاستجابة، والقبول.

١٧٣١. أن الرسل جاءوا بالبينات والحجج.

١٧٣٢. فيها: تعنت المشركين وعنادهم وتواطئهم على الكذب.

١٧٣٣. تفيد: أن الإيمان توفيق من الله.

١٧٣٤. أهمية إقامة الحجة.

١٧٣٥. فيها: أن مسيرة الدعوة لا تقف عند رسول ولا أمة قبل النبي صلى الله عليه وسلم فوقفت عنده وامتدت بعده بالعلماء الربانيين إلى ما قدره الله لها من الأمد.

١٧٣٦. تشابه كفر الكافرين السابقين واللاحقين ﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ﴾ فبالذي كفر به من سبق كفر به من لحق.

١٧٣٧. فيها: أن البينات شيء تصدق به الدعاوى، هي للأنبياء معجزات، وللأولياء كرامات، وللصادقين في الخصومات شهادات فاصلات.

١٧٣٨. تفيد الآية أن الله تعالى لم يظلم من طبع على قلبه لأنه تعالى جازاهم بما يناسب عملهم.

١٧٣٩. تفيد تأخير البيان لوقت الحاجة.

١٧٤٠. تفيد: أن (ثم) للتراخي فعليه أن الرسل جاءوا بعد مدة من بعثة نوح عليه السلام لما وقع الشرك مرة أخرى، وهذا يؤكد أهمية تعاهد التوحيد والتذكير به دائما حتى لا يطول بهم العهد فينسى وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما في سبب وقوع أول شرك في الأرض: فلما نُسي العلم عبدو من دون الله يعني الصالحين ودا وسواعا ويغوث ويعوق ونسرا..

١٧٤١. تفيد كثرة الرسل والأنبياء وعظمتهم وتفخيم أمرهم؛ دل على ذلك الجمع والتنكير والتنوين في قوله: ﴿رُسُلًا﴾

١٧٤٢. تفيد أهمية معرفة الواقع الدعوي والمدعوين ومعرفة القوم بأصل رسولهم ونشأته فيهم لقوله تعالى: ﴿رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ وفي الحديث "إنك تأتي قوم أهل كتاب"(١)

١٧٤٣. تفيد أهمية دراسة تاريخ الأنبياء والمرسلين ومناهجهم في إصلاح البشر لاسيما للدعاة والمصلحين﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا﴾

١٧٤٤. تفيد أن أمر القلوب بيد الله تعالى وحده، لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾.

---

(١) أخرجه مسلم ١/٥٠.

١٧٤٥. تفيد أن أمر العقوبات المتعلقة بالقلب أنكأ وأسوأ عاقبة ﴿كَذَٰلِكَ نَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾.

١٧٤٦. تفيد أن وظيفة القلب الحي السليم التمييز بين الحق، والباطل، بين الهدى والرشاد من باب، والهوى والضلال من باب آخر.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ﴾ [يونس:٧٥]

١٧٤٧. أن بعث الرسل تترى عبر القرون دليل على إرادة الله الخير ببني آدم بإحياء الدين ومعالم السنن في الأمم.

١٧٤٨. فيها أن الجزاء من جنس العمل؛ فقد طبع الله عز وجل على قلوبهم لإرادتهم عدم الإيمان.

١٧٤٩. تفيد: أن أصحاب الرسل وإخوانهم خير معين على أداء المهمات، وقطع المسافات، وفيه فضل الأخ والصاحب ومنزلتهما، فالأخ المساعد، عضد وساعد.

١٧٥٠. تفيد: أن رأس الكفر، والذي يتولى كبره، وكل مجرم إذا استقل بخطره جاز إفراده ﴿إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ﴾ والعطف عليه﴿وَمَلَإِيْهِۦ﴾، ليكون التعامل مع كل بحسب جريمته.

١٧٥١. تفيد: أن الكبر جريمة حقيقية، وهو إحساس بالعلو احتقارا للناس، وردا للحق، وهو في الأصل من أعمال القلوب، والذرة منه تحرم من الجنة، فكيف بالمثاقيل...ولا تصح لك درجة التواضع حتى تقبل الحق ممن تحب وممن تبغض"[1] أهـ. وما تكبر أحد إلا من ذلة يجدها في نفسه. الاحنف بن قيس.

١٧٥٢. تفيد عناية الله بالبشر فسبحان من استخلف ولم يهمل خلقه﴿ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِم﴾

١٧٥٣. تفيد عناية الله برسوله محمد صلي الله عليه وسلم حيث ساق له قصة أحد أولي العزم من الرسل (موسي بعد قصه نوح عليهم السلام) ليصبر كما صبروا ويوطن نفسه لتحمل المشاق في سبيل اداء الدور المنوط به.

قال ابن القيم رحمه الله في الكافية، في نظم أولي العزم:

---

(١) مدارج السالكين ٣٢١/٢.

وجميع رسـل الله من نوح إلى خير الورى المبعوث من عـدنان
فالقلب خمستهم أولو العزم الأولى في سـورة الشـورى أتوا ببيان
في أول الأحزاب أيضـا ذكرهم هم خير خلق الله من إنسـان

١٧٥٤. تفيد سنة الصراع بين الحق والباطل، والتدافع بينهما.

١٧٥٥. تفيد خطورة وأهمية مكانة " البطانة" بطانه الخير ﴿ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ٣١ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي﴾ [طه :٣١، ٣٢]، وبطانه الشر ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوۡمَهُۥ لِيُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ [الأعراف:١٢٧]، ومن ذلك حديث النبيّ صـلى الله عليه وسـلم حيثُ قَالَ: "مَا مِنْ وَالٍ إلا وَلَهُ بِطَانَتَانِ: بِطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالمَعْرُوفِ وَتَنْهَاهُ عَنِ المُنْكَرِ، وبَطَانَةٌ لا تَأْلُوهُ خَبالاً، فَمَنْ وُقِيَ شَـرَّهَا فَقَدْ وُقِيَ، وَهُوَ مِن الَّتِي تَغْلِبُ عَلَيْهِ مِنْهُمَا"(١) ... بدأ بالعلية والكبراء وختم بالقوم قاطبة وهذا يفيد أنَّ نجاةَ الولاةِ مرهونةٌ بنجاتهم من بطانةِ السـوءِ، فخطرُ مشـورتهم مؤثرٌ، ليس على مصـير الوالي فحسب وإنما على مصيرِ البلادِ ومآلاتِ العبادِ.

١٧٥٦. تفيد العناية بوسـائل تقديم الدعوة أمرا بالمعروف ونهيًا عن المنكر وتجويد الخطاب وانتقائه ليكون أدعي للقبول﴿وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي لِسَانٗا فَأَرۡسِلۡهُ مَعِيَ رِدۡءٗا يُصَدِّقُنِيٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ [القصص:٣٤]

١٧٥٧. تفيـد: أن البدء في الدعوة بالرؤوس والقـادة فهي أكبر أثراً وأسـرع نتيجة، لاتباع المرؤوسين لهم غالباً.

١٧٥٨. فيها أنه رغم أن الرسـالة للقوم كلهم لكن خص الله عليه القوم وكبرياءهم لان الباقي تبع لهم (اللهم أعز الإسـلام بأحد العمرين)وقول العياشـي في رحلته للمدينة (لكل قطر عادة ولكل قوم سادة، وعادات السادات سادات العادات).

١٧٥٩. توجيه الدعوة للجميع وإن غلب على العقل اسـتحالة إيمانهم، فهذا المولى جل وعلا يبعث موسـى مدعماً بأخيه عليهما السـلام وبالآيات لطاغية عصـره فرعون. فلا تبني دعوتك

(١) صححه الألباني في الأدب المفرد ١/١١٣.

على أحكام مسبقة، فإن لم يؤمن فرعون فبلقيس أسلمت وإن هلكت عاد فقرية يونس عليه السلام آمنت..

١٧٦٠. تفيد أهمية التخصصية بصفة عامة وفي تقديم الدعوة خاصة فيقدم من الدعاة الأجدر وفق التخصص المطلوب لأداء المهمة.

١٧٦١. أهمية تكرار العرض في الدعوة، ولا تقل: بلغتُ، من مرة، فما أكثر ما ذكر تعالى موسى عليه السلام وفي ذكره عبرة في كل مرة..

١٧٦٢. تفيد: وجوب الاعتبار بالقصص القرآني ومن أهلكهم الله، وتجنب ما فعلوه ووقعوا فيه من مخالفات. قال الله عز وجل: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمۡ لِأَوَّلِ ٱلۡحَشۡرِۚ مَا ظَنَنتُمۡ أَن يَخۡرُجُواْۖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمۡ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَ يُخۡرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيۡدِيهِمۡ وَأَيۡدِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ [الحشر:٢]

١٧٦٣. وتفيد: أن الكبر، يمنع من هذا الاعتبار، ويدفع إلى تكرار المخالفة التي تسببت في الهلاك..

١٧٦٤. تفيد جملة: ﴿فَٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾ تطلبهم وافتعالهم للكبر مع يقينهم أنهم ليسوا بأهل له ولا يملكون مقوماته ويصدق هذا المعني قوله تعالي ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ﴾ [النمل:١٤]

١٧٦٥. تفيد كذلك شدة كفرهم حيث أنه يصعب تواطؤ رجلين على الكذب، لذا تقوم الشهادة على رجلين.

١٧٦٦. فيها تعظيم الآيات بإضافتها إلى الله عز وجل ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ وجمعها يدل على كثرتها؛ ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ تِسۡعَ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۖ﴾ [الإسراء:١٠١].

١٧٦٧. فيها أن الاستكبار يصد عن الحق وهو من أعظم موانع الهداية.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحۡرٞ مُّبِينٞ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمۡۖ أَسِحۡرٌ هَٰذَا وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ﴾ [يونس:٧٦، ٧٧]

١٧٦٨. فيها: من المناسبة أنه لما أخبر سبحانه عن استكبار آل فرعون بين هنا أن الاستكبار نتج عنه طعنهم بمعجزاته سبحانه بلا تأمل أو روية.

١٧٦٩. وفيها: التسرع من أسباب عدم حصول المقصود في جميع المجالات.

١٧٧٠. يتفرع عليها أن المسارعة والتأني يؤتى كل بحسبه، وكل قد يوصف بالمدح، أو بالذم حسب المقام:

قال الشاعر:

قد يدرك المتأني بعض حاجته وقد يكون مع المستعجل الزلل

ورب قوم فات جل أمرهمُ مع التأني وكان الخير لو عجلوا

١٧٧١. وفيها: أنه من أوجب الواجبات تصحيح العقائد.

١٧٧٢. فيها أن الجاهل يعادي في الغالب ما يجهله بدلا من تمحيصه والتحقق منه.

١٧٧٣. فيها أن الحق لا يري الا بعين البصيرة فقد يكون واضحا ولا يراه من انطمست بصيرته.

١٧٧٤. فيها أن من الناس من تقلب الأمور بأهوائها وتسمى ما لا تعرف بغير حقيقته.

١٧٧٥. فيها أن السحر قديم ويعرفه الناس من العصور الأولى.

١٧٧٦. فيها أن على الداعية مقارعة الباطل ودحض الشبهات ومناقشة الافهام والاستدلال بالمسلمات والبديهيات.

١٧٧٧. فيها أن العاجز يلجأ إلى الحيل للهروب من الحقيقة والتنصل من المواجهة كادعاء السحر.

١٧٧٨. فيها أنه لا يفلح الساحر مهما أوتي، وهذه الحقيقة يعرفها فرعون وملايه لاستدلال موسى عليه السلام بها.

١٧٧٩. فيها أن موسى عليه السلام هو المتكلم دون هارون عليه السلام.

١٧٨٠. فيها: جواز النيابة عن البقية في تحمل المسؤولية الدعوية، فقد قال موسى عليه السلام عن اخيه ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾ [القصص:٣٤]، ولكن في كل مواقف الجدال والمواجهة تصدر لها بنفسه.

١٧٨١. يفيد: وصف السحر بالمبين دليل على أن في السحر نوعا مبينا ونوعا خفيا، وبعضه أقوى من بعض.

١٧٨٢. فيها: أن أسهل التهم لرد الحق، وتمويه الحقائق الاتهام بالسحر، ولجوء أهل الباطل إلى تقوية التهمة بالأوصاف المقارنة بأنه ليس كأي سحر بل هو مبين، إيغالا في الرد عنه.

١٧٨٣. يفيد: لجوء الكفار عبر القرون الى تهمة الأنبياء بالسحر هي طريقة متوارثة لرد تأثير أنوار النبوة إلى القول بأنها ليست بتأثير أمور ذاتية راجعة للحق ذاته وإنما هو لشيء خارج عنها، والرد بمثل هذه التهمة سهل ويروج على العوام.

١٧٨٤. تفيد: الآية أن الحق له قوة عجيبة تجعل من يبهته يتحير فيه أسحر هو أم حقيقة، فلا بد من الصبر على الدعوة، ولا يهلك على الله إلا هالك.

١٧٨٥. يفيد: سلب أقوى ألفاظ النجاة عن السحرة وهو الفلاح، دليل على حصول أقوى أنواع الهلاك والخسار لهم ولمن تعامل معهم من جميع النواحي.

١٧٨٦. تفيد أن الحق له قوة دفع ذاتية فوصف بالمجيء عكس الباطل يوصف بالزهوق بمعني خروج نفسه واضمحلاله.

١٧٨٧. تفيد أن الحق قائم بذاته ظاهر علي الباطل بما أودع الله فيه من قوة بينما لا يقوم الباطل إلا بدعائم من الحق لذا يختلط علي العامة ويتزين في أعينهم يقول مالك بن نبئ (الحق قائم بذاته والباطل قائم به، فلو تداعت دعائم الحق التي عند أهل الباطل لتلاشي باطلهم).

١٧٨٨. تفيد أن الحق إلهي المصدر ﴿مِنۡ عِندِنَا﴾ بينما الباطل بشري أو شيطاني المصدر ﴿وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ﴾ [يونس:٧٧]، وقوله ﴿مَا جِئۡتُم بِهِ ٱلسِّحۡرُۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبۡطِلُهُۥٓۖ﴾ [يونس:٨١].

١٧٨٩. تفيد أن مصدر الحقُ واحد بينما مشارب الباطل متعددة.

١٧٩٠. تفيد اعترافهم ضمنا بأن الوحي الذي جاء به موسي معجز وفوق معهود ومقدور البشر وخارق بتأثيره علي القلوب وجذبها للإيمان والنفوس وتزكيتها والعقول وتقويمها﴿إِنَّ هَٰذَا لَسِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾.

١٧٩١. تفيد: أن أهل الباطل إذا عجزوا عن مواجهة الحق أو الإذعان إليه، افتروا على الحق وأهله.

١٧٩٢. فيها: تصديق وبيان لما قبلها وأنهم استكبروا عن الحق. وعليه أيضا: أن الكبر يمنع من الحق، ويحمل على الكذب والافتراء..

١٧٩٣. أن الرسل والدعاة حملة الحق يذهبون إلي الناس ويطرقون الابواب يبلغون دعوة الله ويجادلون ويناظرون إذا اقتضي الأمر.

١٧٩٤. تفيد أن دعاة الضلال في كل عصر يطلقون الشبهات والشائعات عن الحق وأهله ويؤكدون ويزينون للعامة والإتباع الشبه والشائعات فحينما ارادوا أن يصفوا (الحق) بأنه (سحر) أكدوه وزينوه بأداة التوكيد أن ثم (اللام) ثم وصفوه بأنه (مبين) ظاهر فمن يخالف كلامهم فكأنه أعمي أو لا يعقل وبذلك (يؤطروا) الناس خلفهم ويصعب علي الفرد أن يخرج عن هذا الإطار (العقل الجمعي)، لقوله تعالى عنهم: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

١٧٩٥. تفيد صيغه الجمع في ﴿قَالُوٓاْ﴾تواصي أهل الباطل على باطلهم فمن باب أولى أن تجتمع كلمة أهل الحق فيقفون صفًا واحدًا أمام الباطل.

١٧٩٦. فيها الإنكار على أهل الباطل والشبهات والرد عليهم بقوة.

١٧٩٧. فيها رحمة الله وفضله على العباد ففي الآيتين ذكر مجيء الحق إليهم فلم يتعبوا في تحصيله والبحث عنه بل جاءهم في مكانهم.

قال تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:٧٨]

١٧٩٨. تفيد: الجملة في قوله:﴿قَالُوٓاْ﴾ بصيغة الجمع تفيد أنهم نشروا القول الباطل وأذاعوه للصد عن سبيل الله عز وجل؛ ففيها خطورة الإعلام الكاذب والمضلل في الصد عن دعوة الحق..

١٧٩٩. وفي وصف الحكم والملك والسلطان بالكبرياء إشارة إلى أنه قد يدلي بصاحبه إلى الكبر والتعالي على عباد الله.

١٨٠٠. وفي الآية إشارة إلى أكبر شبهة استخدمها إبليس في تضليل الخلق وهي تقليد الآباء في الشرك والمعاصي قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزُّخرُف:٢٣]

١٨٠١. تفيد أن موسى عليه السلام هو الأصل في الدعوة والتبليغ عن الله تعالى؛ وهارون عليه السلام تبع له؛ لقولهم: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا﴾

١٨٠٢. تفيد أن من أعظم موانع قبول الحق: التقليد، والحرص على الدنيا والرئاسة فيها؛ لقولهم: ﴿لِتَلۡفِتَنَا عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾

١٨٠٣. تفيد خطورة وعظم أثر سلوك الآباء على أبنائهم؛ قال الشاعر:

وينشأ ناشئ الفتيان منا على ما كان عوده أبوه..

١٨٠٤. فيها أن من أسباب ضلالة الأبناء انتماؤهم إلى الآباء الضالين كما قال عليه الصلاة والسلام فأبواه يهودانه وينصرانه"[١] .

١٨٠٥. وفيها أن الأبناء تبع لآبائهم في الخير أو الشر كما قال تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾ [الطور:٢١]

١٨٠٦. تفيد بيان شدة تعلق قوم فرعون بآبائهم أحياء وأمواتا؛ وأن محبتهم وتعلقهم بهم تقتضي منهم المحبة والتعلق بأحوالهم وملابساتهم.

١٨٠٧. فيها بيان أن من موانع الإيمان الظن السيء بالرسل والدعاة والعلماء، ولذلك لما ظنوا بموسى وهارون أن مقصودهما التعالي والكبرياء على الناس منعوا من الإيمان بما جاءا به.

١٨٠٨. تفيد أن فرعون جاء عقب سلسلة ممتدة من الفراعنة الذين استعبدوا أهل مصر؛ وأثروا على جيل الآباء حتى جاء جيل الأبناء فاقتدوا بآبائهم في عبادتهم لهؤلاء الفراعنة وبذل أنواع العبادة والطاعة والخضوع لهم.. لقولهم: ﴿لِتَلۡفِتَنَا عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا﴾.

١٨٠٩. تفيد أن الناس يكرهون الشخصيات الانتهازية الوصولية النفعية الأنانية التي تحركها دوافع المصلحة الشخصية؛ ويسعون جاهدين للتسلق على ظهور غيرهم للوصول إلى المجد والكبرياء؛ لقولهم: ﴿أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، ولا شك أن قوم فرعون مخطئون في هذا التشخيص والتحليل واتهام نبي الله موسى وهارون عليهما السلام بهذا الباطل، ولعل ما دعاهم إلى هذا الاتهام هو أنهم كانوا هم من هذه الشخصيات الانتهازية الوصولية النفعية الأنانية..

١٨١٠. تفيد: خطر الآباء والوجهاء في الذنوب والمعاصي وأن القدوة السيئة المتعلقة بهم أكثر في عقول الأمم من النسبة للنساء، فالتعزز بالآباء قدر زائد، وعلى الأب أن ينتبه دوما إلى

---

(١) أخرجه البخاري ٢/٩٤، ومسلم٤/٢٠٤٧.

خطر أدنى شيء قد يفعله أمام أولاده من الأخطاء والشر.. ولله در الإمام ابن القيم رحمه الله : «فما على العبد أضر من عشائره وأبناء جنسه، فنظره قاصر، وهمَّته واقفة عند التشبه بهم وتقليدهم، والسلوك أين يسلكون حتى لو ليدخلوا جحر ضب لأحب أن يدخل معهم"[1] . .

١٨١١. تفيد جهل قوم فرعون؛ حيث نسبوا طلب الكبرياء إلى موسى وهارون عليهما السلام مع أنهم لو علموا أن كون هذا الكبرياء الحاصل لهما هو كبرياء لهم أيضا لاتبعوهما ولآمنوا بهما؛ وقد وعد الله تعالى موسى وهارون عليهما السلام بهذا فقال: ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [القصص:٣٥]

١٨١٢. وفيها أن من أتهم أو رمى شخصا بما هو منه بريء ابتلي بمثله ولذلك ابتلوا بالكبر والكبرياء لاتهام موسى وهارون بما هما منه بريئان.

١٨١٣. تفيد أهمية الموقع الاستراتيجي لأرض مصر؛ فإن الاستيلاء على منافعها وخيراتها والتمكن من تسخير شعبها وتوجيههم يؤثر كثيرا على التوازنات العالمية في هذه الأرض؛ لقولهم: ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي في جميع الأرض؛ ولهذا لم يقولوا (في أرض مصر أو في هذه الأرض)..

١٨١٤. تفيد تنادي وتواصي معسكر الباطل لمدافعة الحقُ وإطفاء نور الله. ولكن هيهات.

١٨١٥. تفيد استهداف الدعاة والقيادات الدعوية وتشويه صورتها وبناء رأي عام ضدها وإثاره الشبهات حولها لصد الناس ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا﴾

١٨١٦. تفيد استثارة النعرات القبلية ﴿ءَابَآءَنَا﴾لصد الناس عن قبول الحق.

١٨١٧. تفيد أن الكبرياء صفة أو حالة مذمومة عند جميع البشر؛ ولهذا أراد قوم فرعون ذم موسى وهارون عليهما السلام بهذه الصفة والحالة الذميمة، ولذلك لم يقولوا مثلا: (ويكون لكما الملك في الأرض)..

١٨١٨. فيها أن الكفار بعضهم من بعض ولذلك كلهم انتموا إلى آبائهم دون النظر إلى اختلاف شعوبهم وقبائلهم.

---

(١) الرسالة التبوكية ١/٧٤.

١٨١٩. ودلالة قولهم ﴿عَلَيْهِ﴾يدل على توارث الآباء على الشـــرك واســـتيلائهم عليه في كل العصور.

١٨٢٠. فيها بيان أن للخلق اختيار في الإيمان أو الكفر ولذلك هؤلاء اختاروا لأنفسهم الكفر وصرحوا بذلك وهذا رد على الجبرية.

١٨٢١. تفيد أن نبي الله هارون عليه السلام كان يحضر مع أخيه موسى عليه السلام المجامع الدعوية ومجالس التبليغ والمناظرة التي كان يعقدها نبي الله موسى عليه السلام، وقد كان معروفا لدى فرعون وقومه.

١٨٢٢. تفيد أن التشـــكيك في نوايا الأخيار والدعاة وتوهم طلبهم الانتفاع الدنيوي من أعظم الأسباب الصارفة عن قبول الحق منهم.

١٨٢٣. فيها توجيه للدعاة والعلماء على تفويض بعض المســـائل الكبار والافتاء إلى من هو أتقن وأضـــبط من الآخر وقد ســـار على ذلك الصـــحابة فكان أحدهم ربما ترك الافتاء لعلمه بوجود من يتولى ذلك.

١٨٢٤. فيها بيان الفرق بين المؤمنين بالله والكفار، وذلك لأن الكفار يؤثرون الحياة الدنيا على الآخرة ولذلك قيدوا الكبرياء بالأرض فدل على أن همهم الدنيا.

١٨٢٥. تفيد أن الغالبية ليست دوما على الحق؛ وأن رأي الأكثرية غير معتبر إذا كان في مخالفة الحق..

١٨٢٦. الكبرياء مصـــدر الكبر، مواجهة وهمية مع نبي كريم لا يطلب كبرياء في الأرض، ولا علوا، ولكن المتكبر لديه عقدة التنازع والعلو دائما، وعلى ذلك يواجه ويحارب كل من يعارض رأيه وفكره..

١٨٢٧. فيها: نفي لتصـــديق القوي الشـــديد موســـى، والهين اللين هارون، فكأنهم يقولون لا نؤمن لسهل ولا صعب، ﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾

١٨٢٨. تفيد: أن ســوء الظن، يصــد عن اتباع الحق، وهذا أمر خطير وشــائع في بعض الناس؛ يسيئون الظن بمن يحدثهم عن الله ورسوله.

١٨٢٩. تفيد أن أهل الباطل يرمون المصلحين بباطلهم " رمتني بدائها وانسلت " (وتكون لكما الكبرياء.

١٨٣٠. تفيد: أنه لا يحق للمرء أن يمتنع عن الحق لشخص المبلغ؛ لقوله: ﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ وقول الله﴿وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي﴾ [هود:٨٩]

١٨٣١. تفيد شدة عتوهم واستكبارهم وعدم رغبتهم في الإيمان؛ دل على ذلك المؤكدات في كلامهم.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ﴾ [يونس:٧٩، ٨٠]

١٨٣٢. فيها بيان شدة عناد فرعون واستكباره ومعارضته لما جاء به موسى عليه السلام من الحق في احضاره للسحرة على اختلاف أجناسهم وأوصافهم.

١٨٣٣. فيها بيان ضعف عقل فرعون وسوء فهمه حيث كان يظن أن ما جاء به موسى عليه السلام هو من أنواع السحر.

١٨٣٤. تفيد: أن السحرة أعوان الطغاة في كل العصور أمام ما يبهتهم ويحيرهم، ويعيشون ويتعيشون به، فهم من ضمن البطانة.

١٨٣٥. فيها: أن السحر له قوة مؤثرة، ولا يؤثر إلا بإذن الله ﴿سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾.

١٨٣٦. فيها أن في السحر علم ولكنه علم شيطاني. ولا يلجأ إليه إلا مبهوت، كافر، أو بياع لدينه وآخرته، لأنه مركب صعب يباع فيه التوحيد الذي هو حق الله بأبخس الأثمان وأرذلها.

١٨٣٧. ينبغي للداعية وصاحب الحق أن يطلب من خصمه أن يبدأ بما عنده، كما هنا، فهو أولى من يظهر ما في جعبته ابتداء. وكون الخصم يبدأ بما عنده فائدته: أن يكون صاحب الحق متهيأ بشكل أقوى لرد الباطل، وهذا أيضا أقوى أثرا في رد الباطل ودحضه، وإثبات الحجة ورفعها، وهو كذلك من آداب الترافع في الخصومات حال القضاء.

١٨٣٨. فيها: أن فرعون –على باطله– احتاط... فطلب: الكم ﴿بِكُلِّ﴾ والنوع ﴿عَلِيمٍ﴾وكذا حال الباطل على مر الأزمان؛ يحشد بذكاء وتدبير.

١٨٣٩. تكررت قصة موسى عليه السلام وفرعون، مع اختلاف في كل مرة بطريقة العرض أو بإجمال أو تفصيل أو بتركيز على نقطة دون أخرى... وكذا المفروض في الداعية تغيير أساليبه في عرض ما عنده وتنويعه حسب جمهوره والظرف والبيئة فلكل مقام مقال.

١٨٤٠. السحر أنواع وأشهره نوعان – والله تعالى أعلم – الأول إيصال الضر للمسحور من ألم أو مرض أو التفريق بين الأحبة قال تعالى ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:١٠٢]، والثاني مجرد التخييل قال تعالى ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ [طه:٦٦]، وهذا النوع هو الذي استخدمه أولئك والله اعلم.

١٨٤١. فيها أن فرعون لما قال: ﴿ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾ قصد الايهام بأن ما جاء به موسى عليه السلام سحر، عليم: بأنه سحر على مستوى عال فتطلب شيئاً موازياً.

١٨٤٢. تفيد: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ﴾ . استصغاراً لما في جعبتهم.

١٨٤٣. في الجملة أيضا: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ﴾ استخدام الأدب في معركة الحوار والنقاش مع الخصم، ولو كان من أشد الناس كفراً، يقوده إلى الإيمان والاقتناع بما تقول.

١٨٤٤. الطاغية مهما بلغ جبروته وكبريائه فهو ذليل حقير مستعبد لحاشيته وأعوانه يلجأ إلى السحرة والمشعوذين يستنجد بهم أمام قوة الحق وسلطانه.

١٨٤٥. فيها أن من اعتمد على شيء (غير الله) خذل من جهته.. فإن فرعون اعتمد على السحرة لقوله ﴿عَلِيمٍ﴾ (لأنه لا يريد أي ساحر إنما العليم منهم، لتعلق قلبه بهم) فخذل من تلك الجهة...

١٨٤٦. ثبات ورسوخ صاحب الحق مهما كانت صعوبة الظروف وشدتها ومهما بلغت التحديات ومهما عظمت الابتلاءات.

١٨٤٧. تفيد أن أحد أعظم أسباب تمادي الظلمة في ظلمهم هو بطانة السوء وإعانة بعض الرعية الظالم على ظلمه ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾، ففي قصة الامام سفيان الثوري عندما نصح امير المؤمنين المهدي وهو في الحج في تخوضه في أموال المسلمين قال كاتبه لسفيان

الثوري محتجا علي النصح المبذول: "أمير المؤمنين يستقبل بمثل هذا؟. فيجيبه سفيان بقوة المؤمن وعزة المسلم: اسكت إنما أهلك فرعون هامان"(١).

١٨٤٨. تفيد الجملة: ﴿سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾ أهمية العلماء والخبراء والمختصين خاصة عند المحن والملمات.

١٨٤٩. تفيد أن توفر القوة في العمل ﴿بِكُلِّ سَٰحِرٍ﴾ والأمانة في الأداء على الوجه المطلوب ﴿عَلِيمٍ﴾ من المطالب التي يتفق عليها عقلاء البشر في كل أمة من الأمم، وشريعة من الشرائع وهما شرطا الولاية.

١٨٥٠. تفيد أن الحكمة ضالة المؤمن وهو أحق بها أينما وجدها ﴿بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾ كلمات خرجت من فم الطاغية عدو الله فقصها رب العزة والجلالة ليكون لنا فيها عبره.

١٨٥١. يظهر فيها انتشار السحر في ذلك العهد واشاعته فجاءت المعجزة تناسب الحال (مَا مِنْ نَبِيٍّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ إِلَّا قَدْ أُعْطِيَ مِنَ الْآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُهُ وَحْيًا أَوْحَى اللَّهُ إِلَيَّ فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ"(٢) .

١٨٥٢. يؤخذ منها: أن عند المناظرات، ينبغي جلب الخبير المتقن؛ فإن من العلماء من لا يحسن المناظرة؛ لقوله: ﴿سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾؛ فلم يكتف بكونه ساحرا فحسب.. وهذا أمر مهم جدا؛ فإن بعض الناس يقحمون أنفسهم في المناظرات، فتجني ثمارا مرة أو قاتلة.

١٨٥٣. تفيد مكر الله بأعدائه نصرة لأوليائه حيث جمع فرعون السحرة وحشدهم صدًا للحق وتكذيبا للرسول فإذا بالسحر ينقلب علي الساحر.

١٨٥٤. فيها أن السحر له حقيقة لأنه يتعلم، وله تأثير وهو قول أهل السنة خلافا للمعتزلة.

١٨٥٥. فيها أن السحر علم لكنه علم محرم وضار ولا يتعلم إلا بعد الكفر.

١٨٥٦. فيها أن السحرة مراتب فيهم من هو عليم ومن هو دون ذلك.

١٨٥٧. فيها بلاغة القرآن الكريم في عرضه للقصص فيذكر في كل موضع ما يناسبه؛ فقد طوى هنا حوار موسى عليه السلام مع السحرة وفصله في سورة طه.

---

(١)وفيات الأعيان ٢/ ٣٨٧ .

(٢) أخرجه البخاري ١٨٢/٦، ومسلم ١٣٤/١.

١٨٥٨. فيها ثبات الداعية ورباطة جأشه في مواجهة الباطل رغم كثرة أهله.

قال تعالى: ﴿ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [يونس:٨١]

١٨٥٩. السحر نوع من أنوع الإفساد في الأرض.

١٨٦٠. كل من يواجه الحق فهو مفسد.

١٨٦١. سرعة استجابة الداعية لإظهار الحق ﴿ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ ﴾.

١٨٦٢. تفيد ثقة الداعية بربه في النصر وهزيمة العدو.

١٨٦٣. تفيد أن ما جاء به موسى ليس سحرا بل هو الحق. ووجه الدلالة لو كان سحرا كما زعمتم فإن الله سيبطله كما يبطل سحركم.

١٨٦٤. يجب على الداعية أن يواجه الخصم في المناظرة بأن هذا باطل ويوجز ﴿مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ﴾ ويقرر في مقابلة الحق ويطيل فيه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾.

١٨٦٥. تفيد أن المواجهة بالبطلان وتقرير الحق في مقام المناظرة مع الخصم قوة وحجة، وعدم التصريح بهذا ضعف وعدول عن المحجة.

١٨٦٦. تفيد كلمة الإصلاح أنها كلمة نفسيه موقرة في الأصل، وتختلف آثارها باختلاف ما أريد بها، فهي هنا خبر عن الله نكالا وخزيا للمبطلين، وفي حق المؤمنين بذل الخير ما استطاعوا بتوفيق الله، وفي حق المنافقين دعوى عريضة وقلب للحقائق والتصورات.

١٨٦٧. تفيد أن على أصحاب الكرب والمصائب، ومن ابتلوا بالسحر والشعوذة وأعمال الجن، الاكثار واللهج من ذكر الله تعالى واستحضار اسمه جل جلاله دوما وأبدا فهو الذي تنحل به العقد، وتنفرج به الكرب، وتقضى به الحوائج، وتنال به الرغائب؛ لقول موسى عليه السلام مكررا اسم ﴿ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ﴾ وكذلك قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾.

١٨٦٨. تفيد أن القرآن الكريم يفسر بعضه بعضا؛ حيث ذكر موسى عليه السلام في هذه الآية أن الله تعالى سيبطل سحر سحرة فرعون، وجاء التصريح في بعض المواضع من القرآن الكريم بأن ذلك قد وقع بالفعل، قال تعالى: ﴿ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف:١١٨].

١٨٦٩. تفيد أن علي الداعية تسميه الأشياء باسمها لتستبين سبيل المجرمين ومنعًا للخلط فالخبر من موسى عن الذي جاءت به سحرة فرعون أنه سحر ﴿مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ﴾

١٨٧٠. تفيد استحقار واستخفاف موسى عليه السلام وعدم الاكتراث بما جاء به السحرة من أنواع السحر؛ لقوله: (آلسحر) على قراءة من قرأ بهمزة الاستفهام.

١٨٧١. تفيد ظهور ما يتعاطون من السحر أمام أعين الناس وهذا من باب الاستدراج ومكر الله بهم وهذا من سنة الله فقد يظهر الباطل والفساد حتى إذا اخذه الله أخذ عزيز ونصر رسوله وصارت العبرة به أكبر وأعظم.

١٨٧٢. تفيد أنه ليس في السحر سحر فيه إصلاح كما يزعم السحرة وغيرهم مما يسمونه سحر المحبة.

١٨٧٣. تفيد بيان ثقة موسى عليه السلام ويقينه بوعد الله تعالى في إبطال الباطل، وأن وعده جل جلاله لا يتخلف، بل وسيأتي سريعا؛ لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ﴾

١٨٧٤. تفيد أهمية التركيز عند مواجهة الباطل على الحرب الإعلامية والكلامية؛ وذلك لدورها الكبير في التأثير النفسي على الخصم، وإلحاق الهزيمة النفسية المبكرة بالعدو؛ لقول موسى عليه السلام: ﴿قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾

١٨٧٥. تفيد بمفهوم المخالفة أن الله تعالى يصلح عمل المصلحين.

١٨٧٦. وتفيد أن أعظم الفساد نصر الباطل ومغالبه الحق.

١٨٧٧. تفيد أن من يغالب الله يغلب.

١٨٧٨. تفيد أن العاقبة للحق وأهله.

١٨٧٩. فيها: رد على الجبرية..

١٨٨٠. تشير إلى: توكل موسى – عليه السلام – وثقته في الله. وهذا يجب أن يكون عند المناظرات. وقول الله: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ [الأنعام:٨٣].

١٨٨١. تفيد: بمفهومها أن الله، يصلح عمل المصلحين ويحق لهم الحق.

١٨٨٢. فيها: أنه مهما زين أهل الفساد باطلهم في أعين الناس وخدعوهم بفاعليته وجدواه فقد حكم الله بإبطاله وكشف زيفهم.

١٨٨٣. يفهم منها: أنه ينبغي للمناظر المسلم، أن يقرع خصمه بالله وبأسه وأنه سيبطله عمله وحجته. وقول الله: ﴿وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا﴾ [الفرقان:٥٢]. ومما يحزن، أن يخلو أو يقل كلام المناظر من مثل هذا.

١٨٨٤. تفيد أن توجس موسى عليه السلام وخوفه من سحر السحرة لم يكن شيئا ظاهرا عليه، بل إن ما كان ظاهرا عليه هو ثقته بربه ويقينه بوعده الذي لا يتخلف ولا يتبدل، وعليه؛ فإنه ينبغي للمؤمن مهما تعاظمت الأمور وقويت شوكة الأعداء أن لا يظهر لخصمه وعدوه إلا رباطة الجأش وقوة اليقين بالله تعالى، وثقة بموعوده.

١٨٨٥. تفيد أسلوب القرآن الكريم في اختصار وإيجاز القصص الطويلة واختيار المشاهد وانتقاء العبارات وتخصيص بعضها بالذكر دون بعض في موضع دون آخر، وفي سورة دون أخرى، وذلك بما يتناسب ويتناسق مع الوحدة الموضوعية ومع المواضيع والمقاطع الفرعية للسورة..

١٨٨٦. تفيد أن هذه الآية الكريمة والتي بعدها من الآيات القرآنية العجيبة والمجربة في معالجة وإبطال مختلف أعمال السحر والسحرة، فسبحان من جعل القرآن الكريم ﴿وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [يونس:٥٧]

١٨٨٧. تفيد أهمية تجهيز وإعداد نفسية العدو لتقبل الهزيمة الساحقة، وذلك لمساعدته نفسيا في اتخاذ القرار الصائب حال هزيمته؛ ﴿قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئۡتُم بِهِ ٱلسِّحۡرُۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبۡطِلُهُۥٓۖ﴾.

١٨٨٨. تفيد أن النجاح والفوز في أي مواجهة حاسمة ضد العدو إنما تكون بالتبرؤ من الحول والقوة، وإسناد الأمر إلى الله تعالى صاحب الحول والقوة، وطلب العون والتوفيق منه سبحانه وتعالى؛ لقول موسى عليه السلام: ﴿قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئۡتُم بِهِ ٱلسِّحۡرُۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبۡطِلُهُۥٓۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾. أي: أن الله سبحانه وتعالى سيعينني وسيوفقني لهزيمتكم وإبطال سحركم فأنا لا حول لي ولا قوة لي في إبطال سحركم من دون توفيق وعون من الله تعالى..

١٨٨٩. تفيد أن النجاح في المواجهات الحاسمة تحتاج إلى جزم وتوكيد وقوة يقين بالله تعالى؛ لقول موسى عليه السلام: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبۡطِلُهُۥٓۖ﴾

١٨٩٠. فيها فضل موسي عليه السلام كليم الله، حيث قام مقاما عظيما في تبليغ رسالة الله ومواجهة أحد أكبر طواغيت التاريخ البشري.

١٨٩١. فيها أنه ينبغي على الدعاة والمصلحين ربط الناس بالله عز وجل (و ليس بأشخاصهم) فله الأمر كله و إليه يرجع الأمر كله.

١٨٩٢. الكلام عن الله ينبغي أن يكون بثقة وتأكيد وليس اضطراب أو تشكيك.

١٨٩٣. فيها حكمة الداعية في هداية الناس للحق حيث نقلهم موسي عليه السلام من حقيقة النظر بالبصر ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبۡطِلُهُۥٓ﴾ والذي سيرونه حتما الي حقيقة نظر البصيرة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ وفرعون وقومه من أكبر المفسدين ﴿ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [يونس:٩١]

قال تعالى: ﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ [يونس:٨٢]

١٨٩٤. هذا الآية كلها بما فيها وبما حوت من معان، كأنما هي تصب في قلوب المؤمنين الماء والثلج والبرد، فلله الفضل والمنة.

١٨٩٥. كلمات الله القدرية والشرعية كافية في بيان الحق وبراهينه.

١٨٩٦. فيها أن من يدعو لدين الله الحق قد لا يسلم من أذية السفهاء والمجرمين.

١٨٩٧. تفيد: أن كراهية الحق إجرام، وهي من صفات المجرمين في الأرض وهذه واحدة من صفاتهم، وأن من علامات المجرمين معاداة أهل الحق.

١٨٩٨. فيها ان الطعن في أدلة الكتاب والسنة إجرام.

١٨٩٩. فيها أن من أسوء الإجرام كراهة الحق، وكراهة ظهوره والسعي لكتمانه ومحاربة أهله.

١٩٠٠. فيها تقديم أدلة الكتاب والسنة في مناظرة الخصوم.

١٩٠١. تفيد: كلمات الله القدرية هي التي ينفذ بها القدر، لكل شيء أراده الله، وليس المخلوق بها علم ولا تصرف، وهي سر الله في خلقه.

١٩٠٢. فيها الوعد الصادق بظهور الحق وعلوه رغم أنوف المجرمين ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾ [التوبة:٣٣] ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [غافر:١٤]، ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ [يونس:٨٢].

١٩٠٣. فيها مع التي قبلها تثبيت، وبشارات للمؤمنين فمن ذلك: قيام قول الله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس:٨١] مقام السنة الكونية الإلهية، والقاعدة الراسخة الكلية التي تثبت، وتبشر المؤمنين .

١٩٠٤. تفيد: أن الفاسد مهما طال أمد فساده فإنه إلى زوال وهلاك.

١٩٠٥. فيها: أن اليقين بتحقيق وعد الله، وقضائه وقدره بنصر المؤمنين ولو كره المجرمون.

١٩٠٦. بضميمة ما قبلها من الآيات تفيد تقديم نموذج الإتيان بالقضايا في شكل قضايا كلية تندرج تحتها الجزئيات وهذا أدعي في تأطير المخاطب وتوجيهه.

١٩٠٧. فيها ترغيب للحق وبيان لفضله حيث تولى الله سبحانه إحقاقه.

١٩٠٨. فيها ما يورث الثقة والطمأنينة أمام هذا المكر الكبار في هذا الزمان تجاه دعوة الحق.

١٩٠٩. تفيد عظمة الله تعالى وأن الأمر بيده والقضاء الفاصل بين عباده له، وأن الخلق لا يعجزونه..

١٩١٠. فيها: قدرة الله وسلطانه، وأنه – تعالى – يظهر الحق أبدا ولو بعد حين؛ بدليل المضارعة في قوله: ﴿وَيُحِقُّ﴾؛ وكم من حقائق أظهرها الله بعد دهر طويل أو موت أصحابها. وقول الله: ﴿ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [يوسف:٥١].

١٩١١. ومنها: حمد الله وشكره على توفيقه وإظهاره لهذا الحق.

١٩١٢. تفيد مع ما قبلها أن السحر إجرام، وأن السحرة مجرمون لا يريدون ظهور الحق.

١٩١٣. فيها أن الحق منصور مهما علا الباطل وارتفع في الظاهر؛ (بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق)..

قال ابن القيم رحمه الله في الكافية:

والحق منصور وممتحن فلا ... تعجب فهذي سنة الرحمن

وبذاك يظهر حزبه من حربه ... ولأجل ذاك الناس طائفتان

١٩١٤. فيها عظمة هذه الكلمات وجلالها لإضافتها إلى الرب جل وعلا؛ ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ [الكهف:١٠٩]

١٩١٥. تفيد: أن جمع الكلمات يدل على كثرتها وتنوعها؛ قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان:٢٧].

١٩١٦. تفيد أن الحق يستمد ثباته وقوته وانتصاره من الله الحق فأنّى يقارع وأنّى يغالب.

١٩١٧. تفيد التنبيه لمقابلة إلهية مصدر الحق مقابل مصدر ما يعارضه وهم "المجرمون" سواء أكانوا شياطين الأنس أو الجن.

١٩١٨. تفيد أن من يغالب الله يغلب وأن الله لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه.

قال تعالى: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [يونس:٨٣].

١٩١٩. تفيد أن الواجب مقابله الرسل بالتصديق وفيها ترغيب قريش في ذلك: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ﴾.

١٩٢٠. تفيد أن الهداية بيد الله، وليس وجود الآيات، وقوة حجة الداعية يستلزم تحقق الهداية.

١٩٢١. فيها تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم والحال متشابه، لقوله: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ﴾.

١٩٢٢. فيها أن دور الداعية محوري، واساسي في استجابة المدعوين: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ﴾.

١٩٢٣. تفيد: أنَّ موسى عليه السلام وهو من ذوي العزم من رسل الله تعالى، والكليم، والمشفوع بأخيه هارون، وبالآيات البينات، ومع ذلك في بداية أمر دعوته كما حكى الله عنه في قوله: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ﴾، وليس طائفة، ولا قبيلة.

١٩٢٤. فيها أن الشباب هم غالباً من يستوعب الدعوة بعكس الشيبة، والشيوخ فإن تغييرهم أصعب.

قال زهير بن أبي سلمى:

وإن سفاه الشيخ لا حلم بعده *** وإن الفتى بعد السفاهة يحلمِ

١٩٢٥. فيها إشارة إلى صعوبة التغيير لدي كبار السن، وخروجهم عما اعتادوا عليه.

١٩٢٦. تفيد لفظة الذرية أن أقرب الناس للحق في الغالب من الناشئة، والشباب فهم أرق عودا، وألطف طبعا، وأقرب للخير.

١٩٢٧. فيها: العمل على تحصين الشباب من الأفكار الهدامة.

١٩٢٨. تفيد أهمية الاهتمام بدعوة الذرية، والأقربين خاصة في أوقات البطش، والتضيق على الدعوة، والدعاة.

١٩٢٩. تفيد أن على الداعية أن يكون له بُعد نظر يتجاوز زمانه الحاضر مستشرفا المستقبل.

١٩٣٠. تفيد أن من رحم المحن تولد المنح فلا ييأس الداعية، ولا يقنط من رحمه الله.

١٩٣١. تفيد شده الابتلاء سنة من سنن الله: ﴿عَلَىٰ خَوۡفٖ مِّن فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِمۡ أَن يَفۡتِنَهُمۡۚ﴾.

١٩٣٢. تفيد بأسلوب المخالفة عظم نعمة الأمن، وأهمية استغلالها في طاعة الله والدعوة إليه.

١٩٣٣. تفيد عظم دور حرص الناس على الشرف، والسيادة كمانع من موانع الهداية: ﴿وَمَلَإِيْهِمۡ﴾.

١٩٣٤. تفيد أثر الطغاة في صد الناس عن الهدى، وأن الخوف مانع من موانع الاستجابة لدعوة الحق.

١٩٣٥. تفيد هذه الآية أنه مع قلة العدد، والخوف إلا أن وصف الإيمان حصل لتلك الذرية، وهو نوع من الكرامات، والتي ستبقى أيضا إلى قيام الساعة.

١٩٣٦. تفيد، وتدل على صدق إيمانهم، وحرصهم الشديد عليه، وخوفهم من الفتنة، والنكوص عنه تحت وطأه البطش، والقتل وغيره﴿أَن يَفۡتِنَهُمۡۚ﴾.

١٩٣٧. من صفات الطغاة: تعذيب الناس بالقتل، والصلب، وكل أنواع التعذيب لصدهم عن الهدى، التكبر، والعلو والتجبر، ممارسة الظلم، والفساد في الأرض دون محاسبة، أو خوف لا من الله، ولا من الخلق، فهذه هي الصفات الفرعونية في كل زمان ومكان.

١٩٣٨. تفيد: أنَّ خوف المؤمن أن يفتن عن دينه من أشـــد ما يكون من البلاء، وبه يمحص الصادق من الكاذب، والنقي من المخلط.

١٩٣٩. تفيد أن خوفهم من أن يصـــرفهم عن دينهم أعظم من القتل وما دونه من الابتلاء، وهذا دليل علي صدقهم، ودليل استشراف لمستقبل تمكينهم بمنه من الله، وفضل.

١٩٤٠. تفيد توصـيف أعمال الطغاة في الأرض على مر التاريخ، وأقطاب الشـر فيها ثلاثة: فتنة المؤمنين عن دينهم، والغلو في الأرض، والاسراف.

١٩٤١. من أصـعب الفتن علي المؤمن أن يتسـلط عليك عدو يجمع بين (التكبر) الذي يؤدي للظلم، والتعذيب وبين (الإسـراف) وهو تجاوز الحد المعقول في الظلم والتعذيب وغيره، فحق لهم الخوف من الفتنة.

١٩٤٢. فيها أثر الطغاة في الصد عن سبيل الله عز وجل، وتخويفهم الناس من الإيمان، وفتنتهم في الدين؛ لقوله: ﴿عَلَىٰ خَوۡفٖ مِّن فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِمۡ﴾.

١٩٤٣. تفيد قرب أوان حط فرعون، وزلزله أركان عرشـــه، وهبوطه بعد التعالي فأنه ما ارتفع شيء إلا حطه الله عز وجل. ﴿لَعَالٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾.

١٩٤٤. فيها تحقير فرعون لقوله: ﴿لَعَالٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾فتكبره لا يعدو أن يكون في الأرض، والمتكبر ذليل مهما تجبر.

١٩٤٥. فيها النهي عن الاسـراف، وذم المسـرفين؛ لأن هذا وصـف به فرعون وكان سـبباً في هلاكه، وقد قال تعالى: ﴿ثُمَّ صَدَقۡنَٰهُمُ ٱلۡوَعۡدَ فَأَنجَيۡنَٰهُمۡ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهۡلَكۡنَا ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾[الأنبياء ٩].

١٩٤٦. تفيد انقطاع مادة الهداية عن فرعون لتعاليه، وإسرافه.

١٩٤٧. الفائدة العامة من الآية الكريمة: تفيد بأسلوب المخالفة خطأ من اعتقد أن الانقلابات، والثورات، والتفجيرات هي الوسيلة الأجدى، والأمثل في إحداث التغيير الدعوي المنشود ومجابهه الطغاة والمتجبرين من أهل السلطة، والرئاسة.

قال تعالى: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ ﴾ [يونس:٨٤]

١٩٤٨. فيها أن التوكل على الله والتفويض إليه من كمال الإيمان، ومقتضى من مقتضياته، وهو دليل على حسن ظن المؤمن بربه وثقته في تدبير مولاه عز وجل.

١٩٤٩. فيها أن الإيمان شرط التوكل على الله تعالى.

١٩٥٠. يفيد تقديم المتعلق ﴿فَعَلَيۡهِ﴾ على الفعل ﴿تَوَكَّلُوٓاْ﴾ الحصر بمعنى التوكل على الله وحده لا شريك له.

١٩٥١. في الآية حرص موسى على قومه وتعليمه لهم أهم أسباب النصر والنجاح.

١٩٥٢. في نسبة القوم إلى نفسه استعطاف لهم ليقوموا بما يأمرهم به.

١٩٥٣. في الآية أهمية البناء على المسلمات الدينية ما يلزم من الأعمال التعبدية سواء القلبية أو العملية.

١٩٥٤. فيها أن جميع الأعمال لا تقبل إلا بالإسلام كما قال تعالى في آية أخرى ﴿ وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران:٨٥]

١٩٥٥. فيها أن التوكل على الله واللجوء إليه من أعلى مراتب الإسلام ومن أصدقه.

١٩٥٦. تفيد أن التوكل رأس عمل الباطن فهو قاعدة مرتبة الإحسان، أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك..

١٩٥٧. تفيد أنه عند المحن والابتلاء والتضييق تتجلي أهمية القيادة الرشيدة ودورها في الأخذ بيد الأمة إلى بر الأمان.

١٩٥٨. وفيها أن أعظم رصيد للأمة ومن أجل شروط تحقيق النصر عند التضييق وقلة الحيلة التمسك بثوابت الأمة من العقيدة الصحيحة وحسن التعلق بالله وصدق التوكل عليه والاستسلام الكامل له﴿يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ ﴾.

١٩٥٩. تفيد: أنه ينبغي للمربي، أن يعلم ويذكر ويهتم بأعمال القلوب؛ لأن التوكل عمل قلبي.

١٩٦٠. تفيد: أن الإيمان والإسلام، إذا أطلق أحدهما فهو بمعنى الآخر لا فرق.

١٩٦١. تفيد تقرير القاعدة أن مسمي الإسلام والإيمان اذا اجتمعا افترقا واذا افترقا اجتمعا افترقا باعتبار المراد بالإسلام الشعائر الظاهرية وأعمال الجوارح والإيمان ينصرف لأعمال القلوب

ومن ذلك قوله تعالى ﴿فَأَخۡرَجۡنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٣٥ فَمَا وَجَدۡنَا فِيهَا غَيۡرَ بَيۡتٖ مِّنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٣٦﴾ [الذاريات:٣٥، ٣٦]

١٩٦٢. تفيد رسالة بليغة إلى قومه الذين آمنوا على ﴿عَلَىٰ خَوۡفٖ مِّن فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيهِمۡ أَن يَفۡتِنَهُمۡۚ﴾ [يونس:٨٣]، بأن بين لهم التوكل على الله هو طوق نجاة.

١٩٦٣. تفيد أن من يؤمن بالله لابد أن يبتلى ويمحص ويحتاج أول ما يحتاج إلى التوكل.

١٩٦٤. فيها الإشارة الخفية لمن آمن من قومه بأن فرعون سيعذبهم فليتوكلوا على الله وليصبروا.

١٩٦٥. يفهم منها: أن للإيمان علامات وبراهين تصدقه أو تكذبه، وأنه ليس بمجرد قول.

١٩٦٦. تفيد: أن الإسلام، أعم من حصره في الأعمال الظاهرة؛ لأن التوكل عمل قلبي، ومع ذلك يقول: ﴿إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ﴾.

١٩٦٧. لعل المقصود بالإسلام في الآية هو المعنى اللغوي أي الإذعان والتفويض وليس المعنى الاصطلاحي بأنه الأعمال الظاهر وإلى هذا أشار الإمام الطبري رحمه الله.

١٩٦٨. وفيه فائدة مهمة؛ وهي: الاستسلام والانقياد التام لأوامر الله كلها بلا تفريق. وقول الله: ﴿ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ﴾ [البقرة:٢٠٨].

١٩٦٩. تفيد أن القلوب تتوكل والجوارح تعمل، فالتوكل شرط الإيمان وبانتفائه ينتفي الإيمان وعمل الجوارح تصدقه وعدمها تواكل لا توكل.

١٩٧٠. تفيد أن مهمة الدعاة تثبيت الناس عند الفتن.

١٩٧١. تفيد أن للإيمان لوازم من أعظمها التوكل على الله تعالى.

١٩٧٢. تفيد أن من عرف الله تعالى بكمال صفاته لا يمكن أن يتوكل على غيره.

١٩٧٣. تفيد أن التوكل على الله تعالى أعظم ما يتحصن به المؤمن من بطش الطغاة.

١٩٧٤. فيها أن الرسل جميعا جاؤوا بالإسلام؛ لقول موسى عليه السلام: ﴿إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ﴾.

١٩٧٥. فيها تلطف الداعية بالمدعوين بالرفق والكلمات الجميلة المحببة؛ لقوله: ﴿يَٰقَوۡمِ﴾

١٩٧٦. فيها أن الإيمان ليس بالتمني ولا بالتحلي بل له شروط ولوازم تدل عليه؛ ولذلك قال لهم: ﴿إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ﴾.

١٩٧٧. فيها أن الإيمان بالله هو أصل الأصول وبقية أركان الإيمان تبع له ولذلك اكتفى موسى عليه السلام بقوله: ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ﴾

١٩٧٨. فيها أن التوكل من أعظم خصال الإسلام والإيمان.

١٩٧٩. تفيد أن التوكل على الله في إقامة الدين ودعوة الناس إليه فهو من أعظم مقامات التوكل وأرفعها وهو دأب أولي العزم من الرسل ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود:٨٨].

١٩٨٠. تفيد أن التوكل يتحصن به المؤمن مما هو آت، مقارنة بالصبر حيث يفيد في ما وقع والأثنين من أقوي العدة والسلاح في مواجهة الأعداء والبطش والتنكيل. وفي ذلك تهيئة من موسي عليه السلام لقومه لتحمل ما هم مقبلون عليه من بطش وابتلاء.

١٩٨١. تفيد بعد نظر القيادة باستشراف مستقبل الأمة وما هي مقبلة عليه من ابتلاء.

١٩٨٢. تفيد معنى ما في قوله تعالي ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال:٦٠]

قال تعالى: ﴿فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يونس:٨٥]

١٩٨٣. تفيد أنه من مظنة قبول الدعاء أن يكون بعد إظهار الضعف والحاجة لله وأنه عليه المعتمد.

١٩٨٤. فيها: عظم التوكل على الله وأنه مفتاح لراحة النفس.

١٩٨٥. وفيها: أن التوكل على الله وحده قمة التوحيد.

١٩٨٦. فيها الثناء على مؤمني موسى عليه السلام بسرعة الاستجابة لنبيهم وفوريتها دل عليه التعقيب بالفاء.

١٩٨٧. وفيها مكانة هذا الدعاء مع قلة من يفطن له من أهل الإسلام ﴿فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾. مع تكراره في غير موضع من القرآن الكريم بألفاظ متقاربة.

١٩٨٨. سمو نفس المؤمن وصفائها إذ يطلب من مولاه ألا يمّكن عدوه منه، ليس لأجله بل لأجل عدوه، فلا يكون نصر العدو عليهم حاجباً لهم عن الإيمان.

١٩٨٩. بعد نظر المؤمن، وعدم قصوره على مصلحته الشخصية حتى لو كانت الأخروية، وإنما همه أعظم من هذا وذاك، وطموحه أكبر من نجاته بنفسه دون غيره.

١٩٩٠. ظلمهم لم يمنع من الدعاء لأجلهم، هو الرفق ما كان في شيء إلا زانه.

١٩٩١. تفيد حب الخير للغير، فقد تنجو وذاك إنجاز وإنجاز عظيم، ولكن البطولة ألا تنجو ويهلك غيرك بسببك.

١٩٩٢. ففيها حرص المؤمن على الخير للغير مهما كان من هذا الغير تجاهه وهذا خلق الأنبياء فقد حكى النبي صلى الله عليه وسلم نبيا من الأنبياء ضربه قومه فأدموه وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول: اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون، رواه البخاري، وقال مؤمن يس بعد دخوله الجنة: (يا ليت قومي يعلمون)..

١٩٩٣. فيها: سرعة الاستجابة لرسل الله عليهم السلام. وأن أنبياء الله، لا يأمرون إلا بالخير وما ينفع ويحيي القلوب. وقول الله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡ ﴾ [الأنفال:٢٤]

١٩٩٤. من مهام الداعية الاعتناء بأعمال القلوب.

١٩٩٥. فيها: حصر التوكل على الله وحده..

١٩٩٦. تفيد: أنه ينبغي ويتأكد على المسلم إذا ذُكِّر بالله، أن يسارع بالامتثال وأن يقول خيرا؛ بدليل الفاء ﴿ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَا ﴾ وهذا أدعى للهداية وعدم الفتنة؛ ولذا كان ورود الفتنة في تذييلها في غاية الدقة.

١٩٩٧. تفيد وجوب إخلاص التوكل على الله عز وجل وترك الاعتماد على غيره سبحانه وتعالى؛ دل على ذلك الحصر في قولهم: ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَا ﴾

١٩٩٨. يدل الجمع أن توكل الجماعات والشعوب وصدق توحيدها من أعظم أسباب نصرها وتمكينها وتخليصها من ظلم الطغاة.

١٩٩٩. فيها التوسل في الدعاء باسم الرب وهو من أسباب الإجابة وأكثر دعاء الأنبياء والصالحين في القرآن بقولهم: (ربنا)..

٢٠٠٠. يفيد التنكير في قولهم: ﴿فِتۡنَةً ﴾ العموم فلا يكونون هم فتنة ولا يفتنهم الظالمون..

٢٠٠١. وفي هذا استحباب جوامع الدعاء..

٢٠٠٢. كان الطلب: ﴿فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ﴾ فجاء الجواب ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَا﴾؛ إنما سبق من كانوا للأنبياء رُفق، فصحبتهم لم تثمر سرعة استجابة وحسب بل مطابقة تامة بين الطلب والإجابة وبين الأمر والتنفيذ.... وقد يقال: سرعة استجابتهم لنبيهم أثمرت ما ألهمهم المولى إياه من عظيم الدعاء ﴿لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ﴾.

٢٠٠٣. مصاحبة الخيرة خير دوماً، إن هم عزموا ﴿تَوَكَّلۡنَا﴾ ولم تكن ممن بادر فممن اتبع وبالاتباع انتفع، وإن هم دعوا ﴿رَبَّنَا﴾ فإن لم تكن ممن طلب فممن أمّن أو شملته الدعوة للصحبة..

٢٠٠٤. من المواقف التي يكون إظهار العمل خير من الإسرار به: الإجابة على الطلب، ﴿فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ﴾ فلا يكون مظنة رفض أو إهمال، رغم أن ما طُلب أصلاً من أعمال القلوب.

٢٠٠٥. لو أُلهمت الدعاء فاجهر به ﴿رَبَّنَا﴾ لينتفع معك غيرك، أو قد يؤمن عليه من هو خير منك.

٢٠٠٦. فيها أنهم ذيلوا كلمتهم بالتوجه إلى الله بسؤالهم منه أن يقيهم ضر فرعون، ناظرين في ذلك إلى مصلحة الدين قبل مصلحتهم لأنهم إن تمكن الكفرة من إهلاكهم أو تعذيبهم قويت شوكة أنصار الكفار فيقولون في أنفسهم: لو كان هؤلاء على الحق لما أصابهم ما أصابهم فيفتتن بذلك عامةُ الكفرة ويظنون أن دينهم الحق" [1] ابن عاشور.

٢٠٠٧. فيها: تأثير عمل الجوارح على القلب؛ لقوله ﴿فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَا﴾، ولم يخبر عن مجرد توكلهم؛ فلم يقل – مثلا – "فتوكلوا على الله"؛ لكنه آثر ذكر القول.

٢٠٠٨. فيها، وبضميمة ما قبلها: فائدة مهمة؛ وهي: أنه ينبغي على المرء، إذا ما ذكر بالله أن يأتي بحين القول ويقول ما يدل على امتثاله؛ لأنه قال قبلها: ﴿فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ﴾، ثم أخبر عن قيلهم: ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَا﴾؛ لأن بعض الناس إذا ذكرته بالله، لا يأتي إلا بالجدال العقيم.

٢٠٠٩. فيها: أن فتنة الناس عن دينهم، ظلم بين. وقول الله: ﴿وَٱلۡفِتۡنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۗ﴾ [البقرة:١٩١].

---

(١) التحرير والتنوير ٢٦٣/١١.

٢٠١٠. فيها: أهمية التوكل على الله عند الخوف من الأعداء والفتنة؛ لقوله فيما سبق: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ﴾ [يونس:٨٣] وفي هذا إشارة إلى: أن الله، يبتلي عباده بالخوف وغيره لينظر صنيعهم. وقول الله: ﴿وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ [محمد:٤].

٢٠١١. تفيد أن يقدم العبد بين يدي نجواه صدقة وذلك أنهم التزموا أمر رسولهم ثم سألوا الله من فضله أمن الفتنة.

٢٠١٢. تفيد أن أمن الفتن إنما يكون في امتثال الأمر.

قال تعالى: ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [يونس:٨٦].

٢٠١٣. مناسبة الآية لما قبلها، أنهم لما دعوا الله في الآية قبلها بما يحفظ الدين ويصون من الفتن ثنوا بالدعاء بما يحفظ النفس والبدن. لقول بني إسرائيل: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يونس:٨٥]. ثم دعوا وقالوا ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

٢٠١٤. تفيد: الآية بإشارة لطيفة إلى أن اهتمام بني إسرائيل وعنايتهم في ذات الوقت بمصالح الدين كان فوق اهتمامهم بمصالح النفس والبدن، ولا شك أن ذلك يتضمن عظيم المدح والثناء عليهم.

٢٠١٥. تفيد: أن المسلم حريص على نجاة إخوانه المؤمنين معه ولذلك يقول ﴿وَنَجِّنَا﴾.

٢٠١٦. فيها: سعة فقههم فرغم اتخاذهم الوسائل المشروعة إلا أنهم فقهوا أن الذي يوجب نجاتهم رحمته سبحانه، وعفوه ومغفرته، ولهذا يقول ﷺ:"والذي نفسي بيده، لا يدخل الجنة أحد منكم بعمله، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل"[(١)] لقوله تعالى: ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ﴾.

٢٠١٧. يستفاد: من الاستدلال المركب من الآيتين، دليلا للقاعدة في ترتيب الضروريات الخمس، التي اتفقت الشرائع على المحافظة عليها، وهي: الدين، والنفس، والعقل، والعرض، والمال.

---

(١) أخرجه البخاري ١٢١/٧، ومسلم ٢١٦٩/٤.

٢٠١٨. تفيد: النجاة من الشرور تكون برحمة الله تعالى.

٢٠١٩. فيها: عظم منة الله على عبادة حيث ألهمهم أن يسألوه النجاة، وقد أنزلت في بيانها سورة كاملة جمعت هذه الأوصاف لأهل النجاة دون الخاسرين كما قال تعالى" ﴿وَٱلۡعَصۡرِ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ إِلَّا [العصر١: ٣].

٢٠٢٠. فيها: عظم منزلة الدعاء وهو مِن أعظم الواجبات، ومِن أهم أسباب النصر والفَرَج، ولرُبَّمَا بدعوة صادقة في وقت إجابة تتغير الحياةُ على وَجه الأرض.

٢٠٢١. تفيد: الآية مشروعية الاعتصام بالله تعالى من شر كل ذي شر.

٢٠٢٢. فيها: اشتهار فرعون وقومه بالظلم والكفر حتى صار عنوان قوميتهم؛ ﴿مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾.

٢٠٢٣. تفيد: أن النجاة في الدنيا ممن يخشى شره تكون برحمة الله والنجاة مما يخشى في الآخرة إنما هو برحمة الله عز وجل.

٢٠٢٤. أهمية الإخلاص في الدعاء، وهو شرط من شروط العبادة.

٢٠٢٥. فيها: الحث على عبادة الدعاء، وافراد الله عز وجل بالدعاء وحده.

٢٠٢٦. فيها: مشروعية التوسل لله تعالى بالرحمة وبالصفات الحسنى.

٢٠٢٧. فيها: تعميم الدعاء للمسلمين والمسلمات.

٢٠٢٨. فيها: اثبات صفة الرحمة لله عز وجل خلافا لمن ينفيها: من المعطلة.

٢٠٢٩. تفيد: مشروعية البعد عن الكفار والهجرة منهم عند الفتنة.

٢٠٣٠. تفيد: مفهوم البراء من الكفر وأهله.

٢٠٣١. فيها: مشروعية تكفير من كفره الله ورسوله بالضوابط الشرعية الدقيقة.

٢٠٣٢. فيها: جواز الجرح للمجروح بكفر ونحوه لكن بضوابطه ومن متأهل له.

٢٠٣٣. البعد عن الكفار حسيا ومعنويا مطلب شرعي.

٢٠٣٤. تفيد: مع ما قبلها أن أعظم وأنفع ما يزيل من قلب العبد الخوف من طغيان الطغاة، ويحفظ له دينه من الفتن الموبقات، هو التوكل على الله وإخلاص الدعاء له، وطلب الرحمة منه، لقوله تعالى: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٞ مِّن قَوۡمِهِۦ عَلَىٰ خَوۡفٖ مِّن فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِمۡ أَن يَفۡتِنَهُمۡۚ﴾. [يونس:٨٣].

ثم قال: ﴿فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [يونس:٨٦-٨٥].

٢٠٣٥. تفيد: أهمية إنزال المفاهيم الشرعية (الكفر) في مواطنها الصحيحة وفق الضوابط الشرعية والقواعد المرعية، توافرًا للشروط وانتفاء للموانع.

٢٠٣٦. فيها: عظم شأن الدعاء وأثره في حياة الأنبياء حيث كانوا يلجؤون إلي الله ويدعونه وهم أفضل البشر ولنا فيهم القدوة الحسنة.

٢٠٣٧. يؤخذ منها أن الدعاء يستحب فيه الإجمال دون التفصيل إلا إذا اقتضت المصلحة ذلك، وقد كانت أدعية النبي ﷺ جوامع.

٢٠٣٨. فيها: أنه لابد من فعل الأسباب في حصول ما يأمله الأنسان، وأن ذلك لا ينافي التوكل، بل أن ترك الأسباب قدح في الشرع كما نص على ذلك شيخ الإسلام رحمه الله.

٢٠٣٩. تفيد: بضميمة الآيات قبلها أن الدعاء الذي يبني على التوكل على الله، فإنه أرجى للإجابة.

٢٠٤٠. فيها: أن من رحمة الله بك أن ينجيك من القوم الكافرين.

٢٠٤١. فيها: أن لا يتساهل أن يهاجر المسلم إلى بلاد الكفر وخاصة التي يظلم فيها: أو لا يستطيع فيها إظهار دينه.

٢٠٤٢. فيها: أن العافية والتي تستحق الشكر لله أنه لم يبتلينا بما ابتلى به من قبلنا.

٢٠٤٣. فيها: أن من ابتلى بشيء من مضايقة الكفار أو أذنابهم فليتأسى بهؤلاء في حسن التوكل والدعاء.

٢٠٤٤. فيها: الإخبات والتواضع لله، وأنه لا يجب على الله شيء؛ لقوله: ﴿بِرَحْمَتِكَ﴾، أي بمحض الرحمة والفضل، فإن جزاؤه كله فضل وعدل: فإنه إن أعطى فبفضله ورحمته ونعمته، وإن منع أو عاقب فبعدله وحكمته:

ما للعباد عليه حق واجب ... كلا ولا سعى لديه ضائع

إن عذبوا فبعدله، أو نعموا ... فبفضله، وهو الكريم الواسع".

٢٠٤٥. فيها: قول المؤمنين ﴿وَنَجِّنَا﴾ وليس و(أنجنا) تشـــير إلى أهمية طلب الأعلى وانتقاء ألفاظ الدعاء، وتومئ إلى أن أذى الكفار كان جســـيما وبليغا فناســـبه طلب التنجية بالفعل المضعف، على قاعدة زيادة المبنى زيادة في المعنى.

٢٠٤٦. تفيد: مشـــروعية الدعاء بصـــيغة الجمع، حتى لو كان الداعي مفرد؛ لأن أدعية القرآن العظيم يدعى بها كما جاءت.

٢٠٤٧. تفيد: الترغيب في الدعاء للنفس وللمؤمنين، ولا سيما وقت الابتلاء والكرب ولما روى مســـلم في صـــحيحه عن أم الدرداء أن النبي ﷺ كان يقول: (دعوة المرء المســـلم لأخيه بظهر الغيب مســـتجابة، عند رأســـه ملك موكل كلما دعا لأخيه قال الملك الموكل به: آمين، ولك بمثل"[1].

٢٠٤٨. تفيد: أن صفة الأنانية والتقوقع حول الذات ليس من صفات المؤمنين.

على حد قول الشاعر:

ولـــو أنّي حُبِيـــتُ الخُلْـــدَ فَـــرْدًا ... لـــمَا أحبَبْـــتُ بالخُلْـــدِ انفِـــرادا

فـلا هَطَلَـتْ عَلَـيّ ولا بأرْضـي ... سَـحائبُ لـيسَ تنْـتَظِمُ الـبِلادا

٢٠٤٩. تعميم الدعاء فإنه يفيد الترغيب في حب الخير لإخوانه المسلمين كما يحبه لنفسه.

٢٠٥٠. تفيد: أن الكافرين تجمع بينهم صفات مشتركة تدخل في تكوينهم وتؤثر على سلوكهم العادل عليه وصفهم ب﴿ٱلْقَوْمِ﴾.

٢٠٥١. وسمهم باســـم الفاعلين ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ وليس بالموصـــولية (الذين كفروا) يفيد أن الكفر أصبح متجذر ومتمكن ومستمر فيهم.

٢٠٥٢. ويفيد كذلك اسم الفاعل أن الكفر يظل مضـارعا وليس ماضـيا طالما أن آيات النبوة قائمة، فهو فعل متجدد.

٢٠٥٣. فيها: أن الرحمة صـفة لله تعالى وليسـت مخلوقة، ولذلك صـح قولهم ﴿بِرَحْمَتِكَ﴾ولو كانت مخلوقة لكان دعاءهم من باب التوسل الممنوع.

---

(١) أخرجه مسلم ٤/٢٠٩٤.

قال ابن القيم رحمه الله تعالى في الكافية الشافية:

حي مريد قادر متكلم ذو رحمة وإرادة وحنان
يكفيك من وسع الخلائق رحمة وكفاية ذو الفضل والإحسان
يكفيك رب لم تزل ألطافه تأتي إليك برحمة وحنان

قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:٨٧].

٢٠٥٤. تفيد: هذه الآية أن الأخ أقرب سند ومعين مكون من مكونات الأسر الممتدة، فهارون نبي كريم، ومع ذلك وصفه بالأخوة لا بصريح اسمه فقال: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ﴾ ولم يقل: "وأوحينا إلى موسى وهارون".

٢٠٥٥. فيها: تعظيم أمر الله وتعظيم المخاطب فتوجه الخطاب أولًا لموسى وألحق به هارون عليهما السلام لقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ﴾.

٢٠٥٦. تفيد: أن هارون عليه السلام هو نبي مرسل مع موسى عليه السلام لا كما يزعم البعض.

٢٠٥٧. تفيد: مكانة الأخوة الإيمانية ودورها في تثبيت الفئة المؤمنة حال الفتن والتضييق والخوف ﴿مُوسَىٰ وَأَخِيهِ﴾.

٢٠٥٨. وفيها: إنزال الناس منازلهم فتوجه الخطاب أولًا لموسى عليه السلام ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ﴾.

٢٠٥٩. فيها: تعظيم الرب جل وعلا لدلالة بصيغة الجمع في قوله: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ﴾.

٢٠٦٠. تفيد: أهمية اتخاذ القدوة الصالحة في المجتمع ﴿وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾.

٢٠٦١. تفيد: مع ما قبلها قاعدة أنه إذا ضاق الأمر اتسع، وأن الضرورات تبيح المحظورات. لقوله تعالى في الآيات السابقة: ﴿عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ﴾ [يونس:٨٣]. ثم قال ههنا: ﴿وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ﴾.

٢٠٦٢. تشير إلى: عناية الأنبياء واهتمامهم بأقوامهم ﴿لِقَوْمِكُمَا﴾.

٢٠٦٣. تفيد: البشرى كل البشرى، والحكم بالإيمان لمن كان بيته من أول أولوياته لإقامة دينه.

٢٠٦٤. تفيد: ﴿تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا﴾ ﴿بِمِصْرَ﴾ ﴿بُيُوتًا﴾ ﴿وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ التحري في اختيار المنزل، وموقعه، وبنائه، وتوجيهه للقبلة، وحمايته وعمارته بالصلاة ليكون مؤسسا على التقوى.

٢٠٦٥. فيها: أهمية تنويع الخطاب لتحصيل المطالب حيث ثنى ثم جمع ثم افرد ﴿تَبَوَّءَا﴾ ﴿وَاجْعَلُوا﴾ ﴿وَبَشِّرِ﴾.

٢٠٦٦. فيها: إثبات الملكية للبيوت بإضافتها لأهلها وهو رد على الاشتراكية.

٢٠٦٧. بيان فضل لمصر وأنها موطن لبعض الانبياء والرسل.

٢٠٦٨. من أعظم مقومات بناء المجتمع الصالح، بيوت أهل الإسلام في اتخاذ مصليات في البيوت، وجعل عموم البيت قبلة موجها إليها، ليتربى أهل البيت على مشاهد الصلاة والذكر والقرآن.

٢٠٦٩. تفيد: أن أمان المؤمن في أوقات الخوف المحقق من الظلمة والطغاة هو بيته، وأن له أن يجعل منه فسحة عظيمة يسري فيه عن نفسه، ويعبد الله آمنا غير خائف.

٢٠٧٠. وفيها: عظم عناية الله ببني إسرائيل وبالخلص من عباده المؤمنين.

٢٠٧١. تفيد: رحمة الله ببني إسرائيل حيث رخّص لهم في الصلاة في البيوت خوفا عليهم من بطش فرعون وملئه.

٢٠٧٢. تفيد: عظم أمر الصلاة ووجوب المحافظة على إقامتها مع اختيار الموضع المناسب لها، حيث أوحى الله تعالى إلى موسى وأخيه هارون عليهما السلام في شأنها، ولم يكتف الوحي بموسى عليه السلام الذي هو صاحب الشريعة، وما ذاك إلا لأهمية مكانة الصلاة في الشرائع السماوية.

٢٠٧٣. تفيد: ضرورة وجود مساعدين أكفاء للقيادات الكبيرة في القضايا المهمة والخطيرة.

٢٠٧٤. تفيد: أن الصلاة، لا تسقط بالخوف.

٢٠٧٥. تفيد: الأمر بإقامة الصلاة على وجهها الأكمل وليس مجرد الأداء.

٢٠٧٦. فيها: معنى الحديث :"اجعلوا من صـــلاتكم في بيوتكم ولا تجعلوها قبورا"[(١)].وهذا في غير ما شرعت له الجماعة.

٢٠٧٧. تفيد: أن من ضُيِّق عليه في أداء طاعة في مكان ما، فهناك غيرها وغنية عنها لأدائها. قال تعالى معاتبا لقوم ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا﴾ [النساء:٩٧].

٢٠٧٨. تفيد: مع ما قبلها أن إخلاص الدعاء لله تعالى وصـــدق الالتجاء إليه وطلب الرحمة منه، من أعظم الأسباب التي يخفف الله بها عباده المؤمنين من التكاليف الشرعية في أثناء نزول الوحي على الأنبياء، فبنوا إسرائيل في ذلك الوقت كان يتعين عليهم الصلاة في موضع معين، ولكنهم عندما دعوا ربهم بالدعوات السابقة وعلم الله منهم الصدق والعناية بدينهم والإخلاص في دعائهم رحمهم سبحانه وتعالى ورخص لهم في الصلاة في بيوتهم ليكون ذلك نجاة لهم من فتنة وبطش فرعون وملئهم؛ فكان دعاؤهم ﴿لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس:٨٥]، فكانت الاســتجابة: ﴿وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ، أي: بشـــرهم بقبول دعائهم السابق.

٢٠٧٩. تفيد: ضرورة اختيار البيوت المتناسبة مع خصوصية المرحلة الدعوية، والتي تضفي الأمان والطمأنينة على أصحابها، بعيدا عن الطغاة والجبابرة، لقوله تعالى: ﴿أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾ [يونس:٨٧]، وفي هذا بيان وتوضيح لاستراتيجية عظيمة من استراتيجيات الدعوة.

٢٠٨٠. تشـــير إلى: أهمية الصـــلاة عند الفزع والخوف والملمات والتغيرات العامة؛ وهي قاعدة عامة فإن المتغيرات التي تكون من فعل الله شرع لنا أن نفزع عن رؤيتها إلى الصلاة كالخسوف والكسوف، فبطريق الأولى، في المتغيرات الأرضية والتي هي فعل للإنسان.

٢٠٨١. تشير إلى: أهمية البيت. وقول الله: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ [النحل:٨٠].

٢٠٨٢. يفهم منها: أن المسلم، لا ينقطع عن عمل الخير وإن كان وحده؛ وإن حرم من مخالطة إخوانه.

٢٠٨٣. تفيد: الترغيب في الزهد وعدم الانشغال بالدنيا والتوجه بالعباد وقت الخوف والتنكيل بالمؤمنين.

---

(١) ضعيف ، الجامع الصغير وزيادته ١/٣٠٠.

٢٠٨٤. وفيها: ارتباط البيت بالستر والأمان وأمن الفتنة ويشهد لهذا المعني قوله (وليسعك بيتك"[١].

٢٠٨٥. وفيها: إفادة ارتباط مسمي البيت بالعبادة والتوجه الي الله عز وجل.

٢٠٨٦. تفيد: الترغيب في العزلة حال الفتن، والمطلوب من العاقل الحريص على دينه والمقتفي لسنة نبيه – ﷺ – أن يطلب العزلة عن أهل الضلال المحرفين لدينه والمستبيحين لدمه وعرضه وماله.

٢٠٨٧. تفيد: فقه الاستقامة والحفاظ على الدين حال مساكنة الكفرة والظالمين ويشمل ذلك العزلة والتخفيف من متاع الدنيا لحين الارتحال وقوة الصلة بالله والعناية بالعبادة والخوف علي الدين.

٢٠٨٨. تفيد: نشر التفاؤل والثقة في الله وعدم اليأس من روح الله، وأهمية ذلك عند التضييق والحصار ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

٢٠٨٩. يفيد تخصيص الخطاب لموسى عليه السلام مكانة موسى عليه السلام وأنه الأصل في الرسالة وهارون تابع له فكان ذلك تعظيماً للبشارة وللمبشر بها.

٢٠٩٠. تفيد: أن الله، يفرج عن الخائفين المستضعفين ولو بعد حين؛ لقوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

٢٠٩١. فيها: استحباب بشارة المؤمنين بما يسرهم من النصر والتمكين وهزيمة الأعداء.

٢٠٩٢. تشير إلى: أهمية البشارة بالطمأنينة وبثها بين الخائفين. والشواهد مستفيضة.

٢٠٩٣. تفيد: بدلالة المناسبة فقه الخوف، لأنه لَمّا شَرَحَ خَوْفَ المؤْمِنِينَ مِنَ الكافِرِينَ وما ظَهَرَ مِنهم مَنَ التَّوَكُّلِ عَلى اللَّهِ تَعالى في الآيات السابقة أتْبَعَهُ بِأنْ أمَرَ مُوسى وهارُونَ بِاتِّخاذِ بيوتهم قبلة مع الإقبال على إقامة الصلاة.

٢٠٩٤. تفيد: مكانة العبادة عند الهرج والفتن والخوف.

---

(١)حسنه الألباني في السلسلة الصحيحة ٢/٥٥١.

٢٠٩٥. تفيد: مكانة الصلاة كترياق للخوف والوساوس والهلع مع ما تجلبه من طمأنينة وراحة بال، وفي الحديث "أرحنا بها يا بلال"(١).

قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس:٨٨].

٢٠٩٦. مناسبة الآية أنه: لما ختم الآية السابقة ببشارة المؤمنين وهلاك المبغضين وإضلال فرعون وقومه بالأموال والأولاد والزينة، سأل موسى هنا إزالة ذلك راحة وطمأنينة.

٢٠٩٧. تفيد: خلاصة قصة هلاك الطغاة: بمقدماتها: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، ومضمونها وأحداثها: ﴿رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ ونهايتها ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾.

٢٠٩٨. وفيها: الحياة الدنيا متاع الغرور وليست معيار للقبول وعدمه.

٢٠٩٩. وفيها: أن تنوع النعم في الدنيا قد يكون نغمة واستدراجا.

٢١٠٠. وفيها: من القراءات التي لها تأثير في التفسير قراءة (ليضلوا) بالضم والفتح. الضم ليضلوا الناس عن سبيلك. وبالفتح ليضلوا أنفسهم.

٢١٠١. وفيها: جواز الدعاء على الظالم المعين ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ﴾.

٢١٠٢. وفيها: ذكر الأموال لأنها أعز ما يدخر.

٢١٠٣. وفيها: ذكر القلوب لأنها صناديق الأعمال.

٢١٠٤. وفيها: الشد على القلب هو الصد والمنع وهذا من كمال عدل الله وحكمته.

٢١٠٥. وفيها: رؤية العذاب نهاية وغاية. فلا ينفع معه العودة.

٢١٠٦. فيها: أنه إذا اشتدت الأمور فالرب هو النجاة والفرج، انظر إلى النداء ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ﴾ ﴿رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ﴾ ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ هنا كم تكررت؟.

٢١٠٧. تفيد: أن الحرص علي السلطة والشرف من باب، والمال من باب آخر تفسد الدين أيما فساد ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا﴾ " ما ذئبان جائعان"(٢) .

---

(١) تخريج أحاديث المشكاة للألباني وصححه ٣٩٣/١.

(٢) صححه الألباني في صحيح الجامع وزيادته ٩٨٣/٢.

٢١٠٨. فيها: التوسل باسم الرب جل وعلا ﴿رَبَّنَآ﴾ وهذا من أسباب الإجابة وأكثر دعاء الأنبياء والصالحين في القرآن الكريم بهذا الاسم لما في الربوبية من معاني التربية والعناية.

٢١٠٩. وفيها: أن الضلال قاصرا للنفس، أو الإضلال متعديا للغير هو الميزان في الحكم على مدى القرب أو البعد عن سبيل الله.

٢١١٠. وفيها: أن أزين الزينة الأموال ذهبا وفضة، ولها تأثير في حياة الإنسان سواء بالكفر والمعاصي والضلال إلا من اتقى الله فيها: وبر وصدق وتصدق.

٢١١١. وفيها: أن دعاء نبي على قومه يعني عذاب الاستئصال، وليس كدعاء الشخص العادي على الطغاة والظلمة، على أنه في هدي النبي ﷺ وهو أكمل هديا وأجمل برا، أن يقدم دعوتهم والدعاء لهم بالهداية.

٢١١٢. وفيها: أن الطمس على الأموال تغيير وتبديل لأعيانها أو إهلاك ومحو لها من أصلها، هو ميزان لمشاهدة عقوبات الأموال.

٢١١٣. وفيها: أن الشد على القلب ربط له وتقييد عن قبول الحق والإيمان، هو ميزان لمعرفة عقوبات أعمال القلوب.

٢١١٤. وفيها: أن الغرق من أشد الالام التي يتعرض لها ابن آدم، لأنه يرى نفسه يموت أمام نفسه، وهو يبحث عن النفس ولا يجده، ويصارع لأجل الحياة، ويأتيه الموت من كل مكان حتى يموت ولذا استعاذ منه ﷺ ومن مات به من أمة محمد ﷺ فهو شهيد"[1].

٢١١٥. فيها: أن المال، مال الله يؤدى شكره ببذله في خدمة الدين؛ لا أن يحارب به الدين.

٢١١٦. تفيد: أن محاربة الدين، إيذان بزوال المال والنعيم؛ وهذا من الحسرة.

٢١١٧. تفيد: أن المال، ما أنزله الله إلا لإقامة الدين؛ فلما لم يستعمله فرعون في هذا الغرض، دعا موسى عليه بطمسه.

٢١١٨. فيها: التفريق بين الفاسد في نفسه والمفسد لغيره الصاد عن دين الله وأن الأخير جريرته أكبر وأعظم.

٢١١٩. تفيد: التزهيد والتحذير من الترف وبيان عاقبة المترفين.

---

(١) أخرجه البخاري ١/١٣٢، ومسلم ٣/١٥٢١.

٢١٢٠. تفيد: الدعاء على أئمة الكفر والضلال المحاربين لله ورسوله الساعين لإطفاء نور الله المنكلين بأوليائه المؤمنين وتعيينهم بالأسماء بعد دعوتهم بالحكمة والموعظة الحسنة وإقامة الحجة عليهم.

٢١٢١. فيها: مشروعية الدعاء على من أفسده المال وأفسد به بسلبه جزاء وفاقا.

٢١٢٢. فيها: أن كثرة المال والسعة في الدنيا ليست دليلا على رضا الله تعالى عن العبد ومحبته له.

٢١٢٣. فيها: كثرة ما كان فيه الفراعنة من الأموال لأن اتخاذ الزينة لا يكون إلا بعد كثرة المال ووفرته، وآثار الفراعنة اليوم تقف شاهدة على ذلك، وقال تعالى:﴿ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ [الشعراء:٥٧:٥٨].

٢١٢٤. فيها: أن كثرة الأموال بدون إيمان من أعظم أسباب الضلال والإضلال.

٢١٢٥. فيها: أن الطمس على الأموال أشد حسرة عليهم لعدم الانتفاع بها مرة أخرى.

٢١٢٦. يفيد: تقديم الأموال لأنها كانت سببا في طغيانهم وفسادهم.

٢١٢٧. تشير: إلى خطر المال في الصد عن الدين، ونشر الفساد وشراء الذمم.

٢١٢٨. تفيد: بيان عظم دور بطانة السوء في إضلال السلطان وتزيين الباطل له ﴿فِرْعَوْنَ وَمَلَإِهِۦ﴾.

٢١٢٩. تفيد: أن الانغماس في الدنيا وملذاتها والتعلق بها لا شك يصرف الإنسان عن الجادة والاستقامة ﴿لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ﴾.

٢١٣٠. تفيد: أن الإيمان موقعه القلب: ﴿وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟﴾.

٢١٣١. تفيد: أن القلوب أمرها إلى الله وأنها بيده يصرفها كيف يشاء.

قال تعالى:﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يونس:٨٩].

٢١٣٢. فيها: أثبات القول لله تعالى خلافا للمعطلة، الذين نفوا كلام الله ولا يخفى ما يترتب على ذلك من الالزامات التي تهدم الشريعة من أصلها كما قرر ذلك ابن القيم رحمه الله في الكافية في بعض أبياته عاطفا على بعض ما يترتب على ذلك:

فإذا انتفت صفة الكلام فكل هذا منتف متحقق البطلان
وإذا انتفت صفة الكلام كذلك الـ إرسال منفي بلا فرقان
فرسالة المبعوث تبليغ كلا م المرسل الداعي بلا نقصان
وحقيقة الإرسال نفس خطابه للمرسلين وأنه نوعان
نوع بغير وساطة ككلامه موسى وجبريل القريب الداني
منه إليه من وراء حجابه إذ لا تراه هنا هنا العينان
والآخر التكليم منه بالوسـ طة وهو أيضا عنده ضربان
وحي وإرسال إليه وذاك في الشـ ـورى أتى في أحسن التبيان

٢١٣٣. يفيد حرف ﴿قَدْ﴾ التوكيد مع الفعل الماضي فسبحان الله العظيم ما أبلغ القرآن الكريم.

٢١٣٤. يدل التعبير بالماضي ﴿أُجِيبَت﴾ كأن الإجابة وقعت وانتهت من تأكدها وتحققها.

٢١٣٥. فيها: سرعة اجابة الله لدعاء الأنبياء، واجابة الله عز وجل لعموم الداعين بالشروط المعلومة.

٢١٣٦. وفيها: إجابة الدعاء على الظلمة.

٢١٣٧. تفيد: أن أعظم الشكر طاعة المنعم والاستقامة علي شرعه ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا﴾.

٢١٣٨. في الآية دليل لمن يرى أن قراءة الإمام قراءة للمأموم في الصلاة الجهرية، وقد استدل بهذه الآية على هذا المعنى شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى، قال ابن عبد البر في التمهيد "ولا يختلف المفسرون أن موسى كان يدعو، وهارون يؤمن"(١).

٢١٣٩. وفيها: عظم مكانة الاستقامة على دين الله وإذا كان الأمر هنا في حق موسى وهارون فمن باب أولي في حق غيرهما ممن هو دونهما.

---

(١) الموسوعة ٤/ ٣٧٢.

تنبيه: هذا الأثر الذي حكى ابن عبدالبر الاتفاق عليه لا يثبت من حيث الصناعة الحديثية، كما أفاده الحافظ ابن حجر ينظر فتح الباري ٢/ ٢٦٤.

٢١٤٠. تفيد: عناية الله بأوليائه فكأن أمرهما بالاستقامة الجامعة لكل خصال الخير والصلاح وهذا سر جعلها في كل ركعه بالصلاة.

٢١٤١. فيها: الاستمرار في الدعاء واللجأ إلى الله حتى بعد إجابة للدعاء، فإن الله استجاب لدعائهما بهلاك فرعون وأمرهما بالاستقامة على أمر الله.

٢١٤٢. يستفاد منها مشروعية التصريح بتقرير إجابة السائل ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾، واستحباب اقترانه بالتوجيه المناسب﴿فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾، نظير قول المفتي الجواب كذا وكذا ولكن احرص على الاستقامة وعدم الاقتراب من هذا الأمر، أو عدم البقاء في جوار الفاسدين لئلا يجرونك إلى ارتكاب النهي مرة أخرى.

٢١٤٣. فيها: أن الاستقامة وعدم اتباع سبيل الذين لا يعلمون أمر مشروع، ويتأكد بعد كل دعاء استجابة الله وحققه لعبد من عباده، شكرا لله وإخباتا واعترافا بالفضل والمنة.

٢١٤٤. فيها: أن قضاء الله وإجابة الدعوات ولو طال أمدها، مغاير لسبيل الذين لا يعلمون، من الكهنة والمتخرصين والمتعجلين، قيل كان بين دعوة موسى وأخيه وتحققها مدة طويلة، أمرا بالاستقامة على دعوة فرعون وملئه، مع تحققهما بوعد الله إنه هالك، ولله الحكمة البالغة، وله الأمر من قبل ومن بعد.

٢١٤٥. تفيد: أن الدعوة الي الله من أعظم وسائل الثبات على دين الله والاستقامة على الجادة.

٢١٤٦. تفيد: عظم مقام الدعاء في باب النصر على الأعداء.

٢١٤٧. تفيد: كذلك أن الاستقامة على فعل الطاعات من أسباب إجابة الدعوات (تعرف علي الله في الرخاء يعرفك في الشدة"[١].

٢١٤٨. يفهم منها: عدم الاغترار مهما بُشر به العبد وكان عليه من عمل؛ فحسبك أن الله بشر موسى وأخاه – عليهما السلام – بالاستجابة ووعدهما بإهلاك عدوهما؛ ومع ذلك يقول: ﴿فَٱسْتَقِيمَا﴾.

---

(١)صححه الألباني في صحيح الجامع ٥٦٩/١.

٢١٤٩. تشير إلى: لزوم الاستقامة بعد النصر على الأعداد، وأن الانحراف عنها سبب في عودتهم مرة أخرى.

٢١٥٠. تفيد: الجملة: ﴿فَٱسۡتَقِيمَا﴾أي: على الدعاء، والاستقامة في الدعاء ترك الاستعجال في حصول المقصود.

٢١٥١. فيها: أن الله عز وجل هو مجيب الدعوات وكاشف الكربات، وفي ضمن ذلك التعلق به وحده وأن هذا من سنة الأنبياء.

٢١٥٢. فيها: أن الاستقامة من أسباب إجابة الدعاء، وتحقيق النصر على الأعداء..

٢١٥٣. فيها: أمر من هو مستقيم بالاستقامة؛ زيادة وثباتا ودعوة لغيره..

٢١٥٤. تشير إلى: سلطان الله، وأن الأمر كله إليه – جل ذكره –، وأنه يتفضل بالإجابة؛ لأوليائه المتقين.

قال تعالى: ﴿۞ وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠].

٢١٥٥. تفيد: أن الكبر آفة الأمم الهالكة، وهنا لا تزال تشم من الطغاة روح الكبر في ألفاظهم إلى آخر لحظة، ومن عاش على شيء مات عليه ﴿ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ ولم يتنازل أن يقول الله ربي. ويقول: ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ وليس له فيه معهم قبيل ولا دبير، ولكنه الكبر.

٢١٥٦. فيها: التصريح بعدم قبول توبة الاضطرار وهي خلاف توبة الاختيار، وذلك سنة الله في الأمم إلى قيام الساعة، فمن شروط التوبة التي يغفل عن ذكرها كثير ممن يتكلم عن الشروط، أن تكون التوبة في الوقت المحدد لها شرعا، وهو عام، وهو ظهور علامات الساعة الكبرى، وخاص، وهو ما لم يغرر، ويتأكد من الموت كحال فرعون.

٢١٥٧. يفيد قوله ﴿وَجُنُودُهُۥ﴾ أن المسألة هنا جنود وليس مجرد ملأ، فهي مجابهة حرب، ففي أشد بغيهم وعدوهم وعدوانهم، أبادهم الله، ليكون أبلغ تنكيلا، وأكمل ظهورا لقوة الله وعزته، ونصر المؤمنين، وهي سنة الله التي لا تتبدل ولا تتحول.

٢١٥٨. تفيد: أن البغي والاعتداء، والمسارعة في العدوان، علامة قرب الهلاك.

٢١٥٩. فيها: فضل التأمين وأن من يؤمن على الدعاء بمنزلة الداعي، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: "إذا قالَ أحدُكُم في صلاتِهِ آمينَ، وقالت الملائِكَةُ في السَّماءِ آمينَ، فوافَقَت إحداهما الأُخرى، غُفِرَ لَهُ ما تقدَّمَ من ذنبِهِ. وفي روايةٍ: إذا قالَ القارئُ ولا الضّالِّينَ، فقالَ من خَلفَهُ آمينَ، فوافقَ قولُهُ قولَ أَهْلِ السَّماءِ، غُفِرَ ما تقدَّمَ من ذنبِهِ"(١).

٢١٦٠. تفيد: حسن عاقبة المؤمنين وسوء عاقبة المكذبين الكافرين.

٢١٦١. فيها: أن الموت أعظم زاجر للجبابرة.

٢١٦٢. . تفيد: هذه الآية بدلالات القصة معالم الخذلان وتشمل الكفر بالله وتكذيب رسله وفساد النية وسوء الطوية والبغي والعدوان ﴿بَغۡيًا وَعَدۡوًاۚ﴾ وبذل الجهد واستفراغ الوسع في ذلك ﴿فَأَتۡبَعَهُمۡ﴾ فالزيادة في المبني تفيد: زيادةً في المعني وكون إمام في الفساد والإفساد ﴿وَجُنُودُهُۥ﴾ والاستدراج من حيث لا يعلم وسوء الخاتمة والإيمان بعد الغرغرة وانقضاء المهلة وفوات الأوان.

٢١٦٣. تفيد: أن إيمانَ فِرعونَ في تلك اللَّحظةِ لم يكن إيمانا بالغيب إنما إيمان بالمشاهدة، وهذا ما لا ينفع عند الله، وقد مدح الله أهله في كتابه، كما في الحديث أن تتصدق وأنت صحيح شحيح تأمن البلاء وتخشى الفقر"(٢).

٢١٦٤. فيها: عظم ما كان عليه فرعون وجنوده من البغي والعدوان؛ دل عليه التنكير والتنوين في قوله: ﴿بَغۡيًا وَعَدۡوًاۚ﴾، ولذلك قال تعالى فيهم: ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ﴾ [القصص:٤١].

٢١٦٥. فيها: أن البغي والعدوان من أسباب العذاب والهلاك في الدنيا والآخرة، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: "ما من ذنب أجدر أن يعجل الله تعالى لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يدخر له في الآخرة- من البغي وقطيعة الرحم"(٣)

---

(١) أخرجه ومسلم ١/٣٠٧.

(٢) أخرجه البخاري ٢/١١٠، ومسلم ٢/٧١٦.

(٣) صححه الألباني في الأدب المفرد ١/٣٣٢.

٢١٦٦. فيها: " أن لا إله إلا الله" أعظم كلمة وهي كلمة النجاة ومع هذا لم تنفع فرعون، لأنه وجُد في حقه مانع، وهو قولها عند معاينة العذاب، وتصح دليلا لقاعدة أن الأحكام لا تنفذ إلا توفر شروطها وانتفاء موانعها.

٢١٦٧. فيها: أن الكفر بالله ونسيان ذكره قد ينسي الإنسان اسم الله عز وجل لأن فرعون قال: آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل، فنسي اسم الله عز وجل من إعراضه عنه وكفره به وعدم جريان ذكره على لسانه؛ ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ [الحشر:١٩].

٢١٦٨. فيها: منة عظيمة على بني إسرائيل بنجاتهم من فرعون، وتذكير للمعاصرين منهم ليؤمنوا.

٢١٦٩. تفيد: أن من خرج للقتال بغيا وعدوا، أهلكه الله. وقول الله: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ﴾ [الأنفال:٤٧].

٢١٧٠. وفيها: مناداة الله لهم بأبيهم وذلك يفيد الترغيب بالاقتداء بالعبد الصالح المطيع لله يعقوب عليه السلام ليكونوا مثل أبيكم في متابعة وأن يستبقوا أسباب المدح، وأن يستبعدوا أسباب القدْح.

٢١٧١. تفيد: الترهيب من أن يكون الشخص إماما وقدوة في الباطل؛ فرغم غرقهم جميعًا إلا أن الله عز وجل قص عنه على وجه الخصوص ليكون عظة وعبرة للآخرين وهو يتقدم كذلك قومه يوم القيامة إلى جهنم، كما تقدمهم بالكفر في الدنيا﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾ [هود:٩٨].

قال تعالى: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس:٩١].

٢١٧٢. فيها: خروج الاستفهام عن غرضه الأصل إلى آخر كالزجر والردع، وهذا استفهام إنكار وذم، ولو كان إيمانه صحيحا مقبولا لما قيل له ذلك.

٢١٧٣. تفيد: معني قول الرسول صلى الله عليه وسلم: "تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة"(١).

---

(١) سبق تخريجه.

٢١٧٤. فيها: تفريط بعض العصـــاة، والاعتراف بالذنب عند معاينة العذاب، ولكن هيهات لات حين أمان، قال الله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا إِلَّا أَن قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [الأعراف:٥].

٢١٧٥. فيها: الفرق الواسع والبون الشاسع بين من تشفع لهم أعمالهم وتاريخهم مثل الصحابي حاطب بن أبي بلتعة وقول الرسـول فيه "إنه قد شـهد بدرا وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم"(١) ، ومنهم من ليس له سابقة تشفع له مثل فرعون، فالواجب أن تتعرف على ربك في حال الرخاء فمتى ما عثرت وجدت متكا فالنهر لم يغرق موسى وهو رضيع حديث الولادة بينما أغرق فرعون مع ملكه وجبروته.

٢١٧٦. تفيد: أنه في التعامل مع الناس لابد من النظر لتاريخهم واعتبار ســـابق أعمالهم ﴿ءَآلْـَٰٔنَ﴾ وقوله ﴿قَبْلُ﴾.

٢١٧٧. فيها: أن الإفساد في الأرض من أعظم المعاصي في ميزان الشريعة، وهو من أسباب الحرمان والتوبة والتوفيق.

٢١٧٨. فيها: بيان حلم الله عز وجل في الإمهال.

٢١٧٩. تفيد: أن الإيمان الذي ينجي مَن حصل منه في الدنيا والآخرة لم ينفع فرعون لأنه جاء به في وقت حصول الموت ويشهد له قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ [النساء:١٨].

٢١٨٠. فيها: مشروعية اتباع النكاية بالعدو قولا، بعد النكاية به فعلا.

٢١٨١. فيها: طلب إخبار الخصم بعلة قتاله وقتله ﴿عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

٢١٨٢. فيها: أن الأخوين الظالمين (العصيان والإفساد)، قاصرا ومتعديا، من أكبر أسباب غضب الرب، وعباد الله الصالحين، وقد كان جبريل يضع الطين في فيّ فرعون، لتستمر قتلته وينفذ قدر الله، وقد بلغه جبريل هذه الرســـالة، وقال له هذا القول والطاغية يغرغر، تنكيلا ونكاية.

٢١٨٣. تشير إلى: الخطر الشديد للجمع بين العصيان والإفساد في الأرض، وأن ذلك يوجب سوء الخاتمة. ومفهومه: وأن الطاعة والإصلاح، سبب في رحمة الله وحسن الخاتمة.

---

(١) أخرجه البخاري ٥٩/٤، ومسلم ١٩٤١/٤.

قال تعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾ [يونس:٩٢].

٢١٨٤. فيها: أن الله سبحانه قد علم خوف القوم من فرعون فقذفه على الساحل بجثته ليفند شكهم في إغراقه.

٢١٨٥. فيها: أن إعادته مرة أخرى ليست إعزاز له بل استهانة به واتباعه.

٢١٨٦. فيها: أن أخذ العظة والعبرة مطلب.

٢١٨٧. فيها: التحذير من عقوبة الله وغضبه.

٢١٨٨. فيها: ذم الغفلة وأنها سبب لكل خسار، وحرمان.

٢١٨٩. فيها: عظم ذلك اليوم وأن موت الطغاة موت للباطل كما أن موت العلماء هو موت وفقد جلل.

٢١٩٠. فيها: أن لا قيمة للبدن والصور فقد نجا البدن وهلكت الروح بل هي في العذاب المهين.

٢١٩١. فيها: أن لا يشتغل الإنسان ببدنه وزينته ويضيع وقته فيه والأولى بذل الأعمار في تجميل ورعاية روحه وما يلازمه.

٢١٩٢. فيها: ليس كل نجاة هي النجاة المرجوة.

٢١٩٣. الرد على من زعم إيمان فرعون، فالله تعالى جعله عبرة وعلامة لمن يكون بعده من الأمم؛ لينظروا عاقبة من كفر بالله تعالى [(١)].

٢١٩٤. فيها: كمال قدرة الله تعالى؛ حيث أبقى الجسد إلى هذا الوقت؛ عبرة وعظة لكل متكبر.

٢١٩٥. تفيد: الآية أنها مما يستدل بها على أن بدنه باق إلى الآن، التعبير عن نجاته بالفعل المضارع ﴿نُنَجِّيكَ﴾ الدال على التجدد، فنجاته متجددة على مر الأزمنة، وهذا يرجح أن نجاته عبرة ممتدة لكل الناس وليست مخصوصة لقومه، وإلا لقال "فاليوم نجيناك" وبدليل أيضا التعقيب بقوله" ﴿وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾. فالكثرة من الناس منسحبة على امتداد الزمان

(١) جامع الرسائل لابن تيمية ١/٢٠٨.

والمكان، وليست لقومه خاصة، فكثير من الناس إلى يومنا هذا عن آيات الله غافلون ومنها هذه الآية آية نجاة فرعون، والعلم عند الله تعالى.

٢١٩٦. تفيد: أنه من لم يبق له من اسم النجاة سوى أنه جثة ترى، أن البقية من الظلمة والطغاة في الطريق.

٢١٩٧. فيها: آيات الله في كل شيء هي قائدة وحادي الإيمان في قلوب الناس، ولذا نصبها الله طريقا صحيحا لكل من أراد أن يؤمن أو يحقق إيمانه.

٢١٩٨. فيها: أن في ذلك لآية وعلامة على صدق موسى عليه السلام ودعوته لقوم فرعون وبني إسرائيل ومن بعدهم من الأمم لتكون لمن خلفك آية.

٢١٩٩. فيها: أنه مع وجود الآيات العظيمة لكن كثير من الناس لا يستفيدون من الغفلة فهذا شأنهم ودأبهم.

٢٢٠٠. فيها: جواز توبيخ الظالمين والكافرين عن حصول العقوبات لأن الخطاب لفرعون الظالم.

٢٢٠١. فيها: رحمة الله تعالى ببني اسرائيل حيث أخرج لهم جثة فرعون ليزول خوفهم وفزعهم بعد ان نجاهم منه.

٢٢٠٢. تفيد: أن الأيام وما يكون فيها: من أحداث - كإهلاك الطغاة وفناء وبقاء -، هي بيد الله وتصريفه.

٢٢٠٣. تفيد: أن جثة الكافر، لا تكرم ولا تحترم، وتصديقه: ما فعله رسول الله في قتلى كفار بدر؛ فقد سحبهم الصحابة وألقوهم في القليب، وإنما توارى تجنبا للأذى فحسب.

٢٢٠٤. فيها: وبضميمة ما بعدها: عظمة هذا اليوم، وأن إهلاك العدو من تمام النعمة؛ فلا يكفي النجاة فحسب، بل لابد من إهلاك العدو حتى تتم الفرحة والنعمة، وفي الحديث - عن يوم عاشوراء -: "قالوا هذا يوم عظيم، وهو يوم نجى الله فيه موسى، وأغرق آل فرعون."[(١)].

٢٢٠٥. فيها: إخراج فرعون من البحر بجسده بلا روح؛ ليكون لمن خلفه آية، فيتأكد بنو إسرائيل من موته، ويطمئنوا بسلامتهم من شره ويكون أيضا عبرة للمعتبرين بأخذ الله للظالمين.

---

(١) أخرجه البخاري ١/١٥٣، ومسلم ٢/٧٩٦.

٢٢٠٦. وفيها: غفلة كثير من الناس عن التأمل في آيات الله الكونية والشـــرعية، والاعتبار والاتعاظ بها ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾.

٢٢٠٧. فيها: أن نجاة بني إســـرائيل وهلاك فرعون من أعظم الآيات، ومن أعظم أيام الله عز وجل، ولذلك صامه موسى عليه السلام وبنو إسرائيل شكرا لله عز وجل وأمر نبينا ﷺ بصيامه.

٢٢٠٨. فيها: تعظيم الرب جل وعلا وبيان عظمته وقدرته؛ لقوله: ﴿نُنَجِّيكَ﴾بصيغة الجمع التي تدل على التعظيم والاجلال.

٢٢٠٩. فيها: تعظيم الآيات بإضافتها إلى الله عز وجل وبيان كثرتها بالجمع ﴿ءَايَٰتِنَا﴾

٢٢١٠. فيها: مشروعية شكر الله علي هذا اليوم بالصيام.

٢٢١١. فيها: عظمة هذا اليوم الذي ذكره الله عز وجل وســـطره في كتابه رفعا لقدره وتعظيما لذكره.

٢٢١٢. فيها: مشروعية تعظيم أيام الله وأنها من تعظيم الله عز وجل.

٢٢١٣. فيها: ذم الكثرة، وأن أكثر الناس في غفلة عن آيات الله، قال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام:١١٦].

٢٢١٤. فيها: رســـوخ أمه الإســـلام أمه التوحيد في التاريخ وامتداد جذورها وهذا من الأهمية بمكان أن يدرس للأجيال الناشئة ويتم تلقينهم الدروس والعبر والمقاصد من وراء هذه القصص الحق.

٢٢١٥. يفهم منها: أن الطغاة والجبابرة والظالمين، لا يعتبرون بهلاك من ســـلفهم؛ فقلما تجد منهم من يعتبر ويرجع.

٢٢١٦. يوم نجاة القلة المؤمنة المستضعفة كلها وهلاك الجيش عن بكره أبيه فلم ينجو منه أحد.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [يونس:٩٣].

٢٢١٧. تفيد: أن من المنازل والبيوت والدور منازل صـــدق وهو ما يطابق حالهم إيمانا وســـترا وذكرا ورزقا وعيشـــا، ومنها منازل كذب ومظاهر لا تحكي واقعا حقيقيا ولا تطابقه إلا ما ندر، ووسائل التواصل اليوم تشهد بهذا.

٢٢١٨. تفيد: الآية: أن الرزق من الطيبات منه ما يكون منة من الله ابتداء، ومنه ما يكون بتسبب العبد، وكله فضل الله ورزقه، وقد كان بنو إسرائيل كذلك لما أسكنهم الله الأرض المباركة في الشام والقدس.

٢٢١٩. تفيد: أن قمة الخذلان، هو الاختلاف بغيا بعد العلم، سواء علم نبوة النبي صلى الله عليه وسلم، أو علم كتاب الله ووحيه.

٢٢٢٠. الاختلاف بعد العلم آفة الأمم، وقد نهينا عن التشبه بهم؛ ولذلك كان أرذل خلق الله هم اليهود لتعنتهم وسوء طويتهم وانتكاس طباعهم.

٢٢٢١. فيها: أن سنة الله أن بعض الاختلاف ليس له قضاء إلا عند الله يوم الله.

٢٢٢٢. فيها: امتنان الله عز وجل على بني إسرائيل بإنزالهم منزل صدق، ورزقه إياهم من الطيبات الحلال المستلذات من المطاعم والمشارب، مما ينزل من السماء، ومما يخرج من الأرض المباركة.

٢٢٢٣. وفيها: أن ما يتمتع به الخلق من المساكن والأرزاق كله من الله تعالى ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل:٥٣].

٢٢٢٤. وفيها: قضاء الله تعالى، وفصله يوم القيامة بين بني إسرائيل وغيرهم من الأمم فيما كانوا فيه يختلفون.

٢٢٢٥. وفيها: إثبات القيامة، وأنها دار القضاء والفصل بين العباد ومجازاتهم بأعمالهم، ففريق في الجنة وفريق في السعير.

٢٢٢٦. فيها: فضل وشرف المكان الذي أنزلهم الله فيه (الشام).

٢٢٢٧. فيها: وجوب الاجتماع بعد العلم؛ لا الاختلاف؛ فتشير إلى أن الاختلاف، يذهب النعم والاستقرار قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال:٤٦].

٢٢٢٨. فيها: أنه لما ضرب الله مثل السوء أتْبعَه بمثل الصلاح بحال الذين صدقوا الرسول واتبعوه، وكيف كانت عاقبتهم الحسنى ليظهر الفرق بين مصيري فريقين جاءهم رسول فآمن به

فريق وكفر به فريق، ليكون ذلك ترغيباً للمشركين في الإيمان، وبشارة للمؤمنين من أهل مكة"(١).

٢٢٢٩. تفيد: اصطفاء الرب عز وجل لبني اسرائيل وإغداقه عليهم بالنعم في أمر الدين والدنيا ومن ذلك أن جعل فيهم النبوة والرسالة، كما قال تعالى:﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [المائدة: ٢٠].

٢٢٣٠. تفيد: مكانة الصدق بين الأخلاق حتى صار مضرب المثل وجري مجري المدح في كلام العرب فيقال رجل صدق ومنزل مصدق ومقد صدق ومبوأ صدق.

٢٢٣١. فيها: الحرص على الرزق الحلال الطيب، لأن الله عز وجل امتن به على بني إسرائيل.

٢٢٣٢. فيها: أن العلم سبب للاجتماع والائتلاف ولكن هؤلاء اختلفوا بسبب البغي كما في آيات أخرى.

٢٢٣٣. فيها: الحرص على الاجتماع والائتلاف والوحدة لأن الله عز وجل ذمهم على الاختلاف بعد مجيء العلم.

٢٢٣٤. فيها: أن العلم الحقيقي الذي يستحق هذا الاسم هو القرآن الكريم، لأن العلم في الآية هو القرآن الكريم، وقال تعالى: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠].

٢٢٣٥. تفيد: أن الخلاف والاختلاف يكون فيه فوات مصالح الدنيا والآخرة الشيء الكثير.

٢٢٣٦. تفيد: أن بني إسرائيل عرفوا الحق ولم يعملوا به لذا صاروا مغضوب عليهم.

٢٢٣٧. تفيد: مع سابقتها أن العباد يكفرون النعم وينسون الأحداث وتسيطر عليهم الغفلة.

٢٢٣٨. تفيد: بيان كيفية اختلاف بني إسرائيل فهؤلاء رأوا أعظم الآيات ونجاهم الله من فرعونَ رزقهم من الطيبات ولكن اختلفوا وحادوا عن الطريق.

٢٢٣٩. تفيد: أن دين الله قائم علي العلم لا الظنون والشكوك والتخرصات.

٢٢٤٠. تفيد: قيام حجة الله علي بني إسرائيل بعد تلقيهم العلم وهو القرآن﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ﴾

---

(١) التحرير والتنوير ٢٨١/١١.

٢٢٤١. تفيد: أن من أشد القسوة أن يضل المرء بعد الهدى والعلم.

٢٢٤٢. تفيد: أن الأيام دول وأن حال الأمم لا يدوم فبعد أن كان بنو اسرائيل مفضلين واختارهم الله علي العالمين تنكبوا الطريق وردوا الحق والعلم فاستبدلهم الله بأمة الإسلام من العرب ومن دخل في دين الله من العالمين.

قال تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ فَسۡـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقۡرَءُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكَۚ لَقَدۡ جَآءَكَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾ [يونس:٩٤].

٢٢٤٣. فيها: من المناسبة: أنه لما ذكر سبحانه اختلاف أهل الكتاب لما جاءهم العلم، ربط هنا على قلب نبيه عليه الصلاة والسلام وقواه من ناحيتي القرآن والنبوة.

٢٢٤٤. فيها: مناسبة أيضا لما قبلها أن بنى إسرائيل قد جاءهم من العلم بعد العلم ما هو حري بالسائل أن يجاب وبالشاك أن يتقين ولعل الخطاب للنبي من باب قلب الكلام كما في البلاغة والبديع من الكلام مثل قول الشاعر:

بدأ الصباح وكأن غرته وجه الخليفة حين يمتدح

٢٢٤٥. تفيد: علو الله عز وجل، ﴿مِّمَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ﴾.

٢٢٤٦. تفيد: اختصاص الرسول بالقرآن وأنه من عند الله عز وجل ونفي أن يكون الرسول قد تقوله﴿مِّمَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ﴾.

٢٢٤٧. وفيها: التعريض بالمكذبين.

٢٢٤٨. وفيها: التحذير لأن يحل بأهل مكة ما حل بالأمم قبلهم.

٢٢٤٩. وفيها: أن السؤال هنا يقصد به التثبيت لقلب النبي صلى الله عليه وسلم. وليس الشك. ولكن هذا حكم معلق بشرط. وهذه الآية من الآيات المشكلة كما قال ابن القيم رحمه الله.

٢٢٥٠. وفيها: إخبار النبي عليه الصلاة والسلام أن اختلافهم بعد مجيئه. وإلا فهم يعلمون أوصافه في كتبهم.

٢٢٥١. وفيها: العتو والتجبر والتكذيب والإعراض عن الحق ديدنهم.

٢٢٥٢. وفيها: أن الشبه حلها بالرجوع إلى العلماء الراسخين بالعلم.

٢٢٥٣. وفيها: قرن جملة ﴿لَقَدۡ جَآءَكَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ بثلاث مؤكدات، اللام، وقد، والقسم المقدر، لدفع إنكار المعرض بهم.

٢٢٥٤. الاستفادة من أسلوب القسم على إثبات مسائل الحق.

٢٢٥٥. فيها: التعليم بطرق وأساليب القرآن في تحفيز التفكير على طريقة العرب، واستخدامها في تقرير أمور العقيدة والنبوات، وأمهات الأمور: ﴿فَسۡـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقۡرَءُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكَۚ﴾ وهو ما شك ولا سأل.

٢٢٥٦. تفيد: جملة: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾ التعريض بقوم آخرين.

٢٢٥٧. فيها: طلب شهادة الصدق، ممن عرف الصدق.

٢٢٥٨. فيها: إن أقوى دليل يحتج به على الخصم، أن يوجد من يشهد عليه من بني جلدته، ومن كان على ملته.

٢٢٥٩. فيها: جواز استخدام أسلوب: المخاطبة لشخص والمراد شخص آخر – على قول من فسر الآية بذلك –.

٢٢٦٠. فيها: مكانة العلماء ﴿فَسۡـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقۡرَءُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكَۚ﴾، ومكانة الكتاب المنزل في كل شريعة.

٢٢٦١. فيها: أن الله سبحانه وتعالى يضمر خطاب الأمة في خطاب رسوله صلى الله عليه وسلم؛ لأن الأتباع حين يقرأون ويسمعون الخطاب وهو موجَّه بهذا الأسلوب إلى الرسول ﷺ فهم لن يستنكفوا عن أيِّ أمر يصدر إليهم"[(١)].

٢٢٦٢. فيها: استخدام النباهة والثقة المطلقة في القدوة لإيصال المعلومة والأمر لمن هم دونه.

٢٢٦٣. تفيد: عدم جواز بقاء الإنسان في مرحلة الشك، والسعي لإزالتها بالسؤال، فلا تسأل إلا ذا بينة.

٢٢٦٤. تفيد: أن الوحي يخرج من مشكاة واحدة ﴿لَقَدۡ جَآءَكَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾.

٢٢٦٥. تفيد: شرف ومكانة علم الكتب السماوية وأشرفها قدرًا وأعلاها مكانه القرآن.

---

(١) تفسير الشعراوي ١٠/٦١٩٨.

٢٢٦٦. تفيد: أن المقصود بتلاوة كتاب الله ليس علم الرواية فحسب بل كذلك التدبر والتعقل والعمل بمقتضاه والتداوي به من أمراض الأرواح والأشباح والدعوة الي ما فيه من هدي وهداية.

٢٢٦٧. فيها: أن كثرة البراهين تزيد اليقين؛ لقوله: ﴿فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾ وقال تعالى عن خليله إبراهيم عليه السلام ﴿قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ [البقرة:٢٦٠].

٢٢٦٨. فيها: أن (إن) قد تأتي للممتنع، وهذا كثير في القرآن الكريم؛ قال تعالى: ﴿فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ﴾ [الأنعام:٣٥].

٢٢٦٩. فيها: حجة على النصارى الذين يلمزون النبي – صلى الله عليه وعلى – وينوّهون بفضلهم؛ لقوله في نهاية الآية: ﴿لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾؛ فقطعت وحسمت.

٢٢٧٠. تفيد: أهمية النظر والتأمل في الآية كلها من مطلعها وختامها؛ لا سيما عند الاحتجاج والمناظرات.

٢٢٧١. فيها: تشريف وتكريم للنبي ﷺ لإضافته إلى الرب ﴿مِن رَّبِّكَ﴾.

٢٢٧٢. وفيها: أن من لوازم الربوبية بيان الحق والاتيان به ﴿لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ فمن تربيته لخلقه وقيامه عليهم: بيان الحق لهم.

٢٢٧٣. والمقصود من الآية إقامة الحجة على المشركين بشهادة أهل الكتاب من اليهود والنصارى؛ قطعًا لمعذرتهم"[(١)].

٢٢٧٤. فيها: النهي والتحذير من الشك.

٢٢٧٥. تفيد: أن درء الشك، بمقدور العبد. ففيها: رد الجبرية.

٢٢٧٦. فيها: أن تعليق الحكم بالشرط لا يدل على تحقيق الشرط بل قد يعلق بشرط ممتنع لبيان حكمه؛ قال شيخ الإسلام ابن تيمية: وأمره تعالى بسؤال الذين يقرؤون الكتاب من قبله على تقدير الشك لا يقتضي أن يكون الرسول شك ولا سأل إن قيل الخطاب له وإن قيل لغيره

(١) التفسير الميسر ١/٢١٩.

فهو أولى وأحرى فإن تعليق الحكم بالشرط لا يدل على تحقيق الشرط بل قد يعلق بشرط ممتنع لبيان حكمه"[1].

قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ [يونس:٩٥].

٢٢٧٧. فيها: ما يمكن الاستفادة منه في التربية، فإذا نهيت عن شيء فبين عاقبة ارتكابه ومقارفته، ولا تنه عن شيء دون بيان علة النهي، فتعليل الأحكام مما يطمئن النفس، ويحمل على الفعل برغبة والترك، برهبة، كما هو مقرر في علم الأصول:

جاء في نظم المراقي:

لن تلف في المعللات علة ... خالية من حكمة في الجملة

وربما يعوزنا اطلاعُ ... لكنه ليس به امتناع

٢٢٧٨. فيها: أسلوب تربوي ودعوي رصين، وهو النهي عن الشيء مقرونا بثمرته ونتيجته فالنهي هنا عن تكذيب آيات الله، والثمرة هي الخسران.

٢٢٧٩. فيها: أنه بعد النهي عن الامتراء تبعه النهي عن التكذيب لأن الثاني غالباً نتيجة عن الأول.

٢٢٨٠. فيها: رحمة الله بعباده متجلية بالنهي الحثيث عما يضرهم وما فيه خسارتهم.

٢٢٨١. فيها: من المصطلحات القرآنية، التي ينبغي الانتباه لها وتعليمها للناشئة والشباب: مصطلح التكذيب، مصطلح آيات الله، مصطلح الخاسرين والخسارة.

٢٢٨٢. تفيد: أن الكفر خسران مبين.

٢٢٨٣. تفيد: أن التكذيب بآيات الله، ظلم للنفس؛ لأنه يوجب خسارتها.

٢٢٨٤. تفيد: أن الواجب على العبد، أن يسعى لنجاة نفسه وربحها؛ وأعظم ذلك الإيمان ومتعلقاته.

٢٢٨٥. وتفيد: حرمة التشبه بالكفار.

٢٢٨٦. تفيد: العناية بالغير والإشفاق عليه، أن يورد نفسه مورد التهلكة والخسارة؛ لا سيما فيما يتعلق بأمور العقيدة.

---

(١) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ٢/٣٥٦.

٢٢٨٧. تفيد: بأسلوب المخالفة الدعوة الي التصديق والإيمان بآيات الله تعالي وأنها من أسباب وموجبات الفلاح.

٢٢٨٨. تفيد: أن الواجب تعظيم آيات الله مرافقة لتعظيم الله لها بإضافتها اليه.

٢٢٨٩. تفيد: أن التكذيب بآيات الله تكذيب بالله عز وجل وتكذيب برسل الله.

٢٢٩٠. فيها: أن التكذيب بآيات الله تعالى من أعظم أسباب الخسران المبين؛ دل على ذلك صلة الموصول.

٢٢٩١. فيها: التحذير من أسباب الخسران والحرص على أسباب الفوز.

٢٢٩٢. فيها: توجيه الخطاب إلى النبي ﷺ أبلغ في التحذير لغيره لأن الأمة تبع له.

جاء في نظم المراقي:

وما به قد خوطب النبيُ تعميمه في المذهب السَنِيُ

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٩٦ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾ [يونس:٩٦، ٩٧].

٢٢٩٣. فيها: أن من سبق له الحكم بالضلالة، لم ينفعه النصح ولا بسط الدلالة.

٢٢٩٤. تفيد: أن أمر القلوب وانقيادها للحق مهما كان بلاغة الداعية وفصاحته ونصحه ليس بيده، وهي هداية التوفيق والعمل التي لا يملكها إلا الله، ولكن من رحمته جل وعلا أن رتب الأجور على فعل الأسباب لا على النتائج، فله الحمد والمنة.

٢٢٩٥. في الآيتين كمال العدل الإلهي، وعلم الله الشامل الذي علم به ما كان وما سيكون، وما ربك بظلام للعبيد.

٢٢٩٦. وفيهما استخدام أسلوب الترهيب والإبعاد والطرد، لمن رضي على نفسه بالبعد عن منهج الله.

٢٢٩٧. تفيد: أن حكم الله نافذ في العباد ولا معقب لحكمه.

٢٢٩٨. تفيد: كمال حكمه الله وعدله في معامله أعدائه.

٢٢٩٩. إضافة الكلمة للرب تفيد: عظم وخطورة شأنها ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾.

٢٣٠٠. تفيد: كثرة وتنوع وحجية الآيات رغم ذلك لا يتم بها المقصـــود من الموعظة والهداية طالما أن الله لم يرد ذلك.

٢٣٠١. تفيد: التفريق بين الإيمان الغيبي وإيمان المشـــاهدة وعظم الفرق والتفاوت بينهما ﴿حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾.

٢٣٠٢. . فيها: سلطان الله وعظيم قدرته ونفاذ أمره؛ ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

٢٣٠٣. تفيد: أن الله ينزل الآيات، للإيمان والعمل بها.

٢٣٠٤. فيها: تسلية للنبي – ﷺ – وشد من أزره؛ إذا وجدهم مصرين على الكفر، أن يثبت ويستمر ولا يحزن. وهذا لجميع الأمة. والنصوص كثيرة.

٢٣٠٥. يؤخذ منها: الحض على الدعاء وســـؤال الله الهداية؛ فإن العبد إذا أيقن أن الغواية بيد الله وأنه لا سبيل لهداية من أضله الله، حمله ذلك على العمل والذي منه الدعاء؛ وهذا هو المعنى الصحيح لمفهوم القضاء والقدر.

٢٣٠٦. يفيد: صـــيغتي المضـــارع والنفي في قوله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ يفيد أنهم لا يؤمنون أبدا ويستمرون على كفرهم.

٢٣٠٧. فيها: إثبات القدر وعلم الله سبحانه وتعالى المحيط.

قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس:٩٨].

٢٣٠٨. فيها: استخدام أسلوب التحضيض في الدعوة إلى الله ﴿فَلَوْلَا﴾.

٢٣٠٩. فيها: أن الإيمان سبب لكشف العذاب واستجلاب النعيم.

٢٣١٠. فيها: موازين الله لا يقبلها قصـر نظر المخلوقين، فلا بد من التسـليم لله في كل ما دق وجل، ســـواء علمنا حكمته أم لم نعلمها، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب:٣٦].

٢٣١١. فيها: ذم العجلة، فهي أم الندامات.

٢٣١٢. فيها: أنه يمكن أن ينزع منها أدعية مستشفة من القرآن تأولا، لا تسننا وتشريعا، فيدعو الإنسان بمثل: اللهم اكشف عنا عذاب الخزي، ومتعنا بالصالحات فيما يرضيك. ولا مانع من هذا شرعا.

٢٣١٣. فيها: الإيمان أصل كل خير وأصل لحصول النعم.

٢٣١٤. فيها: إن الخزي عار يلحق الإنسان بتفريطه في دينه أو عقله أو شرفه أو خلقه أو ماله وغير ذلك، وعلى الإنسان أن يحذر كل الحذر من مخازي الدنيا والاخرة، وأن يستعيذ بالله منها، ويسأل الله العفو والعافية والمعافاة الدائمة في الدين والدنيا والأخرة.

٢٣١٥. فيها: سلاح الإيمان ووقوع نفعه قبل البلاء وبعد وقوعه، مالم يكن ثمة عذاب استئصال، وهو خاص بالرسل فيما أذن لهم فيه بوحي، لا فيما اجتهدوا فيه.

٢٣١٦. تفيد: بيانِ سُنَّةِ اللهِ في الأمَمِ مع رُسُلِهم ﴿فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ﴾.

٢٣١٧. تفيد: تسلية النبي بما لاقى من مشركي قريش وتثبيته علي الأمر.

٢٣١٨. تفيد: التعريض بمشركي قريش.

٢٣١٩. تفيد: بيان سنن الله وهدايته فيما يتعلق بخلق البَشَرِ وكونهم مُستعِدِّينَ للأمورِ المتضادَّةِ من الإيمانِ والكُفرِ﴿إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ﴾.

٢٣٢٠. تفيد: الترغيب في التوسم والفراسة والمتفرسون والمتوسمون (وهم المتفكرون، أو المعتبرون، أو المتبصرون) فإنَّهم لَمَّا ظَهَرت لهم أماراتٌ دلَّت على قُربِ العَذابِ تابوا قبل أن يُشاهِدوه.

٢٣٢١. تفيد: حسن عاقبة المؤمنين وسوء عاقبة الكافرين، والاستدلال على ذلك لمن كان ذا فكر سليم، وبصيرة نافذة تتأمل في حقائق الأشياء للتوصل إلي المآلات والعواقب.

٢٣٢٢. فيها: التخويف من عذاب الله عز وجل والحذر من أسبابه لأنه عذاب أليم لا يطاق وألمه يشمل القلب والروح والجسد..

٢٣٢٣. تفيد: أن الإيمان بالمشاهد لا ينفع ولا يفيد ولا يحصل به نجاة من عذاب الله إلا ما استثني، وهم قوم يونس عليه السلام، وقد قال الله عن آل فرعون﴿فَلَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ

وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [غافر:٨٤، ٨٥].

٢٣٢٤. فيها: مع ما قبلها أن من الناس من لا يؤمنون إلا حين لا ينفعهم إيمانهم وقت رؤية العذاب الأليم كإيمان فرعون المذكور قبلها.

٢٣٢٥. فيها: أن الصدق في التوبة سبب في رفع العذاب كما حصل لقوم يونس.

٢٣٢٦. فيها: أن الإيمان والتوحيد سبب للنجاة من العذاب؛ لقوله: ﴿كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ﴾.

٢٣٢٧. فيها: فضيلة ظاهرة لقوم يونس عليه السلام..

٢٣٢٨. تفيد: حديث النبي صلى الله عليه وسلم" وإن الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل النار، ثم يختم له بعمل أهل الجنة"(١).

٢٣٢٩. فيها: أن العذاب قد يكون في الدنيا قبل الآخرة؛ لقوله: ﴿عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ وفي هذا تحذير شديد من الكفر والشرك والمعاصي.

٢٣٣٠. فيها: أن الذي يكشف العذاب هو الله عز وجل فلا تعلق بغيره؛ ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام:٤١].

٢٣٣١. فيها: التزهيد في الدنيا من تسميتها (دنيا) وأن متاعها إلى حين، فليس بدائم كنعيم الآخرة.

٢٣٣٢. تفيد: أن متاع الدنيا قليل وزائل والآخرة لهي الحيوان.

٢٣٣٣. تفيد: فقه التوفيق للإيمان والتوبة واشتملت الآية علي عدد من أسباب التوفيق ومنها ﴿لَمَّآ ءَامَنُوا۟ ﴾ الإيمان بالله وحده "التوحيد" ومتابعه رسله ﴿قَوْمَ يُونُسَ ﴾والصدق وبذل الجهد في الندم علي ما فات والاجتهاد في الدعاء وما ذكر أصحاب التفاسير من اختيار الأوضاع التي تبين استكانتهم وبيان عجزهم وضعفهم وقلة حيلتهم وانكسارهم وتزلفهم لله رب العالمين.

٢٣٣٤. فيها: الترغيب في حال وسيرة قوم يونس وحض قريش أن تسلك مسلكهم وتحذو حذوهم في الإيمان وإتباع رسولهم.

٢٣٣٥. تفيد: عدم اليأس من اهتداء الناس مهما كان كفرهم وعنادهم.

---

(١) أخرجه البخاري ١١١/٤، ومسلم ٢٠٣٦/٤.

٢٣٣٦. تفيد: أن الله تعالى يلحق الخزي والسوء بالكافرين في الدنيا قبل الآخرة.

٢٣٣٧. الخزي قرين الكفر كما أن العزة قرينة الإيمان.

٢٣٣٨. تفيد: أن الداعية عليه تقديم الدعوة، وقد تكون الهداية بقوله بعد موته، فليس شرطا أن يرى آثار دعوته في حياته، كما حصل لكثير من العلماء.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:٩٩].

٢٣٣٩. فيها: التفريق بين المشيئة الكونية والمشيئة الشرعية.

٢٣٤٠. فيها: أن ما شاءه الله كونا فهو كائن وواقع، ولا يعني أن الله يحب الكفر، فالله لا يرضى لعباده الكفر، ولا يأمر به ولا بغيره من الذنوب ومع ذلك كفروا، وهم لم يخرجوا عن مشيئة الله وسلطانه كونا، وسيعاقبون باختيارهم، هم بأنفسهم بلا قهر ولا جبر، ذلك الكفر على الايمان. ولله الحكمة البالغة، والعلم الكامل، والقدرة والسلطان العظيم، ولا يظلم ربك أحدا.

٢٣٤١. فيها: أن الدعوة أمر بالإيمان للناس لا إكراه لهم فيه.

٢٣٤٢. فيها: أن الحجة البالغة لله سبحانه.

٢٣٤٣. فيها: أن القدر سر الله في خلقه.

٢٣٤٤. فيها: بيان علم الله السابق أنه لا يؤمن إلا من سبقت له السعادة في الكتاب الأول قبل خلق السماوات والأرض"[(١)].

٢٣٤٥. فيها: بيان أنه لا أكراه في الدين وأن الهداية بيد الله عز وجل فمن شاء هداه وأسعده ومن شاء أضله وأشقاه.

٢٣٤٦. فيها: تسلية المؤمنين عند تعنت الناس عن الاستجابة.

٢٣٤٧. فيها: بيان حرص النبي ﷺ على إيمان الناس كلهم وهذا يدل على عظيم شفقته ورحمته بالناس جميعا.

٢٣٤٨. فيها: عظم علم الله السابق وأنه يعلم كذلك ما لم يكن لو كان كيف يكون.

---

(١) تفسير الطبري ١٥/٢١١.

٢٣٤٩. . فيها: أن التنوع والاختلاف سنه كونية ماضية.

٢٣٥٠. تفيد: أن مدار الرسالة ومستهدفها الثقلين (الأنس والجن) دون الملأ الأعلى من الملائكة ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾

٢٣٥١. تفيد: سنة الله الكونية بأن يكون على هذه الأرض المسلم والكافر.

٢٣٥٢. تفيد: أن الله هو الفعال لما يريد، الهادي من يشاء، المضل لمن يشاء؛ لتمام علمه وحكمته وعدله.

٢٣٥٣. فيها: تشريف وتكريم للنبي ﷺ بإضافته إلى الله عز وجل ﴿رَبُّكَ﴾

٢٣٥٤. فيها: أن المؤمن والداعية خصوصا لا يحزن لكفر الكافرين وجحود المعاندين لما في هذه الآية من التأكيد البليغ على أن ذلك واقع بمشيئة الله سبحانه وتعالى وله في ذلك الحكمة البالغة.

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ١٠٠].

٢٣٥٥. فيها: بيان أن الرسول ﷺ ما عليه الا البلاغ كما نطقت بذلك الآيات، وأن الهداية والتوفيق والسعادة كلها بيد الله عز وجل هو وحده سبحانه الذي يملكها دون سواه.

٢٣٥٦. فيها: أن من صم أذنيه وأهمل عقله عن حجج الله ومواعظه وآياته البينات، فقد عرض نفسه لغضب الله وشديد عقابه.

٢٣٥٧. فيها: أن لله عز وجل الحكمة البالغة والعدالة النافذة في كل ما يقدره ويقضيه من هداية من شاء وإضلال من شاء.

٢٣٥٨. . تفيد: هنا الإذن الكوني وهو متعلق بربوبيّة الله وخلْقه لابد أن يقع ولا يلزم منه أنه يحبه ويرضاه وشامل للخير والشر فيدخل فيه هنا أيضًا الإذن الديني الشرعي.

٢٣٥٩. فيها: شرح كيفية وقوع الإيمان والكفر وفق المشيئة: (إذنا بالإيمان لمن يعقلون وفق المشيئة الشرعية. وجعلا للرجس على الذين لا يعقلون وفق المشيئة الكونية)، فيجتمع في إيمان المؤمن، وطاعة المطيع الإذن الكوني، والشرعي، وينفرد في معصية العاصي، وكفر الكافر، الإذن الكوني، لأن الأول يكون فيما يحبه الله ويرضاه، وقد يقع وقد لا يقع، وأما الثاني، فلا بد من وقوعه ويكون فيما يحبه الله ويرضاه وفيما لا يحبه ولا يرضاه.

٢٣٦٠. فيها: وسم الرجس، وهي صفة إبعاد عن جناب الطهر تتعلق بالكفر والكافرين، ولذا طهر الله الحرم منهم برجسهم خبثا وفسادا حسيا ومعنويا.

٢٣٦١. تفيد: أن الخير كله إليه ومنه الإيمان الذي يستمطر به خيري الدنيا والآخرة.

٢٣٦٢. فيها: اللجوء إلى الله عز وجل لنيل الإيمان وللثبات على الإيمان؛ ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾، وفي الحديث القدسي: (يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم"[(١)].

٢٣٦٣. فيها: بالمفهوم أثر العقل في الإيمان وأنه يقود صاحبه إلى الإيمان بالتأمل في الآيات الشرعية والكونية.

٢٣٦٤. فيها: أن الكافر ليس بعاقل لأن العقل يعقل صاحبه عما يضره، فالكفار قد يكونون أذكياء لكنهم ليسو بعقلاء؛ ﴿وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

قال تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس:١٠١].

٢٣٦٥. فيها: من المناسبة أنه: لما بين سبحانه أن الإيمان لا يحصل إلا بخلقه ومشيئته، بين هنا الدلائل الدالة على ذلك والاستدلال بها.

٢٣٦٦. تفيد: في طرق التعليم، أسلوب السؤال لمقدمة العصف الذهني لتذهب النفس فيه كل مذهب ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾.

٢٣٦٧. تفيد: ﴿قُلِ ۚ﴾،التلقين الدال على أن الكلام ليس من عنده صلى الله عليه وسلم.

٢٣٦٨. تفيد: جملة: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟﴾ توجيه الخطاب لعامة الناس وإن كان منهم من لا يستفيدون من النظر ولا تغني عنهم الآيات شيئا مما يدل على عدم القنوط واليأس من دعوة الكافر والمعاند.

٢٣٦٩. وفيها: رد على أهل الجبر.

٢٣٧٠. وفيها: النظر في مخلوقات الله وآياته مطلب شرعي لأنها تزيد الإيمان والخشية من الله.

---

(١) أخرجه مسلم ١٩٩٤/٤.

٢٣٧١. فيها: أن النظر في الآيات المحسوسة أسهل في الاستدلال، دل على ذلك التعميم في اللفظ.

٢٣٧٢. فيها: أن التفكر في ذات الله محرم.

٢٣٧٣. فيها: آيات الله في كونه تدل على عظمته سبحانه.

٢٣٧٤. فيها: الآيات في الكون تدل على وحدانية الله في ربوبيته وألوهيته، قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت:٥٣].

٢٣٧٥. فيها: لا تنفع الآيات السماوية والأرضية من سبق بعلم الله أنهم لا يؤمنون.

٢٣٧٦. فيها: التأمل في خلق السماوات والأرض تقود العقل " السوي" إلي التوحيد الخالص والايمان الجازم.

٢٣٧٧. الأصل في كل موحد بالله، مؤمن به وبقرآنه وبرسوله ﷺ أن يتدبر ويتأمل ويتفكر في ملكوت الله وآلاءه لأنها حتما ستزيد من وتيرته الإيمانية.

٢٣٧٨. فيها: أن التدبر في آيات خلق السماوات والأرض والكون من أهم وأعظم مدلولات توحيد الربوبية.

٢٣٧٩. تفيد: قاعدة في طريقة الجدل، فقد تجادل من لا يغني عنه ما تقول شيئا، ولا فائدة من الكلام معه، ولكن القصد بيان الحق، وقصد الجمهور ليعتبروا وينظروا ويتقرر عندهم الحق بالغلبة.

٢٣٨٠. تفيد: أهمية تقرير المسلمات في كل قضية جدلية، لإكساب النفس قاعدة الطمأنينة، مع شدة الجدل وعمقه وخطرة وحساسيته في بعض القضايا مثل الكفر والشرك والالحاد والايمان والصفات والغيب، ليكون المجادل ذا معرفة راسخة بما هو بمقدور البشر وما ليس بمقدورهم ﴿وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾.

٢٣٨١. تفيد: الأمر بنظر البصيرة ونظر البصر أي نظر القلب ونظر البصر والأول منهما أعظم نفعا يقول تعالي ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج:٤٦]. فالعمي عمي القلوب أما عمي البصر فلا يضر إذا وفق العبد للاستقامة والهداية التامة.

٢٣٨٢. تفيد: أن الكافرين قد عطلوا وسائل التماس المعرفة والعلم والتعقل والتفكر والتدبر من القلوب والأبصار والسمع فلم ينتفعوا بها.

٢٣٨٣. تفيد: أن الغفلة من أعظم أمراض القلوب لأن الأمر بالنظر ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ﴾ يتجه للقلب قبل البصر والسمع.

٢٣٨٤. تفيد: أن من مظاهر وعلامات الغفلة عدم الانتفاع بآيات الله الكونية والشرعية.

٢٣٨٥. فيها: دعوة لسبر أغوار الكون وتعلم علم الفضاء الفلك فكثير ممن اطلع على ذلك من الملحدين والكفار آمن بالله الخالق.

٢٣٨٦. تفيد: أن من الأمانة العلمية الإقرار بالحقائق وتبين المسلمات.

٢٣٨٧. تفيد: التوجيه للاستفادة مما سخره الله لنا من مكنونات الكون للقيام بواجب الخلافة في الأرض.

٢٣٨٨. تشير إلى: كثرة الدلائل على الله، وقاعدة الشرع المضطرة أنه كلما كان حاجة الناس إلى الشيء أشد، كان الرب بها أجود، ولذا يكاد أن يكون القرآن كله توحيدا لله بمعرفته وبأسمائه وصفاته.

٢٣٨٩. تفيد: الترغيب في النظر والتفكر والتدبر في الكون، بوصفه سبيل هداية ومعرفة وسيله تحصيل العلم والإيمان.

٢٣٩٠. فيها: أن حجج الله على خلقه كثيرة ومتنوعة.

٢٣٩١. تشير إلى: إيثار الكفار الضلال على الهدى، والكفر على الإيمان. وقد قال الله تعالى عن قوم صالح عليه السلام: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فُصِّلَت:١٧].

٢٣٩٢. فيها: أن السماوات والأرض من أعظم الآيات؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران:١٩٠].

٢٣٩٣. فيها: أن عدم الإيمان يصرف عن الإنسان الانتفاع بالآيات والنذر.

٢٣٩٤. يدل جمع الآيات على كثرتها وتنوعها؛ في الأنفس والآفاق.

٢٣٩٥. وفيها: أن الغفلة كما تكون عن آيات الله المنظورة كذلك تكون عن آياته المتلوة.

٢٣٩٦. تفيد: أن الله، يمهل عباده ليرجعوا إليه ويتعرفوا عليه، وأنه لا يأخذهم إلا بعد المهلة؛ حتى إذا نزل بهم أمر الله لم يفلتهم؛ بدليل ما بعدها: ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [يونس:١٠٢].

قال تعالى: ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ [يونس:١٠٢].

٢٣٩٧. فيها: آثار صفات العز والقوة في جناب القوي العزيز سبحانه، وعلى المناظر والداعية، أن يتعلم أن القوة والعزة لا تنافي الرفق والرحمة، فلا يداهن ولا يواري، انظر الأسلوب ﴿فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ [يونس:١٠٢].

٢٣٩٨. فيها: مصطلح المثلات ﴿مِثْلَ أَيَّامِ﴾ وهي وقائع الله في الذين خلوا.

٢٣٩٩. فيها: معنى ضرب المثل من علوم القران كما تقول العرب (وإن غدا لناظره قريب).

٢٤٠٠. فيها: التحدي والمقاومة والمناظرة للكفر والكافرين لآخر لحظة ﴿إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾.

٢٤٠١. فيها: أسلوب تربوي مع أي شخص معاند ومصر على الخطأ، وكل بحسبه، بالإيعاد (انتظر.. اصبر..).

٢٤٠٢. فيها: استعمال الاستفهام للتهديد، وهذا من بلاغة القرآن الكريم وتنوع أساليبه.

٢٤٠٣. فيها: مع قبلها تهديد أهل الكفر والمعاصي بعد ظهور الحجة وبيان المحجة بالآيات والنذر.

٢٤٠٤. فيها: تعليم الدعاة الصبر وعدم التعجل في إنزال العذاب على المخالفين..

٢٤٠٥. فيها: أن سنن الله تعالى لا تتبدل.

٢٤٠٦. تفيد: سرعة مدة الحياة الدنيا ونعيمها حيث سماها الله تعالى بأيام.

٢٤٠٧. فيها: تجلي رحمة الله بعباده حيث امهلهم وهو قادر على أخذهم.

٢٤٠٨. فيها: تهديد شديد ووعيد بالغ بأنه سينزل بهؤلاء ما نزل بأولئك من الإهلاك.

٢٤٠٩. فيها: أن الأمر لا يقتضي دائما الوجوب إنما هو على حسب السياق كالوعيد.

٢٤١٠. تفيد: أهمية قراءة السنن الربانية في إهلاك الأمم.

٢٤١١. فيها: حث الرسل وأتباعهم من الدعاة على عدم اليأس وعدم استعجال النتائج.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:١٠٣].

٢٤١٢. هذه الآية تفيد: معاني اللطف والرعاية الإلهية في صدق العناوين وعدل المضامين، هي شعار لنصر المؤمنين ودثار يتدثرون به إلى قيام الساعة، وكفى بالله وليا وكفى بالله نصيرا.

٢٤١٣. فيها: فسحة الأمل والرجاء بالوعد الكريم عند كل كرب وهم وغم وحرب﴿كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

٢٤١٤. فيها: اثبات الوعد لله، والرد على طرفي النقيض الأشاعرة والمعتزلة، فأما الفريق الوسط فهم أهل السنة، الذين منعوا أن يوجب العقل على الله تعالى شيئا، ولكن لم يمنعوا أن يوجب الله على نفسه بعض الأمور التي يقتضيها كماله، والتي أخبر أنه أوجبها على نفسه، كما في هذه الآية.

٢٤١٥. فيها: رد على المعتزلة في إيجابهم على الله سبحانه وتعالى بعقولهم فقد بيّن سبحانه وتعالى أنه أوجب على نفسه تنجية المؤمنين ولم يوجبه عليه أحد.

٢٤١٦. فيها: فائدة أصولية وهي التعميم بعد التخصيص.

٢٤١٧. فيها: إثبات الصحبة الصالحة، واقتران حبل النجاة بهم ﴿رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾.

٢٤١٨. فيها: مصطلح النجاة، وهو من المصطلحات التي تأخذ بعدا عميقا في القرآن، وعلى من عرفها أن يعرف بها الشباب والناشئة والأطفال، ويخبرهم بمتعلقاتها، وخاصة في هذا الزمان.

٢٤١٩. تفيد: ﴿ثُمَّ﴾ الترتيب مع التراخي وفيها: أن النجاة تأخذ وقتا طال أو قصر، كما قال ابن مالك في الخلاصة:

والفاء للترتيب باتصالِ وثم للترتيب بانفصالِ

٢٤٢٠. تفيد: وبضميمة ما قبلها: أن القرآن، مثاني؛ يثنى فيه ذكر المؤمنين وولاية الله ونجاته لهم، وذكر الكافرين وعداوة الله وعذابه لهم.

٢٤٢١. فيها: قدرة الله، وأن كل شيء بيده وبمقدار لا يخرج عن أمره مثقال ذرة؛ لأنه توعد الكافرين بنزول وحلول العذاب، وفي الوقت عينه ينجي منه المؤمنين بقدرته، قال الله تعالى:

﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف:٢٥]، فانظر إلى إذن الله لها، ثم كيف استثنى من الدمار البيوت.

٢٤٢٢. فيها: أن بحسب ما عند العبد من الإيمان تحصل له النجاة من المكاره؛ دل على ذلك صلة الموصول.

٢٤٢٣. تفيد: الحث على الإيمان والدخول في سلسلة عباده المؤمنين.

٢٤٢٤. تفيد: عظمة الله تعالى ورحمته ولطفه بعباده المؤمنين فهو ناصرهم ومطمئنهم ونقل البشريات إليهم، بشرياته التي تشرح صدورهم وتثبتهم في طريق الحق والهدى.

٢٤٢٥. فيها: الاطمئنان بنجاة المؤمنين مهما تكاثرت الخطوب وتوالت النكبات وتطاول الكفار.

٢٤٢٦. تفيد: نون الإضافة العناية والرعاية الخاصة لقوله ﴿رُسُلَنَا﴾

٢٤٢٧. تفيد: تعظيم الرب جل وعلا؛ دل على ذلك قوله: ﴿رُسُلَنَا﴾ ﴿عَلَيْنَا﴾ ﴿نُنجِ﴾ بصيغة الجمع التي تدل على التعظيم والإجلال.

٢٤٢٨. فيها: مكانة التربية بالقدوة فإنما بعث الرسل بشر لكمال الاقتداء: ﴿رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾.

قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:١٠٤].

٢٤٢٩. تفيد: أنه لا مجاملة ولا سكوت في قضايا الوحدانية والتوحيد، بل لابد من إعلان المبادئ والثبات عليها لقوله تعالى: ﴿قُلْ﴾.

٢٤٣٠. فيها: استخدام أساليب التعريض اللطيفة في الدعوة إلى الله بأسلوب الجدل والمناظرة منها: أسلوب القول بالموجب، من أحسن ما يجيء به المناظر ﴿إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي﴾ فهنا سلم للدليل تنزلا مع الخصم ﴿فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ امتنع المدلول.. فالشك واقع فيما عبدوه لأنه ليس لديه أدنى نفحة حياة، وهم يرونها آلهة أمامهم، فضلا عن أن يكون لها قدرة تصرف وتدبير.

٢٤٣١. فيها: فحوى ذكر الموت وهو غائب منتظر، ومن عاش كأن لم يعش، إلا من قدم لحياته، هو باختصار خروج نهائي من الدنيا، مما يعني أن هذه البشرية مسافرة راحلة، فسبحان من جعله هادم اللذات، وقاهر الجبابرة، وقد أرشدنا النبي ﷺ لنا بالإكثار من ذكره.

٢٤٣٢. تفيد: رعاية الله تعالى وكفايته وتسديده لرسوله عليه السلام، حيث يثبته ويوجه القرآن الكريم.

٢٤٣٣. تفيد: أهمية اليقين والثقة بهذا الدين وعدم الشك والتردد أنه حق ومن عند الله ويحقق كل خير ويدفع كل سوء وشر، بخلاف ما نراه اليوم من دعاة العلمانية الذين يرون أن الدين من أسباب تخلف المسلمين.

٢٤٣٤. تفيد: أن الذي يهب الحياة ويتوفى الأنفس وإليه المنقلب وعنده الجزاء هو الذي يستحق العبادة.

٢٤٣٥. تفيد: أهمية استعمال أسلوب التهديد في مخاطبة الكافرين؛ لأن في العدول من خلقكم إلى يتوفاكم فيه تهديد لهم.

٢٤٣٦. تفيد: وجوب إخلاص العبادة لله تعالى ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي المخلصين، فتحقيق التوحيد وتجنب الشرك واجب بل هو أعظم واجب.

٢٤٣٧. تفيد: أن النبي عليه السلام بشر يوحى إليه ويأمره ربه وهو أول المستجيبين له.

٢٤٣٨. تفيد: بدلالة المناسبة اليقين بنصر الله تعالى والثقة بكفايته فينبغي حث الدعاة على إعلان الحق وإظهاره للناس، فلَمّا ذَكَرَ سننه في نصرة الحق، أَمَرَ رَسُولَهُ بِإِظْهارِ دِينِهِ وبِإِظْهارِ المبايَنَةِ عَنِ المشْرِكِينَ؛ لِكَيْ تَزُولَ الشُّكُوكُ والشُّبُهاتُ في أمْرِهِ وتَخْرُجَ عِبادَةُ اللَّهِ مِن طَرِيقَةِ السِّرِّ إلى الإظْهارِ.

٢٤٣٩. تفيد: كمال قدرته وعظمته وأن الأمور بيده وحده وأنه لا أحد يفلت، لقوله تعالى: ﴿الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ﴾.

٢٤٤٠. تفيد: أنه لا يجوز الشك في هذا الدين لوضوح آياته وظهور براهينه ولذلك استعمل ﴿إِن﴾ بدل إذا.

٢٤٤١. تفيد: بالمفهوم وجوب اليقين في هذا الدين وأن الشك كفر؛ قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾ [الحُجُرات:١٥]. وبالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين.

٢٤٤٢. فيها: أن الدين هو عبادة الله تعالى وحده.

٢٤٤٣. تفيد: عظمة دين الإسلام الذي كله هدى وحق ونور وشفاء ورحمة.

٢٤٤٤. فيها: أن الوفاة وقبض الأرواح من أعظم الدلائل على عظمة الخالق سبحانه وتعالى واستحقاقه للعبادة. ومن أظهر الدلائل على ضعف الخلق وفقرهم وفنائهم؛ المعبودون والعابدون.

٢٤٤٥. فيها: أهمية الإيمان وتقديمه لأن قبول الأعمال يقوم عليه ولذلك قال: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

٢٤٤٦. وفيها: معنى أن التصفية قبل التحلية، تصفية العبادة من الشرك بما دون الله وتحليتها بعبادة الله وحده.

٢٤٤٧. تفيد: أن الدين إنما يؤخذ من الرسول فهو الأسوة وهو القدوة﴿دِينِي﴾ "خذوا عني مناسككم"(١) "صلوا كما رأيتموني أصلي"(٢) .

٢٤٤٨. فيها: مقتضي أن يعبد الله وحده وأن لا يعبد إلا بشرع علي لسان نبيه.

٢٤٤٩. في الجملة من الآية: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أن أمر ثوابت الدين والمعتقد إنما يتوجه ويتعلق بأمر القلوب في المقام الأول فجاءت الآية بلفظ ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾دون عداها من المتشابهات.

٢٤٥٠. يستفاد من الدليل المركب من الآيتين ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾بضميمة ما قبلها ﴿كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:١٠٣]. أن أمر النجاة مرتبط بالإيمان المتعلق بالقلب وصدق التوجه لله والإخلاص له فناسب ذلك (المؤمنون).

﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يونس:١٠٥].

٢٤٥١. تفيد: أن الاستقامة والأعمال الصالحة يجب أن تبنى على أساس متين من العقيدة ومجانبة الشرك ﴿حَنِيفًا﴾ وقوله ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

---

(١) صححه الألباني في الجامع الصغير وزيادته ١/٩٢٠.

(٢) أخرجه البخاري ١/١٢٨.

٢٤٥٢. فيها: توجيه الخطاب للرسول يدل على عظمه وأهمية فحوى الخطاب.

٢٤٥٣. وفيها: هداية معنى موافقة السنة للقرآن، وتأول أدعية من القرآن (اللهم وجهت وجهي إليك..) (. وعلى دين نبينا محمد وعلى ملة أبينا إبراهيم حنيفا مسلما وما كان من المشركين).

٢٤٥٤. وفيها: مكانة الوجه من بني آدم حسـا ومعنى، دينا وبدنا، ولذا نهى النبي ﷺ عن ضرب الوجه"[1] ونهى عن وسم حتى البهائم على الوجه"[2]، وحفظ وجوه النساء بالحجاب، وكرم وجوه الرجال باللحى.

٢٤٥٥. فيها: الأمر بإخلاص الدين لله.

٢٤٥٦. فيها: الأمر بالإقبال على الله سبحانه وتعالى والإعراض عن ما سواه وهذا هو معنى الحنيفية.

٢٤٥٧. فيها: البراءة من المشركين في كل شيء؛ قال السعدي: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ لا في حالهم ولا تكن معهم"[3].

٢٤٥٨. في الآية فائدة: أنه لا يقع الاجتهاد في قضايا الإيمان الكلية لأنها متعلقة بالأمر الإلهي التوقيفي ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يونس:١٠٦].

٢٤٥٩. فيها: من المناسبة أنه سبحانه: لما نهى نبيه عليه الصلاة والسلام عن الشرك أكد ذلك بقوله: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾.

٢٤٦٠. فيها: أيضا مناسبة لما قبلها فبعد أن نهت الآية السابقة عن الشرك ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ ذكرت هذه الآية الكريمة أبرز وأخطر أنواع الشـرك الأكبر الذي قد يقع فيه حتى من يدعي عبادة الله تعالى، وهو شرك الدعاء والمسألة.

٢٤٦١. وفيها: عبادة الأصنام والأوثان لا تغن ولا تسمن من جوع.

٢٤٦٢. وفيها: أن المسلم يتعلق بمولاه دون غيره فهو الذي يجلب النفع ويدفع الضر سبحانه.

---

(١) أخرجه البخاري ١٥١/٣، ومسلم ٢٠١٦/٤.

(٢) أخرجه مسلم ١٦٧٣/٣.

(٣) تفسير السعدي ٣٧٥/١.

٢٤٦٣. وفيها: أشد أنواع الظلم ظلم النفس بالشرك.

٢٤٦٤. وفيها: بيان خطورة الشرك.

٢٤٦٥. فيها: أن الدعاء لله عز وجل من أعظم لوازم الإيمان.

٢٤٦٦. فيها: هداية قيمة معنى النفع والضـــر في حياة النفس البشـــرية، وهي أكبر قيمة تحدو وتســوق لإحســاس ابن آدم بالرغب والرهب، فيتحرك بموجبها، حتى في شـؤونه الدنيوية، وهي مرتكز في علوم الادارة.

٢٤٦٧. وفيها: معنى اعتقاد النفع والضـــر لمن يملكهما حقيقة ويقدر عليهما وهو الله فمن تصور هذا المعنى في غير من يملك ويقدر، فهو من الظالمين.

٢٤٦٨. هذه الآية هداية من الله للبشـــرية لمعاني الدعاء النافع ومتطلباته وشـــروطه وضـــوابطه واحترازاته وموانعه وما يضاده وينافيه.

٢٤٦٩. وفيها: اصطلاح الدعاء بعمومه كما في هذه الآية كما يكون قولا يكون فعلا، ويكون طلبيا وضمنيا.

٢٤٧٠. وفيها: أنه لا ينجو ناج، ولا يهلك هالك من البشـرية إلا بالدعاء، وهو قصـد وقول وعمل، أن كان بحق نجا، وأن كان بظلم هلك.

٢٤٧١. فيها: أسلوب تربوي عميق، لكل من أردت تحذيره من شر ما، من الكبار أو الشباب والناشـئة خاصـة ممن يجازف (إن فعلت.. فإنك إذا من الظالمين) إن تعرضـت لعورات الناس.. إن رفعت سلاحا بوجه صديق..

٢٤٧٢. وفيها: معنى الظلم والظالمين وشناعة الوصف والمدلول، ويجب على الإنسان أن يتذكر دائما قبح هذا الوصف وجرمه، فلا يقربه بحق الخالق الجليل، ولا المخلوق برا أو فاجرا ولا بهيمة، ولا نفسه التي بين جنبيه.

٢٤٧٣. وفيها: مصطلحات القرآن الشائعة التي بعث بها الرسل في كل ملة (مصطلح الدعاء، النفع، الضـــر والضـــرر، الظلم والظالمين)، وهي مما يجب أن يتربى الشـــباب والامة جميعا على معرفته، ليعلموا الحســن من القبح والصـــالح من الفاســد، وما يؤثر وما لا يؤثر، ومن بيده المدح والذم والنفع والضر.

٢٤٧٤. فيها: أن كل من سوى الله – مهما عظم شأنه –، لا يضر ولا ينفع؛ فالضر والنفع بيد الله وحده.

٢٤٧٥. فيها: افتقار كل الخلق (صالحهم وطالحهم) للواحد الاحد سبحانه.

٢٤٧٦. فيها: أن النفوس مجبولة علي حب النفع ودفع الضر.

٢٤٧٧. تفيد: أن من يستحق العبادة حقيقة هو من يملك النفع والضر حقيقة.

٢٤٧٨. خطورة الشرك إذ حذر الله منه إمام الموحدين صلي الله عليه وسلم.

٢٤٧٩. تفيد: دعاء الله، يجلب النفع ويدرأ الضر – الحقيقي.

٢٤٨٠. يفيد توجيه الخطاب إلى الرسول مع إرادة الأمة قاطبة عظم وخطورة الخطاب ومتعلقه من شرك الدعاء.

٢٤٨١. تفيد: وضاعة ودناءة مكانة كل من يدعي من دون الله.

٢٤٨٢. فيها: أن الأدلة العقلية لا تتعارض مع الأدلة الشرعية بل تعضدها وتكون شاهد لها.

٢٤٨٣. تفيد: وجوب التحذير من الشرك بالله، وتوجيه ذلك للناس مهما بلغ علمهم بالله؛ وعلى هذا تبنى الدعوة إلى الله.

٢٤٨٤. فيها: الترغيب في أمر التخلق بمقتضي أسماء الله تعالي وصفاته نفعا للخلف ودفعا للضر عنهم بقدر الاستطاعة رغبة فيما عند الله من الأجر.

٢٤٨٥. فيها: أن من أعظم الشرك أن تدع أحدا من دون الله عز وجل.

٢٤٨٦. فيها: كمال التشريع في بيان ما ينفع وما يضر.

٢٤٨٧. تفيد: أن دين الله (عبادة الله وحده) قائم على تحقيق مصالح العباد في الدنيا والآخرة واجتناب المفاسد وتقليلها في الدنيا والآخرة.

٢٤٨٨. تفيد: الجملة: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أن المخلوق لا يدعى مهما بلغت منزلته لأنه دون الله؛ فلا يدعى ملك مقرب ولا نبي مرسل ولا ولي صالح.

٢٤٨٩. فيها: أن الدعاء من خصائص توحيد الألوهية ولذلك آثر اسم الله في الآية على اسم الرب ولذلك الشرك في الدعاء من أعظم أنواع الشرك الأكبر.

٢٤٩٠. فيها: جواز إطلاق الفعل وإرادة القول ﴿فَإِن فَعَلْتَ﴾ والدعاء يكون بالقول.

٢٤٩١. فيها: أن دعاء غير الله تعالى من أعظم الظلم والشـــرك دل على ذلك التأكيد والجملة الإسمية.

٢٤٩٢. فيها أن الدعاء في الآية دعاء مســـألة، ويحتمل أن يكون دعاء عبادة وهما متلازمان، وتوضيحه: وأما دعاء العبادة فإنه وإن لم يكن بصيغة الطلب إلا أنه يستلزم دعاء المسألة، لأن كل عبادة يطلب بها الإنسان ما ينفعه، وكل دعاء مسألة فإنه يتضمن دعاء العبادة.

قـال تعـالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يونس:١٠٧].

٢٤٩٣. هذه الآية حادية وســـائقة، تهدي إلى تجلية حقيقة آثار معاني النفع والضـــر بيد من يملكها ويقدر عليها جل جلاله، وهذا عمود عظيم من عمد التوحيد، ودعاء الله عبادة وسؤالا.

٢٤٩٤. تهدي إلى: معنى كيف يربي الله عباده، بإظهار ضـــعف الإنســـان وحاجته، حتى لو استكبر، ضعفه بما جبل عليه، أو تسبب به ظلما وجهلا، وكله تحت قدر الله وقدرته وسلطانه.

٢٤٩٥. تهدي إلى: بيان جلال صـــفات الرب، ولطفه ورحمته، فضـــره كثيرا ما يكون مســـاً فحسب، وخيره فضل، وعطاء بلا رد.

٢٤٩٦. تهدي إلى معاني اقتران الاسماء الحسنى في فاصلتها، وفيها: من المعاني وصفات وعلل واسرار لما قبلها.

٢٤٩٧. تهدي إلى حث العبد لتأول القرآن بالدعاء (اللهم اكشـــف ما مســـنا من الضـــر) (ونسألك من فضلك العظيم) ومن نظر في السنة وجد كثيرا من أدعيتها كما هو مشهور موافقا للآية.

٢٤٩٨. فيها: أن مس الضر لأحد ليس دلالة على صلاح أو فساد فيه، بل هو ابتلاء يصيب به الله من شاء من عباده يلمح هذا من توجيه الخطاب للنبي التقي محمد صلى الله عليه وسلم.

٢٤٩٩. تفيد: هذه الجملة من الآية: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ﴾ أن الضـــر عارض ومجرد مس يســـير كما يستوجب شكر نعم الله علينا.

٢٥٠٠. تفيد: الجملة: ﴿فَلَا كَاشِفَ﴾ أن غالب الضـر إنما يزول بالكلية وينكشـف البلاء مما يستوجب علينا الصبر الجميل.

٢٥٠١. فيها: عدم التشبث بالأسباب وان كان مأمور بأخذها.

٢٥٠٢. فيها: تعليم حسن التوكل على الله وترك العلائق وقطاع الطريق إليه.

٢٥٠٣. فيها: أن الخير واسع يشمل جميع الناس مؤمنهم وكافرهم، ومفهومه على غير ما يتعارفه الناس في حكمهم بقولهم _ الشر يعم والخير يخص _فلله الحمد والمنة.

٢٥٠٤. يفيد تذييل الآية الكريمة بأن ما يصيب الناس من شر أو خير فبمغفرته ورحمته فلولا غفرانه لذنوبنا ورحمته بنا ما رفع عنا ضر وما أنزل لنا خير.

٢٥٠٥. تفيد: بضميمة ما قبلها نفي الوساطة والشفاعة عن آلهة المشركين في هذه الآية كما نفي عنها النفع والضر في الآية السابقة.

٢٥٠٦. تفيد: منهج القرآن في الإحاطة بالشبهات واستيعابها ودحضها وتفنيدها واحدة واحدة.

٢٥٠٧. تفيد: نفي معارضة الإرادة دفعا وهي أيسر لبيان عجز الآلهة عن معارضه الخير رفعًا، والدفع أيسر من الرفع ﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾.

٢٥٠٨. يفيد: التعبير بالفضل أن كل خير واصل للناس إنما هو فضل من الله لا استحقاق لهم ومعاملة الله لعباده إنما تكون بالعدل والفضل، فله الحمد والشكر.

٢٥٠٩. تفيد: أن جنس ونوع الضر والخير قليله وكثيره فلا ينصرف العبد إلاّ لله في دفع شيء من الأول وتحصيل شيء من الثاني قل أو كثر.

٢٥١٠. تفيد: أن مشيئة الله نافذة في كل ما يصيب المرء في أمر دينه أو دنياه في أولاه وأخراه لقوله تعالى: ﴿يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾.

٢٥١١. هذا من أعظم الأدلة على أن الله وحده المستحق للعبادة، فإنه النافع الضار، المعطي المانع، الذي إذا مس بضر، كفقر ومرض، ونحوها ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾ لأن الخلق، لو اجتمعوا على أن ينفعوا بشيء، لم ينفعوا إلا بما كتبه الله، ولو اجتمعوا على أن يضروا أحدا، لم يقدروا على شيء من ضرره، إذا لم يرده الله، ولهذا قال: ﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾ أي:

لا يقدر أحد من الخلق، أن يرد فضله وإحسانه، كما قال تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٢]. (١).

٢٥١٢. فيها: إثبات المشيئة لله سبحانه وتعالى فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

٢٥١٣. فيها: أن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح ولذلك قدم كشف الضر على إرادة الخير.

قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ [يونس:١٠٨].

٢٥١٤. افتتاح الخطاب بالنداء يفيد التنبيه لأهمية الخطاب﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾.

٢٥١٥. تفيد: (ال) أن الحق كل الحق هو من عند الله عز وجل ﴿قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ﴾ ،لأن (أل) من صيغ العموم: قال الشيخ السعدي في منظومة القواعد الفقهية:

و (ال) تفيد: الكل في العموم في الجمع والإفراد كالعليم

٢٥١٦. تفيد: غنى الله سبحانه وتعالى المطلق عن عمل العاملين وطاعة الطائعين؛ فهداية الإنسان لنفسه، وضلاله على نفسه.

٢٥١٧. تهدي إلى معرفة مصطلح الحق، وهو أكبر اصطلاحات العدالة التي تطلب في الأرض وفي كل أنظمة الفصل والقضاء حتى في الأمور الدنيوية، وعند كل الملل.

٢٥١٨. تهدي إلى أسلوب عرض خطب البيان البليغ: بالنداء العام ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾.

٢٥١٩. فيها: المقدمة بتقرير القضية والموضوع ﴿قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾، وذكر الثمرة والنتيجة ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ﴾والاحترازات ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾

٢٥٢٠. تهدي إلى أن نفس الإنسان عند نفسه أغلى وأعز عليه من أي شيء في أمور الدنيا، ولذا حضه عليها ولفته نحوها، لتكون كذلك أيضا في أمور الآخرة ومصالحها العاجلة والآجلة، إن كانت نفسه عزيزة عليه ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ﴾.

---

(١) تفسير السعدي ١/٣٧٥.

٢٥٢١. تهدي إلى بيان شدة وطأة الضلال، هو شيء يعلو ويضغط ويسحق ويخسف بصاحبه ﴿عَلَيۡهَاۖ﴾وليس لها.

٢٥٢٢. تهدي إلى أن الوكالة والتوكيل منفية في قضايا الايمان، بخلاف أمور الدنيا.

٢٥٢٣. ومنها: عدم الالتفات إلى تثبيط الطاعنين.

٢٥٢٤. تفيد: أن واجب الداعية وحقيقة الدعوة: التبليغ بالحسنى، فإن نجح فبفضل الله لا بمجهوده وإن فشل بقدر الله لا بتقصيره. ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ﴾

٢٥٢٥. تفيد: في جملة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾لفت دائم إلى الآخر الذي نهمل دعوته في ظل تقصيرنا – نحن المسلمون – فنرى الأولى البدء بالأقرب فتأتي آيات ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ لتذكرنا بواجب الغير علينا وبعالمية دعوتنا.

٢٥٢٦. تفيد: الجملة من الآية الكريمة: ﴿مِن رَّبِّكُمۡ﴾"الذي من أعظم تربيته لكم، أن أنزل إليكم هذا القرآن الذي فيه تبيان لكل شيء، وفيه من أنواع الأحكام والمطالب الإلهية والأخلاق المرضية، ما فيه أعظم تربية لكم، وإحسان منه إليك"(١).

٢٥٢٧. فيها: أن من كمال التربية وصلاح المربي أن يكون له منهج يسير عليه لمصلحة من يرعى ويربي ولا يعتمد على خبرته أو عواطفه.

٢٥٢٨. فيها: أن المنهج الرباني يأتي غالبا واضحاً قابلاً للتطبيق مباشرة، وتارة يحتاج إلى استنباط كما العمل هنا في الهدايات، مما يؤكد ضرورة الخطوات اللاحقة من فرز وتصنيف للهدايات ونشر وتبليغ على أوسع نطاق.

٢٥٢٩. في الآيات الأخيرة من سورة يونس وطريقة الخطاب الموجه للنبي عليه السلام تارة كعبد وتارة كنبي وأخرى كرسول، تنبيه للداعية أن يراقب نفسه في كل أحواله وألا يغتر بالمكان والمكانة التي وصلها.

٢٥٣٠. فيها: مع ما قبلها أن أعظم الخير الذي أعطاه الله تعالى لعباده هو بيان الحق لهم بإنزال هذا الكتاب العظيم (القرآن الكريم).

---

(١) تفسير السعدي ١/٣٧٥.

٢٥٣١. فيها: مسؤولية الأمة تجاه تبليغ هذا الحق للناس؛ لأنها مخاطبة بما خوطب به النبي ﷺ في هذه الآية الكريمة وهي قائمة مقامه عليه الصلاة والسلام.

٢٥٣٢. فيها: أن رسالة الاسلام وما فيها: من الهدى ودين الحق هي للناس جميعا وهي أعظم خير جاءهم من ربهم الكريم.

٢٥٣٣. فيها: الفرح بهذا الحق والتمسك به، لأنه جاء من ربنا الرؤوف الرحيم سبحانه وتعالى.

٢٥٣٤. فيها: الحرص على الاهتداء بالحق وإنقاذ النفس به، لأن ترك الحق خسران للنفس وظلم لها.

٢٥٣٥. فيها: النهي عن الغلو في النبي ﷺ فقد بيّن الله عز وجل أنه ليس بوكيل على العباد فمن أعظم الضلال والشرك دعاؤه من دون الله وطلب الحاجات منه.

٢٥٣٦. فيها: ترغيب في طلب الحق والبحث عنه، لأنه جاء من الله لعباده، فلا يمكن لعاقل أن يترك ما جاء الله ويتبع ما جاء من البشر.

٢٥٣٧. تفيد: أن الهداية والنجاة تكون باتباع الحق، وأن الضلال والإهلاك يكون باتباع الباطل.

٢٥٣٨. تفيد: كمال غناه جل وعلا، وأن من كفر وَترك الْإِيمَان؛ فَإِنَّمَا وباله وضلاله عَلَيْهِ ولا يضر الله شيئا.

٢٥٣٩. تفيد: أن مهمة الرسول والداعية بيان الحق للناس ولا يملك بعد ذلك من أمر هدايتهم.

٢٥٤٠. تفيد: أنه لم يبقى بعد بِمَجِيءِ الحَقِّ عُذْرٌ، ولا عَلى اللَّهِ حُجَّةٌ، فَمَنِ اخْتارَ الهُدى واتِّباعَ الحَقِّ فَما نَفَعَ إلّا نَفْسَهُ، ومَن آثَرَ الضَّلالَ فَما ضَرَّ إلّا نَفْسَهُ.

٢٥٤١. فيها: إشارة إلى أن أهم أسس التربية اعتماد الحق والعدل.

٢٥٤٢. فيها: إشارة إلى لطف الله بعباده، ومزيد عنايته بهم.

٢٥٤٣. فيها: حجية السنة النبوية وضلال من أعرض عنها، لأنها من الحق الذي جاءنا من ربنا.

٢٥٤٤. فيها: تَنْزِيهُ ساحَةِ الرِّسالَةِ عَنْ شائِبَةِ غَرَضٍ عائِدٍ إلَيْهِ عَلَيْهِ السَّلامُ، مِن جَلْبِ نَفْعٍ أوْ ضُرٍّ.

٢٥٤٥. فيها: رفع الحرج عن الدعاة الذين أعذروا إلى الله بتبليغ رسالته، وبيان عدم مسؤوليتهم عن النتائج.

٢٥٤٦. فيها: جملٌ من الأساليب البلاغية: منها قوله ﴿قُلْ﴾ ليفيد البلاغ عن ربه عز وجل. ومنها ﴿قَدْ﴾التي تفيد: التحقيق، وتأكيد الخبر، ومنها عموم الجنس ﴿ٱلنَّاسُ﴾ومنها التخصيص والتعيين ﴿جَآءَكُمُ﴾ ومنها الترغيب والتحفيز ﴿ٱلْحَقُّ﴾ومنها التلطف والتحبب ﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾ ومنها أسلوب الشرط ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾كما تفيد: كسب للناس للهدى والضلال. وتفيد: هداية البيان والبلاغ من الرسل إلى أممهم.

﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [يونس:١٠٩].

٢٥٤٧. تفيد: أن المقصود من العلم العمل به ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ﴾. وأن العلم النافع ما طُبق وعُمل به.

٢٥٤٨. تفيد: بيان سنة الصراع بين الحق والباطل والمدافعة بينهما ﴿وَٱصْبِرْ﴾ بيان سنة الابتلاء لمن تمسك وتبع الحق (الوحي) الذي جاءت به الرسل.

٢٥٤٩. تفيد: أن العاقبة لمن اتقى وصبر ﴿وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ﴾.

٢٥٥٠. تهدي إلى بيان أن كل صبر مع الاتباع فعواقبه خير، وحلاوة وطلاوة، ومنظرا ومخبرا، وظاهرا وباطنا. هو حكم الله وهو خير الحاكمين،

٢٥٥١. تهدي إلى: سكينة نفسية، وطمأنينة كامنة، لأن كل قضاء في الدنيا من أقضية الناس يظل الإنسان منه على وجل حتى بعد صدور الحكم لإمكانية اعترائه الاستئناف والنقض، لكن الله جعل قضاءه وحكمه هنا هو أجل انتهاء المتاعب والنصر، فهو خير الحاكمين، لا يعتري أحكامه استئناف ولا نقض، فإنه تعالى لا راد لأمره ولا معقب لحكمه.

٢٥٥٢. تفيد: براعة الختام في هذه السورة الكريمة فما أجملها من خاتمة ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾، وما أجمل تناسقها مع ما قبلها ﴿قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ومع ما بعدها ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ

﴿ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود:١]. فالقرآن حق وحكيم ومحكم من خير الحاكمين فكيف لا يتبع، فهذا كله تعضيد لقوله تعالى:﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ﴾.

٢٥٥٣. تفيد: وجوب اتباع الكتاب والسنة، ولا يخرج عن هذا الاتباع أحد من الخلق مهما كانت منزلته وقدره.

٢٥٥٤. تفيد: أن كمال العبودية في كمال الاتباع للوحي الذي أنزله الله تعالى.

٢٥٥٥. تفيد: أن اتباع الوحي مسيرة حياة لا تنقطع ﴿وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ﴾.

٢٥٥٦. فيها: إشارة له بالنصر والظفر عليهم فإن أحكم وأعدل الحاكمين بلا شك سينصر من نصر الحق وسار على الهدى المستقيم.

٢٥٥٧. تفيد: أن الصبر هو أحد أقوى عوامل النجاح والظفر بالمطلوب وتخطي الصعاب.

٢٥٥٨. تفيد: الرضى بقضاء الله وقدره، لأنه مقدر من عليم حكيم؛ بل ممن هو خير الحاكمين.

٢٥٥٩. تفيد: تفويض الأمر لله ﴿وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ﴾.

٢٥٦٠. تفيد: ترغيب المؤمن في الرضا بحكم الله وأنه خيرٌ طالما صدر عن خير الحاكمين ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾.

٢٥٦١. تفيد: التوجيه الي أن التحدي الداخلي من مجاهدة النفس وإلزامها الاستقامة والصبر علي أمر أو نهي الله أو على أقدار الله أكبر وأعظم من التحدي الخارجي المتمثل في أعداء الله من الكفرة والمكذبين ومن شايعهم ﴿وَٱتَّبِعْ﴾ وقوله ﴿وَٱصْبِرْ﴾.

٢٥٦٢. وفيها: بسابقتها وسائل استمطار النصر وحسن العاقبة وتشمل الإيمان بالله والصدع بالحق ومجاهدة النفس على الاستقامة على أمره والاهتداء بوحيه وصدق التوكل عليه والصبر والرضا التام عن الله وأقداره واستبصار سنن الله في كونه وشرعه والثقة في الله وموعوده.

٢٥٦٣. فيها: أن الاتباع أصل من أصول الإسلام أمر به خير الأنام عليه الصلاة والسلام؛ قال شيخ الإسلام ابن تيمية: دين الإسلام مبني على أصلين: أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئا وأن نعبده بما شرع ولا نعبده بالبدع"[١].

٢٥٦٤. فيها: أن اتباع الوحي يحتاج إلى صبر ومصابرة ولذلك أمره بالصبر بعد أمره بالاتباع.

٢٥٦٥. فيها: توجيه للأمة عموما وللدعاة خصوصا بالعمل بالكتاب والسنة والصبر على ذلك والصبر على أذى الكافرين حتى يحكم الله تعالى بيننا وبينهم.

٢٥٦٦. فيها: الثناء على الله سبحانه وتعالى ومعرفة عظيم صفاته وجلال عظمته وأنه خير الحاكمين.

بحمد الله تم

وبهذا تمت سورة يونس في ٢٥٣٧ هداية

بتاريخ //

ولله الحمد والمنة ومنه التوفيق والعصمة.

تلخيص دكتور محمد عبد الرازق مصطفى

(١) اقتضاء الصراط المستقيم ٢/٣٧٣.